

القيادة والجندية

فى الإسلام

بايعنا رسول الله
على السمع
والطاعة فى
المنشط والمكره،
والعسر واليسر،
وعلى ألا ننازع الأمر
أهله

الدكتور
محمد السيد الوكيل

دار الوفاء

القيادة والجندية في الإسلام

القيادة

الطبعة الرابعة

١٤٣٠هـ ــ ٢٠٠٩م



دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - جمهورية مصر العربية
الإدارة: المنصورة - ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب
ص.ب ٢٣٠ ت: ٢٠٥٠٢٢٥٦٢٣٠+ فاكس: ٢٠٥٠٢٢٦٠٩٧٤+
e.mail:darelwafa@hotmail.com
www.darelwafaa.com

القيادة والجندية في الإسلام

القيادة

دكتور
محمد السيد الوكيل

الجزء الأول

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة . ش.م.م

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالـــى

﴿ يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾

« قرآن كريم »

تقديـــم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ونشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم وعلى من اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين

وبعد فيسرنى بفضل الله أن أقدم هذا الكتاب النافع بإذن الله

إلى جند الله من المسلمين الصادقين ، الداعين إلى الله على بصيرة ، والمجاهدين لنصرة شريعته وإعلاء كلمته

إلى حزب الله المفلحين الذين يحبهم ويحبونه الأذلة على المؤمنين الأعزة على الكافرين الذين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم

إلى هؤلاء الصالحين الخاشعين الذين يتولون الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون

إلى الذين شهدوا شهادة الإيمان الحق « لا إله إلا الله » توحيداً صادقاً كاملاً فأفردوا الله بالوحدانية ، وأقروا بحقيقة العبودية له سبحانه بلا شريك

وإلى الذين شهدوا بصدق الرسالة منهجاً كاملاً لحياتهم ولحياة البشرية جمعاء حينما أيقنوا « أن محمداً رسول الله » ﷺ فى التزام لهديه واتباع لسنته وعمل صحابته رضوان الله عليهم

إلى هؤلاء الذين التزموا بالإسلام « عقيدة وعبادة وشريعة » فهداهم الله لفهم التصور الصحيح للإسلام « إيمان وعمل ، أخوة وجماعة ، دعوة وجهاد » ، فطهروا قلوبهم بتوحيد الله من كل شرك

« حجراً كان أو قبراً أو بشراً » فأخلصوا العبودية لله ، وخلعوا وانسلخوا من عبودية ما سواه من كل الآلهة الباطلة فى الأرض

إلى الذين أسلموا الإسلام الكامل وآمنوا الإيمان الحق وآمنوا الإسلام كله . وعملوا ويعملون « بفضل الله وهدايته » للإسلام وحده ، فآمنوا بالله ربا وإلهاً معبوداً مطاعاً سبحانه الحى القيوم الذى لا يموت الملك المهيمن العزيز الجبار من له الخلق والأمر وله الحكم وإليه المرجع والمصير ، ما أحله فهو الحلال ، وما حرمه فهو الحرام ، سبحانه خلق ورزق وملك وحكم وليس كمثله شيء وهو السميع البصير

إلى الذين آمنوا بمحمد رسول الله ﷺ نبياً وإماماً وقائداً وهادياً إلى طريق الله المستقيم. إلى جنات النعيم ، فاتبعوا هديه واتبعوا منهج الله الموحى إليه « كتاباً وسنة » ورفضوا كل منهج بشرى سواه ، وكل زعامة بشرية ضالة عن طريق الله

إلى الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق «أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر ودعوة إلى الخير وإرشاداً وإصلاحاً ، ووعظاً وتذكيراً وإرشاداً ، وتربية وإعداداً » فأصلحوا أولاً نفوسهم ووصلوها بالله ربهم بعقيدة صحيحة وعبادة سليمة وآداب وأخلاق إسلامية ، وأحكام ومعاملات فى نظام لحياتهم بحكم الله وهدى رسوله عليه الصلاة والسلام

وأصلحوا مع ذلك بيوتهم ومن يعولون من عشيرتهم حتى يقوا أنفسهم وأهليهم ناراً وقودها الناس والحجارة ولا يكونوا يوم القيامة من الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة والعياذ بالله

وصمموا على إصلاح مجتمعاتهم ودعوتها إلى طريق الخير والنور والهداية والفلاح إلى سعادة الدنيا وسعادة الخلود فى دار البقاء ، واستلهموا هدى رسولهم الكريم ، واقتفوا خطو الصحابة الأكرمين ، فى الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة وبالتربية والقدوة والإصلاح والجهاد الكامل حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله . هؤلاء الذين صمموا على إصلاح مجتمعاتهم راجين من ربهم رضاه وثوابه باذلين جهدهم بعزيمة

وتجرد وتضحية وإخلاص لهداية الضالين وتعليم الجاهلين وإرشاد الحيارى والتائهين وجهاد الكفر والظالمين ، بقلوب تملؤها الرحمة للعالمين وحب الهداية للبشر أجمعين ، وإنارة حياتهم بشمس القرآن ونور الإسلام

إلى الذين آمنوا باليوم الآخر مستقراً فى وطن الخلد ، وداراً للجزاء عند مالك يوم الدين ، فأيقنوا بالموت وخافوا من سكراته وسألوا ربهم التخفيف ، وبالقبر وحسابه فدعوا ربهم أن يقيهم عذاب القبر وفتنته ، وبالقيامة وهولها فرجوا الرحمن الرحيم النجاة من هول ذلك اليوم الشديد ، والأمن يوم الفزع الأكبر ، والنجاة من عذاب النار

آمنوا بذلك فباعوا النفس والأهل والولد ، والأموال التى اقترفوها ، والتجارة التى يخشون كسادها والمساكن التى يرضونها ، وكان حبهم لله ورسوله وجهاد فى سبيله أشد وأقوى فباعوا لله كل ما يملكون من حطام هذه الدنيا ، واستجابوا لنداء ربهم ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾ وآمنوا بقوله تعالى ﴿ كتب عليكم القتال ﴾ كما آمنوا بقوله ﴿ كتب عليكم الصيام ﴾ ولم يكونوا بفضل الله عليهم ممن قيل لهم ﴿ كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ﴾ بل كانوا ممن صدق الله فيهم قوله ﴿ فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ﴾

إلى هؤلاء الذين أيقنوا أنهم لن يتركوا بعد أن قالوا آمنا وهم لا يفتنون ، فسألوا الله العافية من بلاء ، وصبروا ويصبرون على المحن محنة بعد محنة ، بالشر وبالخير سواء فى ذلك البلاء بسجن ضيق صغير أو فى سجن الدنيا الكبير بشهواتها وشبهاتها ، سواء فى الحرمان من زوجة وأم وولد وأهل ، أو فى الامتحان بعافية النعيم فى الحياة والطيبات من الرزق التى أحلها الله للذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، فصبروا على الحرمان بالرضا وصبروا على النعيم بالشكر ، وهم يقولون ﴿ ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾

إلى هؤلاء الأطهار الأبرار ، وأسأل الله أن يجعلنا منهم ويتبعنا بهم

بفضله ورحمته

يسرنى أن أدعوهم إلى هذا الفقه الإسلامى لمعرفة القيادة والجندية والإسلام ليزدادوا به علماً ويتفقهوا به فى دينهم قبل أن يسودوا

وإلى غير هؤلاء ممن أظهروا الرضا بالإسلام وهم يجهلون أو يغفلون أو يتناقضون وينافقون ، يهمنى أن يطلعوا على هذا الجانب من خصائص دين الإسلام ومميزاته لعلهم يهتدون وإلى طريق الله يرجعون ويتوبون ، وبالإسلام يؤمنون وله وحده يعملون . وما أرجوه من ربى أن يؤدى هذا الجانب من خصائص ديننا إلى الإيمان بمقوماته وأصوله فيفتح الله به باب رحمته وهدايته ، وتكون العاقبة لمن يسر الله لهم الطريق لخاتمة حسنة تكون بها النجاة من عذاب الله يوم الفزع الأكبر لمن شاء لهم الهداية سبحانه من عباده

وأخيراً إن مؤلف هذا الكتاب المفيد بإذن الله ـــ يعيش معانيه ونصوصه ، ليست فى سطور البحث ، ومجلدات المراجع ، وما أفاء الله على عقله من فكر إسلامى فحسب بل إنه يعيش هذه المعانى حية فى طيبة « المدينة المنورة » دولة الإسلام الأولى ، التى ارتفعت فيها راية الشريعة الإسلامية ، وحكم فيها بكتاب الله المنزل من السماء ، إنه يعيش على أرض شهدت الصحابة الكرام وهم يجاهدون جنوداً تحت قيادة رسول الله ﷺ فى غزوة بدر وأحد والخندق وغيرها

وأسأل الله أن يبارك جهده ، وأن يرزقنا وإياه الإخلاص والصدق فى كل قول وعمل . وأن ينفع به ويهدى إنه نعم المولى ونعم النصير . ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ﴾ والحمد لله والصلاة والسلام على رسولنا الهادى إلى صراط الله المستقيم وعلى الصحابة ومن اتبعهم بإحسان

فتحى محمد رفاعى
المدينة المنورة

مقدمـــة

كثير من الناس يجهلون أن الإسلام عقيدة وشريعة ، عبادة وقيادة وقليلون أولئك الذين يعلمون أن الإسلام منذ وجوده وحتى تقوم الساعة قد شيد على نظام رصين محكم ، لحمته وسداه القيادة والجندية ، فهما الدعامتان اللتان اهتم بهما الإسلام عند إقامة دولته

فمن القيادة يكون التصميم والتخطيط ، ومن الجنود يكون العزم والتنفيذ ، وبالتصميم والتخطيط ، والعزم والتنفيذ تخرج المشروعات إلى حيز الوجود ، وقد كانت من قبل أفكاراً لا تتعدى رؤوس العباقرة والمفكرين

ولما كان الإسلام هو الدين الذى ارتضاه الله للناس كافة ، ولما كان هذا الدين هو الترجمة العملية لحياة المسلمين لأنه العقيدة التى يعبدون الله على أساسها ، والشريعة التى يتعاملون بها ، والسلوك الذى ينظم حياتهم

لا شك أن الإسلام وهو بهذه المثابة ، لا يمكن أن تكون فلسفته تهيم فيها العقول ، ونظريات لا توجد فى واقع الناس ، بل كان لا بد أن يكون برنامجاً ينظم للناس حياتهم ، ومنهاجاً يرجعون إليه إذا التبست الأمور عليهم

لهذا كان الإسلام برنامجاً يتناول حياة المسلمين من جوانبها المتعددة فيعالج مشكلاتهم السياسية ، ويحل معضلاتهم الاقتصادية ، وينظم حياتهم الأسرية ، ويحدد مسيرتهم إلى غايتهم السامية

وكان لا بد أن يكون الإسلام منهاجاً يلتزمه المسلمون فلا يحيدون عنه أبدا ، لأن فى الحيدة عنه انحرافاً عن القصد ، وخروجاً على النهج ، وكلاهما يؤدى لا محالة إلى التخبط والضلال

ولقد فهم المسلمون الأولون الإسلام على هذا النحو الذى أراده الله — عز وجل — حينما بعث به نبيه محمداً — ﷺ — فتغلبوا على العقبات التى واجهتهم ، وذللوا الصعوبات التى اعترضتهم ، وشيدوا دولة قوية الأركان ثابتة البنيان ، كانت فى جبين الدهر غرته ، وفى جيد الزمان قلادته

والمسلمون اليوم فى حاجة إلى أن يعودوا إلى الإسلام الصحيح الذى أوحاه الله إلى رسوله — ﷺ — ليستعيدوا مجدهم ، ويكونوا أساتذة الدنيا كما أراد الله لهم ، وهذا هو الذى يتوق إليه المصلحون ، ويتطلع إليه المخلصون

ولا يمكن أن يحقق المسلمون ذلك بدون دولة تحكم فيهم كتاب الله ، وتقيم بينهم شريعة الإسلام ، وتأطر الناس على الحق أطرا

ولا يمكن أن تقوم دولة بغير قيادة ، ولا قيمة للقيادة بدون جنود ، لهذا كانت القيادة والجندية فى الإسلام أمراً لا مفر منه ، ولا غناء عنه

والقيادة فى الإسلام يمثلها الخليفة ، والجنود هم المسلمون الذين يعيشون فى كنف الدولة الإسلامية

ولما كان تنصيب الخليفة فى الإسلام فرضاً لا يغنى عنه شيء مهما عظم صدرت الكتاب بفصل يتناول الخلافة وأحكامها ، والبيعة وطرقها ، ثم بينت ملامح المجتمع الإسلامى الذى تميزه عن غيره من المجتمعات ، وتناولت وجوب العمل لإيجاد الجماعة المسلمة بالتفصيل والتوضيح ، وحتمية العمل مع الجماعة المسلمة

وهذا الكتاب محاولة متواضعة لإظهار معنى القيادة والجندية فى الإسلام ، تكلمت فيه عن الجهاد ومشروعيته ، وكيفية تكوين الجيش الإسلامى وتدريبه ، وحقوق القيادة وواجباتها

وآمل إن شاء الله أن أتمكن من إخراج القسم الثانى الذى يوضح حقوق الجنود وواجباتهم ، راجياً أن ينفع الله به ، وأن يجعله من العلم النافع فى ميزان حسناتنا يوم القيامة إنه جواد منان عليه توكلت وإليه أنيب

محمد السيد الوكيل

المدينة المنورة فى
١١ ربيع الأول سنة ١٣٩٦ هـ
١٠ إبريل سنة ١٩٧٦ م

الفصل الأول

١ ـ تمهيـــــــــــــد .
٢ ـ الخلافــــــــــة .
٣ ـ الإمامـــــــــــة .
٤ ـ البيعـــــــــــة .
٥ ـ الشـــــــــورى .

تمهيـــد

الخلافة والإمامة كلمتان مترادفتان فى المعنى عند المسلمين ، وكلتاهما تعطى مدلولاً واحداً هو « تحمل مسئولية أمر المسلمين لتدبير أمورهم الدنيوية والأخروية »

فأمور الدين يجب أن تكون متوافقة مع الشريعة التى جاء بها رسول الله ﷺ لا يبتدع الخليفة فيها شيئاً ليس منها ، وليس له الحق أن ينقص شيئاً منها

فالزيادة فيها بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، والزيادة عليها افتراء على الله ﴿ **إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله** ﴾[1] ثم ترد عليهم تلك الزيادة فلا تقبل منهم « من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد »

والخليفة فى هذا كله مقيد بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وسيرة الخلفاء الراشدين المهديين ليس له أن يحيد عنها أو يتنكر فيها

وأما أمور الدنيا وسياسة الدولة فتلك قضية للاجتهاد فيها مجال واسع رحب ، تمليه مصلحة الأمة وتحقيق الخير للناس ، إذ ليس هناك قواعد ثابتة ألزمنا بها الدين فى إدارة الدولة ، اللهم إلا القواعد العامة التى تحقق المصالح ، وتجلب الخير ، وتدفع الشر ، وترد كيد الأعداء والقواعد العامة التى تضمن للأمة ذلك تتلخص فيما يأتى

١ ــ المحافظة على وحدة الأمة وقوتها

٢ ــ جلب المصالح ودرء المفاسد

٣ ــ إرهاب الأعداء وتخويفهم حتى لا يكونوا عقبة فى وجه الدين .

مهمة الخليفـة

إن مهمة الخليفة فى الإسلام هى تطبيق الشريعة الإسلامية ، والمحافظة على نظام الدولة موافقاً للكتاب والسنة ، فكتاب الله دستورها ، وسنة رسول الله

---

(1) النحل آية (١٠٥)

رائدها ، وسيرة الخلفاء الراشدين دليلها ، والمحافظة على وحدة الأمة وقوتها ، وجلب المصالح ودرء المفاسد وإرهاب الأعداء مهمتها .

وبهذا تحيط الأمة الإسلامية نفسها بسياج قوى من الأمن الذى حرم منه العالم ، والرخاء الذى يتشوف إليه الناس ، والطمأنينة النفسية التى حرمتها الأمم ، فأصبحت تعيش فى شقاء قاتل رغم تلك الحضارة المادية ، والابتكارات العقلية التى تفوق الوصف ولا يحدها حد .

إن العالم الآن محروم من الأمن رغم عظم الوسائل التى تحيط بها الأمم نفسها ، ورغم الابتكارات التى يولد منها كل يوم عشرات المواليد ورغم التخطيط الهائل المبنى على أسس علمية ونفسية لمحاربة الجريمة رغم كل هذا ، ورغم التقدم العلمى والثقافى لا زلنا نبحث عن الأمن وسط هذا الركام ، ولكننا لم نهتد إليه ، ولا زالت تروعنا هذه الاختطافات المتوالية للزعماء تارة وللطائرات تارة أخرى ، ولا زالت تقلقنا أخبار هذه العصابات فى كل أنحاء العالم .

عصابات لسرقة المصارف رغم الحراسة والتشديد ، وعصابات لسرقة السيارات وتغيير هياكلها ولوحاتها ، وعصابات تخطف الطائرات وهي تحلق فى الجو ، وعصابات تسرق البشر لتستجدى من ورائهم رزقاً حراماً خبيثاً ، وعصابات وعصابات وعصابات .

والعالم يجتمع وينفض ، والدنيا تقوم وتقعد ، والخبراء يدرسون ويبحثون ، والدول تفكر وتقرر ، كل ذلك لم يخفف شيئاً من حالة الذعر التى يعيشها الناس ، ولم يخفف وطأة الرعب المسيطر على أعصابهم .

لقد أصبح الناس فى عصر التقدم العلمى جاهليين ، وفى عصر الرقى الحضارى بدائيين ، وفى عصر التخطيط والتنظيم فوضويين ، وأصبحت الدنيا مظلمة رغم كثرة الأضواء ، ضيقة رغم اتساع الميادين ، متجهمة رغم وفرة المضحكات ، حاقدة رغم ازدحام الملهيات .

كل ذلك لأنها محرومة من الأمن الذى وفره الإسلام وعجزت عن توفيره مبادىء الماديين ، وتوجعات الاشتراكيين وفلسفات الوجوديين ، وستظل

الدنيا غارقة فى بحر من الظلمات حتى تفىء إلى أمر الله ، وتقيم حدود الله ، وتحكم شريعة الله .

والعالم اليوم محروم من الرخاء رغم إدخال أحسن الوسائل فى أعمال الزراعة ، ورغم اتساع رقعة الأرض الزراعية ، ورغم ابتكار أحدث وسائل الحرث والرى والحصاد ورغم تحسين البذور واختيارها من أجود الفصائل ورغم كثرة المصانع ووفرة الإنتاج واتساع الأسواق ، رغم كل هذا ولا زال الناس يبحثون عن لقمة الخبز ويلهثون وراء قطعة الجبن ، ويبذلون ماء وجوههم للحصول على ثوب ، ويضحون بأعراضهم لتوفير المسكن .

غلاء في الأسعار ، وقلة فى المحاصيل ، وفوضى فى التوزيع ، لصوصية فى حصر المواد الغذائية ، مشكلات أذهلت المفكرين ، وحيرت الخبراء .

المفكرون يبحثون عن الأسباب ، والخبراء يضعون الحلول ثم لا أسباب ولا حلول ، فينتهون إلى حيث بدأوا ، ويبدأون من حيث انتهوا ، حلقة مفرغة ، يدورون فيها كما يدور الحمار حول الرحى ، لا نهاية يلتقط أنفاسه عندها ، ويستروح من هذا الشقاء بعد وصوله إليها ، ولا بوادر خير يشم رائحتها فيتجه إليها ، وهكذا سيظل الناس مكدودى الأذهان ، مرهقى الأبدان مبهورى الأنفاس حتى يعودوا إلى الإسلام .

إن الإسلام قد حقق الرخاء لمن عاشوا فى كنفه ــ حتى اليهود والنصارى وذلك بوضع نظام اقتصادى قضى على الفقر وأنهى الاحتكار ، وأقام العدل ــ فكان منادى الخليفة ينادى فى الأسواق بحثاً عن طلبة العلم لينفق عليهم ، وعن المحتاجين ليواسيهم وعن العُزّاب ليزوجهم ، وما تبقى من مال الدولة بعد ذلك ينفق فى سد الثغور ، وبناء الجسور ، وما إلى ذلك كفتح المدارس وإنشاء المشافى . والإسلام اليوم كفيل بأن يحقق هذا الرخاء للذين يؤون إلى رحابه ، ويفيئون إلى ظله ، ويعيشون فى كنفه

ثم حرمان من الطمأنينة النفسية ، إن الطمأنينة النفسية ، وراحة البال ، وخلو القلب من المشاغل من أهم متطلبات الإنسانية فى هذه الحياة ، فاطمئنان النفس أحب إلى الإنسان من وفرة الخبز ، وراحة البال أعز عليه من ثياب

الخز ، وخلو القلب من المشاغل أهم عنده من المركب الفاره والمسكن المريح ، ذلك لأن النفس إذا لم تتوفر لها الطمأنينة لا تستلذ بملبس ولو كان فاخرا ، والقلب إذا ملأته الهموم والشواغل لا يهنأ بالمركب والمسكن ولو كانا طيبين فارهين

تلك هى طبيعة الإنسان العاقل ، إنه يبحث عن طمأنينة النفس ويعيش معها أنى وجدها ولو بين الأكواخ ، ويريد راحة باله ويسعى إليها ولو صاحبها الفقر المدقع ، ويطلب خلو قلبه من الهموم والمشاغل ، ويبحث عنه ولو بين فتات الموائد وبقايا الأطعمة

إن طمأنينة النفس نعمة لا يحظى بها إلا المؤمنون ، لأنهم يعلمون أن ما أصابهم لم يكن ليخطئهم ، وأن ما أخطأهم ما كان له أبداً أن يصيبهم ، ولأنهم يؤمنون أن الأمور تجرى بمقادير ، ويعتقدون أن من تمام الإيمان الرضى بالقضاء والقدر ﴿ **قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾(١)

وحرمان الناس الآن من هذه النعمة ـــ نعمة الطمأنينة ـــ نتيجة لحرمانهم من معنى الإيمان ، لم تستطع القصور الفارهة ولا الفرش الوثيرة ، ولا المراكب الفخمة ، ولا المناصب الكبيرة ، ولا المال الواسع ، ولا الجاه العريض

لم تستطع الزوجة الجميلة الفاتنة ، ولا الأولاد والحفدة ، ولا الخدم والحشم ، ولا العبيد والإماء ، لم تستطع التجارة الرابحة ولا الصيت الذائع ، ولا المشاريع الناجحة ، لم يستطع شيء من ذلك أن يورث النفس طمأنينتها ، أو يجلب لها سعادتها إننا نشاهد الآن أن أرباب القصور والفرش ، والمناصب والجاه ، والمال والسلطان ، وأن أرباب الزوجات الفاتنات والأولاد والخدم والعبيد ، وأن رجال الأعمال والمشاريع هم أكثر الناس قلقاً وأشدهم حيرة ، وإننا لنسمع كل يوم عن انتحار بعضهم ليتخلصوا مما هم فيه من القلق النفسى ، والحيرة القلبية .

إنهم يشعرون أن سعادتهم التى يعيشونها سعادة زائفة فهى لا تتجاوز

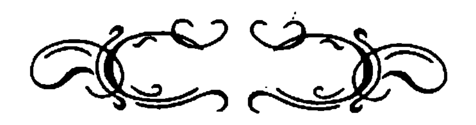
---

(١) التوبة : ٥١

ألسنتهم إن كانت فى كلمة ، أو حلوقهم إن تمثلت فى أكلة ، أو أجسادهم إن برزت فى شكل ثوب أو مسكن أو مركب أو زوجة ، وهذا كله لا يغنى عن سعادة الروح وطمأنينة النفس شيئاً لأن هذه السعادة وتلك الطمأنينة لو توفرت للإنسان تلازمه ولا تفارقه ، وما عداها فسعادة مؤقتة تذهب بذهاب مقتضيها

إن الإسلام أهدى إلى الناس السعادة الروحية والطمأنينة النفسية عن طريق الإيمان وما دام الناس محرومين من الإيمان فلن يهنأوا بسعادة قط إن الإيمان يثلج الصدر ، ويشيع السعادة فى النفس ،ويجعل الإنسان مطمئناً لكل ما ينزل به ولو كان فى ظاهره شراً ، لأنه موقن أنه ما نزل إلا بقضاء الله وقدره ، وأنه وإن كان ضراً فقد رفع الله به ضراً أعظم منه وأفدح

هذا الإيمان يجعلك راضياً عن نفسك ، وتلك هى السعادة الحقيقية ، مطمئناً لمستقبلك ، وتلك هى الطمأنينة التى تبحث عنها ، فلنعد إلى الإيمان لنجد هناك ضالتنا ، ونعثر على سعادتنا ونعيش هانئين آمنين

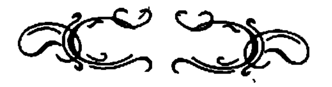


الخلافـــة

تدل كلمة الخلافة على أن قوماً يخلف بعضهم بعضاً فى أمر من الأمور ، والمراد بها هنا خلافة رسول الله ﷺ فى حماية الدين ، وسياسة الدنيا ، يقول الشيخ محمد الخضرى فى كتاب إتمام الوفاء : « وقد اشتمل هذا الدين على قوانين بها صلاح المجتمع الإنسانى فى الدنيا والآخرة ، فبلغ عليه الصلاة والسلام الرسالة كما حمل ، ثم لحق بربه راضياً مرضياً ، فكان لا بد للناس من إمام يخلفه فى حمل الكافة على اتباع هذا الدين ليقف كل إنسان عند حده فيتساوى القوى والضعيف ، والشريف والوضيع أمام الحق فهو خليفة رسول الله ﷺ فى حراسة الدين وسياسة الدنيا »

ويقول ابن تيمية فى السياسة الشرعية « فالمقصود بالولايات إصلاح دين الخلق ـــ الذى متى فاتهم خسروا خسراناً مبيناً ، ولم ينفعهم ما نعموا به فى الدنيا ـــ وإصلاح ما لايقوم الدين إلا به من أمر الدنيا »[1]

ويقول ابن خلدون « والخلافة هى حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها ، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهى ـــ أى الخلافة ـــ فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا به »[2]



(١) السياسة الشرعية ص ١١

(٢) المقدمة ص ١٧٩

الإمامة

الإمام هو من يؤم الناس ويقتدى به فى أمور الدين والدنيا ، والمراد به هنا إمام المسلمين وحاكمهم .

يقول الأستاذ العقاد : « من أدل الكلمات على معناها كلمة الإمام ، وقد تدل الشروط المطلوبة ممن يتولى الإمامة بإجمال لا يحتاج إلى تفصيل طويل ، فالإمام هو الذى يؤم الناس فى إقامة الأحكام ، والشروط المطلوبة منه تجتمع فى القدرة على إقامتها ، فكل قادر على أن يؤم الناس ، ويحفظ الأحكام فهو صالح للإمامة فى الإسلام »[1]

ويقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب : « يقول الماوردى : الإمامة موضوعة لخلافة النبوة . موضوعة لحراسة الدين والدنيا . وهى نظام واجب بالإجماع ، يقيمه — أى هذا النظام — بعضهم على العقل ، وذلك لأنه لولاه لكان الناس فوضى مهملين ، وهمجاً ضائعين

ويقيمه بعضهم على الشرع دون العقل ، وذلك لأن أول اختصاص للخليفة حفظ الشرع ، فتعيين الإمام واجب حتم على الجماعة الإسلامية . والقرآن يوصى بطاعة ولى الأمر ، وإذن فمصدر سلطة الإمام هو الله — تبارك وتعالى — »[2]

ومن هذا العرض نعلم أن الخليفة هو الإمام ، وكلتا الكلمتين تؤديان مدلولاً واحداً هو حاكم المسلمين الذى يقيم فيهم حكم الله تعالى ويقوم على تنفيذ شريعته ، وحماية دينه ، وتدبير شئون دنياهم

تنصيب الإمام

ونصب الإمام الذى يرعى شئون المسلمين ويدبر أمورهم واجب شرعاً ، وعقلاً ، أما عقلاً فلأن الناس لا تستقيم بغير إمام يسوسهم ، ويحفظ عليهم

(١) الديمقراطية فى الإسلام ص ٦٧

(٢) الخلافة والإمامة ص ٢٤٣

وحدتهم ، ويجمع شتاتهم ، ولو ترك الناس بغير إمام لكانت الفوضى ، وكانت الاعتداءات ، وكان السلب والنهب ، وهذا هو المشاهد الملموس ، ولنا فى حياة العرب قبل الإسلام أكبر شاهد .

وأما شرعاً فلأن الرسول ﷺ أمر بتنصيب الإمام فى الجماعة الصغيرة ليشير بذلك إلى لزومه من باب أولى للجماعة الكبيرة ، يقول ﷺ : « إذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمروا أحدهم »(1)

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : « لا يحل لثلاثة أن يكونوا بفلاة من الأرض إلا أمروا عليهم أحدهم »(2)

ويعلق ابن تيمية رحمه الله على ذلك بقوله : « فأوجب ﷺ تأمير الواحد فى الاجتماع القليل العارض فى السفر تنبيهاً على سائر أنواع الاجتماع »

ثم يقول « فالواجب اتخاذ الإمارة ديناً وقربة يتقرب بها إلى الله ، فإن التقرب إليه فيها بطاعته وطاعة رسوله من أفضل القربات »(3)

ومن أقوى الأدلة على وجوب نصب الإمام اشتغال المسلمين من الأنصار والمهاجرين بعد وفاة رسول الله ﷺ وقبل دفنه باختيار الإمام ، وذلك لعلمهم بأن أمر المسلمين لا يستقيم إلا به ، ولو لم يكن ذلك واجباً لكان تجهيز الرسول ودفنه أولى من الاشتغال بأمر الإمامة

وقد أجمعت الأمة على وجوب نصب الإمام إلا ما كان من الخوارج وبعض المعتزلة الذين خالفوا فى ذلك كما ذكر الشهرستانى فى الملل والنحل

ما يشترط فى الإمام

ويشترط فى الإمام شروط متفق عليها ، وشروط انفرد بها بعض العلماء

فأما المتفق عليها

١ ــ العلم ٢ ــ العدالة

---

(1) رواه أبو داود

(2) مسند الإمام أحمد

(3) السياسة الشرعية ص ٧٧

٣ ــ الكفــاية .   ٤ ــ سـلامة الحواس .

يقول الشيخ الخضرى « لا بد لمن يتولى هذا المنصب العظيم أن يكون جامعاً لشروط أربعة العلم لأنه منفذ لأحكام الله ، ومتى كان جاهلاً بها لا يمكنه تنفيذها

العدالة لأن الإمامة منصب دينى ينظر فى سائر الأحكام التى تشترط فيها العدالة فكانت أولى باشتراطها

الكفاية بأن يكون جريئاً على إقامة الحدود واقتحام الحروب بصيراً بها ، كفيلاً بحمل الناس عليها عالماً بأحوال الدهاء قوياً على معاندة السياسة ليصلح له بذلك ما أسند إليه من حماية الدين وجهاد العدو ، وإقامة الأحكام ، وتدبير المصالح .

أن يكون سليم الحواس والأعضاء مما يؤثر فقدانه فى الرأى والعمل ، ويلحق بذلك العجز عن التصرف لصغر أو أسر أو غيرهما »[1]

ويقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب « يرى ابن خلدون ، ويشاركه فى هذا الرأى العلماء من المسلمين أنه لا بد أن تتحقق فيمن يرشح للخلافة على المسلمين أربع صفات هى

١ ــ العلــم
٢ ــ العــدالة
٣ ــ الكفــاية
٤ ــ سلامة الحواس والأعضاء مما يؤثر فى الرأى والعمل[2]

ويرى إمام الحرمين الجوينى استبدال شرط الاجتهاد بشرط العلم ، ويزيد على هذه الشروط شروطاً تركها الأئمة لوضوحها وهى

١ ــ الإســلام
٢ ــ الحــرية
٣ ــ الرجــولة

(١) إتمام الوفاء .
(٢) الخلافة والإمامة ص ٣١٩

« من شرائط الإمام أن يكون من أهل الاجتهاد ، بحيث لا يحتاج إلى استفتاء غيره فى الحوادث ، وهذا متفق عليه ومن شرائط الإمام أيضاً أن يكون متصدياً إلى مصالح الأمور ، وضبطها ، وذا نجدة فى تجهيز الجيوش وسد الثغور ، وذا رأى حصيف فى النظر للمسلمين ، لا تزعه هوادة نفس وخور طبيعة من ضرب الرقاب والتنكيل بمستوجبى الحدود ، ويجمع ما ذكرناه الكفاية وهى مشروطة إجماعاً »[1]

وكأن إمام الحرمين هنا اكتفى بشرط الكفاية عن شرط العدالة . يقول الجوينى « ولا خفاء باشتراط حرية الإمام وإسلامه ، وأجمعوا أن المرأة لا يجوز أن تكون إماماً ، وإن اختلفوا فى جواز كونها قاضية فيما يجوز شهادتها فيه »[2]

هذه هى الشروط التى اتفق عليها الأئمة والمسلمون ، وأما ما اختلفوا فيه فهو شرط واحد ، وهو كون الخليفة قرشياً

يقول الأستاذ الخطيب : « وهناك شرط خامس اختلف فيه وهو النسب القرشى »[3]

ويقول إمام الحرمين : « ومن شرائطها عند أصحابنا أن يكون الإمام من قريش ، إذ قال رسول الله ﷺ : « الأئمة من قريش » وقال : « قدموا قريشاً ولا تقدموها » وهذا مما يخالف فيه بعض الناس ، وللاحتمال فيه عندى مجال ، والله أعلم بالصواب »[4]

كيفية اختيار الإمام

يختار الإمام بإحدى طرق ثلاث كلها كانت سبيلاً لاختيار الخليفة فى عهد السلف والخلفاء الراشدين :

الأولى مبايعة أغلبية أهل الحل والعقد فى بلد الإمام .

(١) الخلافة والإمامة ص ٣١٩

(٢) نفس المرجع ص ٤٢٧

(٣ ، ٤) الإرشاد ص ٤٢٦ .

وأهل الحل والعقد هم « كبار الصحابة رضى الله عنهم الذين امتازوا بكثرة الصحبة ، فاستنارت بصائرهم ، وعرفوا من يصلح للأمة ، وهذا فى العصر الأول ، وينزل منزلتهم فيما بعده من العصور من له سابقة خير فى الإسلام »(١)

وهذه الطريقة هى التى اختار المسلمون بها الخليفة الأول

الثانية : تعيين الخليفة قبل وفاته لمن يخلفه ، كما فعل أبو بكر رضى الله عنه فى استخلاف عمر رضى الله عنه وذلك لأن طاعة الإمام واجبة حتى بعد وفاته

يقول الخضرى : « وليست الطاعة للإمام فى حياته فقط ، بل وبعد وفاته ، فإذا عهد لأحد المؤمنين بالخلافة ، انعقدت له ووجبت مبايعته ، فصار واجب الطاعة ، وقد فعل ذلك أبو بكر لعمر رضى الله عنهما فأجازه المسلمون »(٢)

الثالثة حصر الشورى فى عدد مخصوص من ذوى الحل والعقد على أن ينتخب أغلبيتهم الخليفة ، كما فعل عمر لعثمان رضى الله عنهما

هذه هى الطرق الثلاث التى يتم بها انتخاب الخليفة ، وهى محصورة فى الشورى العامة ، أو الشورى الخاصة ، أو ولاية العهد

يقول الخضرى : « وبقيت كيفية رابعة أقر العلماء بعد العصر الأول على انعقاد الإمامة بها ، وهى كيفية التغلب وتكون حينما لا يكون للمسلمين إمام ، واختلفوا فيما بينهم فلم يرضوا واحداً منهم ، فيجوز لمن يعرف من نفسه القدرة على سياسة الأمة بدرايته وعصبيته أن يطلب هذا الأمر فيدخل الناس فى طاعته إما طوعاً وإما كرها ، ومتى هدأت الأحوال ، وأجيب نداؤه صارت خلافته معمولاً بها ، وصار واجب الطاعة »(٣) وهذه الكيفية لا تقبل إلا فى حالة الضرورة

ويرى إمام الحرمين أن الخلافة تنعقد ببيعة الواحد فيقول « اعلموا أنه لا يشترط فى عقد الإمامة الإجماع بل تنعقد الإمامة وإن لم تجمع الأمة على

(١ ، ٢) إتمام الوفاء ص ١١

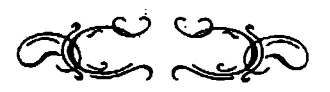
(٣) نفس المرجع ص ١٢

عقدها والدليل عليه أن الإمامة لما عقدت لأبى بكر ابتدر لإمضاء أحكام المسلمين ، ولم يتأن لانتشار الأخبار إلى من نأى من الصحابة فى الأقطار ، ولم ينكر عليه منكر ، ولم يحمله على التريث حامل .

فإذا لم يشترط الإجماع فى عقد الإمامة ، لم يثبت عدد معدود ، ولا حد محدود ، فالوجه الحكم بأن الإمامة تنعقد بعقد الواحد من أهل الحل والعقد »[1]

ويرى إمام الحرمين أن عقد الإمامة لا بد أن يكون بمشهد من الناس ، حتى لا يدعيها مدع من غير وجه حق زاعماً أنه بويع سراً يقول الجوينى « ثم قال بعض أصحابنا لا بد من جريان العقد بمشهد من الشهود ، فإنه لو لم يشترط ذلك لم نأمن أن يدعى مدع عقداً سراً متقدماً على الحق المظهر المعلن ، وليست الإمامة أحط رتبة من النكاح ، وقد شرط فيه الإعلان ، ولا يبلغ القطع ، إذ ليس يشهد له عقل ولا يدل عليه قاطع سمعى ، وسبيله سبيل سائر المجتهدات »[2]

وأرى أن تضعيف الإمام الجوينى لشرط الإعلان ليس صحيحاً ، لأن الدعوى التى ذكرها الإمام فى بداية كلامه قائمة لم تزل



---

(١) الإرشاد ص ٤٢٤

(٢) نفس المرجع ص ٤٢٦

البيعة

البيعة إعطاء العهد على الطاعة ، وذلك لأن المسلم إذا بايع أميره يكون قد عاهده على السمع والطاعة ، وتكون اليد هى الترجمان الذى يترجم هذا المعنى ، ويخرجه إلى حيز التنفيذ

يقول ابن خلدون « البيعة هى العهد على الطاعة ، لأن المبايع يعاهد أميره على أن يسلم له أمر النظر فى أمر نفسه وأمور المسلمين ، لا ينازعه فى ذلك ، ويطيعه فيما يكلفه به من الأمر على المنشط والمكره »[1] ويقول « وكانوا إذا بايعوا الأمير ، وعقدوا عهده جعلوا أيديهم فى يده تأكيداً للعهد ، فأشبه ذلك كلاً من البائع والمشتر فسمى بيعة[2]

إن البيعة عقد بين الإمام والرعية يلزم كل طرف منهما بالوفاء به وعدم النكوص عنه ، وهو عقد يشبه عقد البيع فى أنه يثبت لكلا الطرفين حقوقاً ، ولكنه لا يمكن أن يكون عقد بيع ، حيث ينتهى عقد البيع بين الطرفين باعتزال كل من الطرفين عن الآخر ويصبح لكل من الطرفين الحق فى أن يتصرف فيما تحت يده كما يشاء وليس عقد البيعة كذلك ، لأنه يربط كلا الطرفين برباط محكم تقوم على أساسه حقوق وواجبات بينهما لا تنتهى إلا بموت أحدهما

وليس عقد البيعة عقد وكالة ، لأن الموكل من حقه خلع وكيله فى أى لحظة ، ولو لم يسىء التصرف ، ليتصرف هو كما يشاء ، وليس عقد البيعة كذلك

نعم ، إن الإمام وكيل عن الأمة ولكن ليس من حق الأمة أن تنتزع وكالتها منه ، يقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب « إن عقد البيعة يضع بين يدى الإمام سلطة مطلقة ، وسلطاناً متمكناً ، إذ يجمع بين يديه كل ما للدولة من مال وجند ، وهو بقوة المال والجند يحكم ويتسلط ، ولا وازع له إلا ما فى

(١) ، (٢) مقدمة ابن خلدون ص ٢٣٢ المطبعة الشرقية

ضميره من دين ، وما فى قلبه من إيمان ، قل ذلك أو كثر »[1]

ونخرج من هذا بأن عقد البيعة ليس عقد بيع وإن شابهه وليس عقد وكالة ، وإن وجدت فيه أكثر خصائصه ، ولكنه عقد خاص ، الأمة فيه هى الأصيل ، والإمام هو الوكيل ، وليس من حق الأصيل فى هذا العقد أن يعزل الوكيل فى أى وقت يشاء ، ولكن عزله يكون فى حالة خاصة نص عليها الشارع « إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان »

والبيعة واجبة على كل مسلم ، إذ لا يحل لامرىء مسلم يبيت وليس فى عنقه بيعة لإمام ، ومن مات وليس فى عنقه بيعة لإمام مات ميتة جاهلية

روى مسلم فى صحيحه عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « من خلع يداً من طاعة ، لقى الله يوم القيامة ولا حجة له ، ومن مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية »[2]

ومن بايع إماماً لزمته طاعته مااستطاع ، والدفاع عنه ، وعدم تركه لعدو أو لمن يريد الخروج عليه ، وهو مطالب شرعاً بالقتال دون إمامه ، وقتل من يخرج عليه ، لأن فى ترك ذلك فساد الناس وضياع الحقوق ، وإضعاف الأمة ، مما يؤدى إلى استهانة أعدائها بهم ، وتجرئهم عليهم ، ولذلك أمر رسول الله ﷺ أمراً صريحاً بقتل من يشق عصا الطاعة ، ويفرق الجماعة ، وينازع الإمام الإمارة .

عن عرفجة رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد ، يريد أن يشق عصاكم ، أو يفرق جماعتكم فاقتلوه[3]

وعن أبى سعيد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما »[4]

---

(١) الخلافة والإمامة ص ٢٧٧

(٢) صحيح مسلم

(٣ ، ٤) صحيح مسلم

وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من بايع إماماً فأعطاه صفقة يده ، وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع ، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر »(١)

وذلك لأن السلطان ظل الله فى الأرض يفىء إليه المظلومون ويلجأ إليه المستضعفون ، فإن امتهن السلطان ، وجرؤ الناس عليه ، يلوكونه بألسنتهم إن شاءوا ، ويجرحونه فى مجالسهم إذا أحبوا ، وخرجوا عليه بسيوفهم متى أرادوا ، لم يعد للسلطان المهابة التى تجعله ظلاً لله فى الأرض ، وعندئذ فلا يجد المظلوم من يأوى إليه ، ولا يعرف المستضعف من ينصره ، فيصبح الناس فوضى ، يروعهم كل صائل ، ويفزعهم كل جائر ، من غير أن يجدوا من يرد الصائلين ، ويدفع الجائرين .

ولعل هذا هو السر فى أن أبا بكر رضى الله عنه ردع أبا بلال عندما تهكم على ابن عامر ، حين صعد المنبر وعليه ثياب رقاق ، وأسكته ، ولم يقبل منه كلاماً على الأمير ، ولو كان مظهر الأمير غير لائق .

روى الترمذى عن زياد بن كسيب العدوى قال : كنت مع أبى بكرة تحت منبر ابن عامر ، وهو يخطب ، وعليه ثياب رقاق ، فقال أبو بلال : انظروا إلى أميرنا يلبس ثياب الفساق ، فقال أبو بكرة : اسكت ، سمعت رسول الله ﷺ يقول « من أهان سلطان الله فى الأرض ، أهانه الله »(٢)

وروى البيهقى عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال « إن السلطان ظل الله فى الأرض ، يأوى إليه كل مظلوم من عباده فإذا عدل كان له الأجر ، وعلى الرعية الشكر ، وإذا جار كان عليه الأصر وعلى الرعية الصبر »(٣)

البيعة لإمامين :

لا يجوز العقد لإمامين فى آن واحد إلا إذا تباعدت المسافة بينهما ، فإذا

(١) صحيح مسلم .
(٢) سنن الترمذى .
(٣) شعب الإيمان للبيهقى .

عقد لإمامين فهى للأول منهما ، ويجب على الثانى التنازل للأول ، وعليه طاعته وإظهار الولاء له ، يقول الشيخ الخضرى. « أجمع المسلمون على أنه لا يصلح أن يكون لهم فى عصر واحد خليفتان ، لما يجره ذلك من التنافس ، والتباغض اللذين هما سبب الخسران والوبال »(١)

وقال الجوينى « ذهب أصحابنا إلى منع عقد الإمامة لشخصين فى طرفى العالم ، ثم قال : لو اتفق عقد عاقدى الإمامة لشخصين لنزل ذلك منزلة تزويج ولبين امرأة من زوجين ، من غير أن يشعر أحد بعقد الآخر ، ثم التفصيل فيه من فن الفقه

والذى عندى فيه أن عقد الإمامة لشخصين فى صقع واحد متضايق الخطط والمخالف غير جائز وقد حصل الإجماع عليه

أما إذا بعد المدى ، وتخلل بين الإمامين شسوع النوى فللاحتمال فى ذلك مجال ، وهو خارج عن القواطع »(٢)

وعلى هذا لا يجوز أن ينصب إمامان فى وقت واحد ومكان واحد ، وبيعة الثانى فى هذه الحال فاسدة ، وطاعة الأول واجبة فإن أصر الثانى على البقاء فى منصب الإمامة قوتل حتى يتنازل ، ولو أدى ذلك إلى قتله ، فقد روى مسلم عن أبى سعيد قال قال رسول الله ﷺ إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما »(٣)

وعن عرفجة قال « سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنه سيكون هنات وهنات ، فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهى جميع ، فاضربوه بالسيف كائناً من كان »(٤)

طاعـــة الإمام

فإذا تمت بيعة الإمام على نحو صحيح لزم المسلمين طاعته فيما يأمر به ،

---

(١) إتمام الوفاء .
(٢) الإرشـــاد ص ٤٢٥
(٣ ، ٤) صحيح مسلم .

ولا يجوز أن يعصى إلا إذا أمر بمعصية ، فعندئذ لا تجب طاعته قال تعالى : ﴿ يأأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ﴾[1]

وروى عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « اسمعوا وأطيعوا ، وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة »[2]

وعن ابن عمر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « السمع والطاعة على العبد المسلم فيما أحب وكره ، ما لم يؤمر بمعصية . فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة »[3]

وعن على كرم الله وجهه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا طاعة فى معصية ، إنما الطاعة فى المعروف »[4]

الخروج على الإمام

ولا يجوز الخروج على الإمام ما دام يقيم الصلاة ولو ظهرت منه بوادر المخالفات من معصية الله تعالى وواجب المسلم حينئذ أن ينكر ما يرى من المعصية ، ولا يخرج على إمامه حتى لا يشق عصا الطاعة ، ويفرق الجماعة ، وواجبه كذلك أن يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وأن يقدم النصح ما وسعه ذلك .

روى مسلم عن عوف بن مالك الأشجعى عن رسول الله ﷺ قال « خيار أئمتكم الذين تحبونهم ، ويحبونكم ، وتصلون عليهم ، ويصلون عليكم ، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ، ويبغضونكم وتلعنونهم ، ويلعنونكم » قال : قلنا يا رسول الله ، أفلا ننابذهم عند ذلك ؟ قال : « لا ما أقاموا فيكم الصلاة ، لا ما أقاموا فيكم الصلاة ، ألا من ولى عليه وال فرآه يأتى شيئاً من معصية الله ، فليكره ما يأتى من معصية الله ، ولا ينزع يداً من طاعة »[5]

---

(١) سورة النساء الآية ٥٩ .

(٢) صحيح البخارى .

(٣ ، ٤) متفق عليهما (البخارى ومسلم) .

(٥) صحيح مسلم .

وروى عن أم سلمة ، قالت قال رسول الله ﷺ « يكون عليكم أمراء تعرفون وتنكرون ، فمن أنكر فقد برىء ومن كره فقد سلم ، ولكن من رضى وتابع » قالوا أفلا نقاتلهم ؟ قال « لا ما صلوا لا ما صلوا »(١)

وروى عن أبى ذر قال قال رسول الله ﷺ « كيف أنتم وأئمة من بعدى يستأثرون بهذا الفىء » ؟ قلت أما والذى بعثك بالحق ، أضع سيفى على عاتقى ، ثم أضرب به حتى ألقاك ، قال أولا أدلك على خير من ذلك ؟ تصبر حتى تلقانى »(٢)

ومن مجموع هذه الأحاديث الصحيحة نفهم أنه لا يجوز الخروج على الإمام الذى انعقدت له البيعة صحيحة ، وكان مستوفياً للشروط ما دام يقيم الصلاة ، فإن ترك الصلاة وجاهر بالفسق ، ينصح ويحذر ، ولا يجوز الخروج عليه .

ورأى جماعة من العلماء الخروج عليه ، لأن عدم الخروج مشروط فى الأحاديث السابقة بعدم ترك الصلاة ، فإن تركها استوجب الخروج

وجمهور العلماء على عدم الخروج على الإمام إلا أن يجاهر بكفر صريح ، فعندئذ يجب منابذته والخروج عليه لما ورد فى الأحاديث الصحيحة

عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : « بايعنا رسول الله على السمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره وعلى أثره علينا ، وعلى ألا ننازع الأمر أهله ، وعلى أن نقول الحق أينما كنا ، لا نخاف فى الله لومة لائم ، وفى رواية : وعلى ألا ننازع الأمر أهله ، إلا أن تروا كفر بواحاً عندكم من الله فيه برهان »(٣)

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر ، فإنه ليس أحد يفارق الجماعة فيموت إلا مات ميتة جاهلية »(٤) .

---

(١) صحيح مسلم .
(٢) سنن أبى داود .
(٣ ، ٤) البخارى ومسلم

والشيخ الخضرى يرى أنه لا يجوز الخروج على الإمام مهما فعل إلا فى حالة الكفر الصريح فيقول « أما إذا خرج هو فى أعماله عن حد الشرع بأن ظلم أو استأثر بالحقوق ، أو فسق بشرب الخمر أو ترك الصلاة مثلاً ، فالواجب على المسلمين القيام بأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ، لا تأخذهم فى ذلك لومة لائم ، عملاً بحديث عبادة « وعلى أن نقول الحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم بشرط ألا يؤثر ذلك فى طاعته شيئاً ، فلا يجوز الخروج عليه ، وإشهار السلاح فى وجهه أبداً مهما استأثر أو فعل ، إلا إذا ظهر منه كفر صريح ، لا تأويل فيه ، ففي حديث عبادة « إلا أن تروا كفراً بواحاً » وهنا لا إمامة ولا طاعة ، بل يجب على كل مسلم القيام ضده حتى يبوء بالخزى والنكال ، وقد كان أكثر الصحابة الذين فى عهد يزيد على هذا المبدأ فلما شهد يزيد بما شهد به لم يجز أحد الخروج عليه إلا الحسين بن على رضى الله عنه »(١)

عـــزل الإمام

نستطيع أن نقول ونحن مطمئنون لما نقول أن الإمام إذا تم اختياره بالطريق المشروع ، ووفى بوعده مع الله عز وجل فلم يخالف حكمه ، ولم يهمل شيئاً من شريعته وصدق مع الأمة ، فلم يحف ولم يجر ، وأعطى كل ذى حق حقه ، كان لزاماً على الأمة كلها طاعته ، من بايع منهم ، ومن لم يبايع من حضر اختياره ومن لم يحضر ، من رضى به ومن لم يرض

إن مؤرخى السيرة وكتاب التاريخ مجمعون على أن الذين بايعوا أبا بكر رضى الله عنه هم الذين كانوا فى المدينة المنورة عند البيعة ، وأن من كان خارج المدينة عندئذ لم يكن منهم بيعة معلومة ، حيث كان يتعذر بيعة الجميع لتعذر حضورهم إلى المدينة لبيعته ، ولم يشتهر أنهم أرسلوا رسلاً ليبايعوا عنهم

كما أن كثيراً من المؤرخين متفقون على أن سعد بن عبادة وعلى بن أبى طالب والزبير بن العوام وخالد بن سعيد والمقداد بن عمرو وسلمان الفارسى وأبو ذر الغفارى وعمار بن ياسر والبراء ابن عازب وأبى بن كعب وفاطمة

(١) إتمام الوفاء

بنت رسول الله ﷺ ورضى الله عنها هؤلاء جميعاً لم يبايعوا أبا بكر رضى الله عنه ولم يرضوا ببيعته هذا ما حصل فى بيعة أبى بكر رضى الله عنه ومع ذلك لم يرو لنا واحد فقط من المؤرخين مسلماً كان أو غير مسلم موالياً كان أو غير موال أن أحداً ممن تخلفوا عن البيعة أو أحداً ممن لم يرضوا عن البيعة خرج على أبى بكر أو ناهضه بالسيف ، أو خالف له أمراً كلفه به ، هذا هو واقع المسلمين بعد تمام بيعة أبى بكر رضى الله عنه .

يقول الأستاذ هيكل « على رغم هذا الخلاف بين الرواة فى أمر البيعة ، واشتراك بنى هاشم وسائر المهاجرين فيها ، أو تخلف جماعة منهم عنها ، فالاتفاق تام على أن أبا بكر ولى الأمر بعد الرسول ﷺ غير منازع منذ اليوم الأول ، ولم يذكر أحد من القائلين بالتخلف عن بيعته أن أحداً من بنى هاشم أو من غيرهم حاول أن يثير ثائرة مسلحة أو هم بمناهضة الخليفة الأول »[1]

ثم يقول : « أياً كان السبب الذى دعا المسلمين لبيعة أبى بكر بالخلافة يوم وفاة النبى ، فالثابت أنه لم يناهضه أحد ولم ينضم إلى من تخلف عن بيعته أحد »[2]

والمشهور أن المسلمين جميعاً التزموا ببيعة أبى بكر ، ولم يخرج واحد منهم عنها ، حتى لما كانت فاطمة رضى الله عنها تمر بمجالس الأنصار تطلب منهم النصرة كانوا يردون بأنهم التزموا بالبيعة السابقة لأبى بكر

يقول الدكتور هيكل « خرج علىّ محنقا غاضباً ، فذهب إلى فاطمة فخرج بها من دارها ، فحملها على دابة ليلاً ، فأخذ يطوف بها مجالس الأنصار تسألهم النصرة ، فكانوا يقولون « يا بنت رسول الله ، قد مضت بيعتنا لهذا الرجل ، ولو أن زوجك وابن عمك سبق إلينا قبل أبى بكر ما عدلنا به »[3]

وعلى بن أبى طالب رضى الله عنه نفسه لما زحف مانعوا الزكاة على المدينة دعاه أبو بكر رضى الله عنه لحراسة المدينة وصد الزاحفين ، فلبى ولم يمتنع وهو الذى لم يبايع أبا بكر ، وبات ليلته حارساً على باب من أبواب المدينة

(١ ، ٢) الصديق أبو بكر ص ٧٩
(٣) نفس المرجع ص ٧٥

هكذا وجد المسلمون أنفسهم ملزمين بالوفاء ببيعة مضت منهم لأبي بكر رضى الله عنه وإن وجدوا من هو أحق بالخلافة وهو صهر رسول الله ﷺ وابن عمه

إذن فمتى ينفض المسلمون أيديهم من بيعة الخليفة دون مسئولية أمام الله تعالى ؟ ومتى يعزلون إمامهم ما دامت البيعة ملزمة لهم إلى هذا الحد ؟؟

إن المسلمين يستطيعون أن يغسلوا أيديهم من بيعة تمت ومضت لإمام منهم دون مسئولية أمام الله تعالى إذا خرج الإمام على مبادىء الدين ، وجاهر بعداوته للإسلام ، ويستطيعون أن يعزلوا إمامهم ، ويتخلصوا منه إذا أعلن كفراً بواحاً لا يحتمل الشك ولا التأويل

تلك هى الحالة التى أجمع المسلمون على وجوب عزل الإمام فيها ، وليس هناك حالة ثانية لها ، أخذاً من النصوص الصريحة الصحيحة التى جاءت فى الموضوع ، والتى عبر عنها حديث عبادة ابن الصامت الذى رواه البخارى ، والذى جاء فيه « وعلى ألا ننازع الأمر أهله ، إلا أن تروا كفراً بواحاً ، عندكم من الله فيه برهان »

فما لم نر كفراً بواحاً لدينا براهينه من الله عز وجل لا يجوز لنا الخروج على الإمام ، بل علينا أن نصبر ونحتسب ، فقد جاء فى حديث عوف بن مالك الذى رواه مسلم فى صحيحه : إلا من ولى عليه وال فرآه يأتى شيئاً من معصية الله فليكره ما يأتى من معصية الله ولا ينزع يداً من طاعة » وفى حديث ابن عباس الذى رواه البخارى « من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر »

ولكن بعض العلماء ومنهم إمام الحرمين الجوينى يرون أن الفسق والتغيير والفجور والخروج على سمت الإمامة مجوز لخلع الإمام ، يقول الجوينى « من انعقدت له الإمامة بعقد واحد فقد لزمت ، ولا يجوز خلعه من غير حدث وتغير أمر ، وهذا مجمع عليه

فأما إذا فسق وفجر ، وخرج عن سمت الإمامة بفسقه ، فانخلاعه من غير خلع ممكن ، وإن لم يحكم بانخلاعه وجواز خلعه ، وامتناع ذلك ، وتقويم أوده ممكن ماوجدنا إلى التقويم سبيلا ،وكل ذلك من المجتهدات عندنا فاعلموه .

وخلع الإمام نفسه من غير سبب محتمل أيضاً ، وما روى من خلع الحسن نفسه ، فذلك ممكن حمله على استشعاره عجزاً من نفسه ، ويمكن حمله على غير ذلك »[1]

من هذا العرض السريع والصريح نرى أن خلع الإمام وعزله أمر صعب جداً ، وأن الخروج عليه ومحاولة شق عصا المسلمين ، وتفريق أمرهم جريمة لايبيحها إلا الكفر البواح ، أو العجز عن تقويمه من فسق جاهر به ، وعلى المسلمين أن يصبرواحتى يهيء الله لهم مخرجا. ذلك لأن الصبر على الإمام الفاسق الذى يجمع كلمة المسلمين ويحمى دولتهم ، ويدفع عنهم عدوهم ، خير من وقوع المسلمين فريسة لعدو كافر ، لا يرقب فيهم إلاً ولا ذمة يستحل حرماتهم ويستبيح ديارهم ، ويذل عزيزهم

ولذلك لما سئل الإمام أحمد عن إمامين أحدهما ضعيف تقى ، والآخر قوى فاجر ، مع أيهما نقاتل ؟

قال أما الضعيف التقى فتقواه لنفسه وضعفه على المسلمين ، وأما القوى الفاجر ففجوره على نفسه ، وقوته للمسلمين

من أجل هذا رأى جمهور علماء المسلمين ، وتؤيدهم النصوص الصريحة فى الأحاديث الصحيحة أن المسلمين فى هذه الحالة يلزمون الصبر على الإمام ، ولو كان فاسقا ولا يعزلونه لأن عزله يؤدى إلى تفريق كلمتهم ، وتشتيت شملهم ، وهذا هو ما حدث يوم خرج بعض السفهاء من المسلمين على الإمام المظلوم عثمان بن عفان رضى الله عنه حيث خرجوا عليه لهوى فى نفوسهم ولم يكن هناك ما يبيح عزله قط ، لا سيما وقد برر لهم رضى الله عنه ما حاك فى صدورهم ، ورد عليهم كل شبهة فى نفوسهم ، وأثبت لهم براءته من كل ما نسب إليه ، ولولا الهوى المتسلط ، والنزوات المتحكمة ، لما حدث للإمام المظلوم ما حدث ولما وقعت تلك الفتنة التى فرقت كلمة المسلمين ، وأوقفتهم صفين متنازعين يقتل بعضهم بعضا

فحذار أن تتكرر المحنة إذا اجتمع الشمل ، وحذار أن نقع فى الورطة وقد

---

(١) الإرشاد للجوينى ص ٤٢٥

التأم الصدع ، فإن أخوف ما نخافه اليوم على المسلمين أن يخرج من بينهم من يجرح إمامهم ، ويلوكونه بألسنتهم ويثيرون عليه العامة ، وينفخون فى آذانهم سمومهم فتنقاد لهم النفوس المريضة وتلهث وراءهم القلوب الضعيفة ، فتتجدد محنة الإمام المظلوم ، وينال المسلمون من شرها ما هم عنه أغنياء وعندئذ لا ينفع الندم ، ولا تفيد الحسرات

ومن أجل هذا قال أبو بكرة لأبى بلال عندما تناول الأمير بلسانه قال له : اسكت ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول « من أهان سلطان الله فى الأرض أهانه الله »

ونستنبط من هذا أن الإمام لا يجوز خلعه أو الخروج عليه إلا فى حالتين :

الأولى الكفر البواح الذى تدل عليه الأدلة الصحيحة التى لا تحتمل التأويل

الثانية المجاهرة بالفسق وعدم قبول النصح والتقويم .

ويشترط فى هذه الحالة أمن الفتنة ــ بحيث لا يترتب على خلعه اضطراب الأمن ، وضياع الدولة ــ كما يشترط وجود إمام تتوفر فيه الشروط السابقة أو أكثرها بحيث يكون فى تنصيبه تقوية الدولة وتدعيمها وحفظ الأمن فيها(١)

ولذا فإن ابن عمر ــ فقيه الأمة ــ وابن عباس ــ حبر الأمة ــ قد بايعا يزيد بن معاوية ، ولم يخرجا عليه روى العصامى ، أن ابن عمر وابن عباس كانا بمكة ، ورجعا إلى المدينة فلقيا الحسين وابن الزبير فأخبراهما بموت معاوية وبيعة يزيد ، فقال ابن عمر لا نفرق جماعة المسلمين وقدم هو وابن عباس المدينة ، وبايعا عند بيعة الناس(٢)

* * *

---

(١) ذكر بعض العلماء حالة ثالثة يجوز خلع الإمام فيها وهى عجزه عن القيام بواجبه .

(٢) سمط النجوم العوالى ج ٢ ص ٥٦ .

الشـــورى

الآن وقد عرفنا منزلة الخليفة فى الإسلام ، وعرفنا مكانته بين المسلمين ، وكيف يختار من بينهم ، كما عرفنا الأحكام المتعلقة بهذا المنصب الخطير ، فقد آن لنا أن نعرف الطريقة التى يحكم بها الخليفة المسلمين

إن طرق الحكم المعمول بها فى العالم الآن نوعان مهما اختلفت الأسماء وتعددت الأساليب ، فهى لا تخرج عن كونها ديمقراطية رأسمالية ، أو دكتاتورية اشتراكية ، وللإسلام طريقته الخاصة فى الحكم ، وهى ليست بالديمقراطية ، ولا بالاشتراكية ، بل هى طريقة فريدة انفرد بها نظام الحكم الإسلامى

إن طريقة الحكم الإسلامى ترفض النظام الديمقراطى لأنه قائم على أساس أن يستمد الحاكم سلطته من الشعب فالأمة مصدر السلطات ، الشعب هو الذى يأتى بالحاكم ، والشعب هو الذى يعزل الحاكم ، والحاكم فى النظام الديمقراطى يحكم باسم الشعب

والنظام الديمقراطى قائم على أساس حرية رأس المال ، فصاحب رأس المال يستثمره بالطريقة التى يرى فيها مصلحته الخاصة ، فقد يستثمره بالرشوة ، وقد يستثمره بالربا وقد يستثمره بالاستغلال والاحتكار .

والإسلام يأبى هذا كله ، ولا يعترف به ، فالحاكم فى الإسلام يستمد سلطته من الله ، بمعنى أن الله عز وجل هو الذى أمر بتنصيب الخليفة ، والخليفة قائم على تنفيذ أحكام الله وحراسة شريعته ، ولهذا فإن الناس لا يستطيعون عزله ما دام يحكم بكتاب الله وسنة رسوله ، والحاكم فى الإسلام يحكم باسم الله لأنه يحكم بأحكام الله .

والنظام الإسلامى يحارب الرشوة ، ويلعن الراشى والمرتشى ويحرم الربا ، ويلعن آكله وموكله وشاهده وكاتبه ، كما يحارب الاستغلال ويلعن المحتكرين

وكما رفض الإسلام النظام الديمقراطى الرأسمالى ، فهو يرفض النظام

الدكتاتورى الاشتراكى ، لأن النظام الدكتاتورى قائم على أساس حكم الفرد ، وحكم الفرد استبدادى يتعارض مع نظام الشورى فى الإسلام ، وحكم الفرد حكم طغيان واستهتار بحقوق الناس ، لأنه ليس فيه من يحاسب المستبد الطاغى .

والنظام الاشتراكى قائم على أساس مصادرة الملكية الفردية ، فالفرد فى هذا النظام جزء من ماكينة ضخمة ، يعمل آلياً دون إرادة منه ولا اختيار ، وليس له الحق فى أن يتصرف كأى إنسان فى ملكه ، بل ليس له الحق فى أن يمتلك أصلاً

والنظام الإسلامى يكفل لكل فرد حق التملك بالشروط التى حددها الإسلام ، والنظام الإسلامى يعترف بإنسانية الإنسان ، ويحترم آدميته ، ويضعه فى مكانه المناسب ، فلقد كرمه الله وجعله بشراً سويا ، ولم يخلقه آلة بدون إرادة ولا اختيار

والنظام الإسلامى لا يقبل الاستبداد ، ولا يرضى بالطغيان لأنه ينادى بالشورى ، ويحترم حقوق الناس ، ويعطى لكل فرد حق محاسبة الحاكم .

نستطيع أن نقول بعد ذلك أن الحكم الإسلامى ليس حكماً ديمقراطياً رأسمالياً ، وإن بنى على الشورى واحترام رأس المال ، وليس حكماً دكتاتورياً اشتراكياً ، وإن كان الناس فيه ليس لهم حق عزل الحاكم ، وإن أخذ الزكاة من الأغنياء ووزعها على الفقراء

وعلى هذا يكون نظام الحكم فى الإسلام نظاماً شورياً يقوم على أساس تبادل الآراء ، ومناقشة المقترحات ، وتنفيذ ما يستقر عليه الرأى منها

وهو نظام يحترم رأس المال ، ويشترط فى تحصيله أن يكون من طريق مشروع ، كما يشترط فى إنفاقه أن يكون فى طرق مباحة ، وفرض للمحتاجين فى المال حقاً معلوما

وهو نظام يحترم الإنسان ويكرمه ، ويمنحه حقوقاً ويكلفه بواجبات ، لأن الإنسان فى النظام الإسلامى هو أساس الحضارة والحضارة فيه إنما هى

لإسعاد الإنسان ، بل إن وحى السماء لم يهبط إلى الأرض إلا من أجل الإنسان .

فهل يجوز نظام رفع الإنسان إلى هذا المستوى أن يهبط به ويسخره ، فيجعله تارة عبداً لرأس المال ، وتارة آلة صماء تعمل بدون إرادة ولا اختيار ، وثالثة يضعه مع الحيوانات ليأكل ويشرب

إن النظام الإسلامى يجعل للإنسان مهمة أعظم وأرفع من هذا كله ، وهى حمل رسالة السماء إلى أهل الأرض جميعاً ، والتعرف على الله عز وجل بآياته فى الكون . وإخلاص العبادة له وحده ، ومن أجل القيام بهذه المهمة الخطيرة سخر الله للإنسان ما فى السموات وما فى الأرض ، وجعل كل ما فى الكون فى خدمته ، ليكون مساعداً له على الوصول إلى هذه الحقيقة ﴿ **وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه** ﴾(١)

وتسهيلاً لقيام الإنسان بمهمته أرسل الله الرسل ، وأنزل الكتب ليوضحوا لهم ما خفى عليهم ، ولتكون الكتب دليلاً فى أيديهم لا يضلون ما داموا متمسكين بها

فالذين عرفوا مهمتهم فى الحياة ، واهتدوا إلى الحقيقة العظيمة التى خلقوا لها ، هؤلاء هم الذين يستحقون تكريم الله لهم ، حيث جعلهم قوامين على البشرية ، يهدونها الطريق ، ويأخذون بيدها إلى الخير ، ووضعهم موضع الأساتذة ، يعلمون الناس ويرشدونهم لهذا رفضوا أن يكونوا خداماً لرأس المال . وما وجد المال إلا لخدمتهم ، كما رفضوا أن يكونوا آلات صماء تدور بلا إرادة ولا اختيار ، وقد وهبهم الله العقل يصممون به الآلات ، ويخترقون به أطباق السموات ، وهم كذلك يأبون هذه الحياة البهيمية ، وقد أسجد الله لأبيهم الملائكة ، فهم لم يخلقوا ليأكلوا ويشربوا ، فتلك هى حياة الحيوان والكفار ﴿ **والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم** ﴾(٢)

---

(١) سورة الجاثية الآية ١٣

(٢) سورة محمد (القتال) الآية ١٢

هؤلاء الذين قدروا أنفسهم قدرها ، قد وضع الله لهم نظام حكم يتناسب مع ما بلغوا من الرشد ، وما ارتقوا إليه من النضج فجعل الشورى أساسه ، ومصلحة الإنسان هدفه ، وتحقيق الخير للإنسانية كلها غايته .

أما هؤلاء الذين جهلوا قدر أنفسهم فأهلكوها وربطوا أنفسهم بالأرض فحالوا بينها وبين الصعود إلى السماء ، ورضوا بأن يكونوا عباداً للعباد بدلاً من رب العباد هؤلاء الذين انتكسوا فألغوا عقولهم وضلوا غايتهم فاتبعوا أهواءهم ، واختاروا لأنفسهم نظماً يحكمون بها فأردتهم ، وظلوا طول حياتهم بين تغييرها وتعديلها ولم يبلغوا بعد غايتهم

هؤلاء الحائرون هم الذين قال الله تعالى فيهم ﴿ **أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ، وأضله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله ؟ أفلا تذكرون** ﴾(١)

نظام الحكم فى الإسلام إذن قائم على أساس الشورى ، والله عز وجل يقول لنبيه ﷺ : ﴿ **فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم ، وشاورهم فى الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين** ﴾(٢)

يقول الشوكانى فى تفسير الآية : « وشاورهم فى الأمر أى الذى يرد عليك ، أى أمر كان مما يشاور فى مثله ، أو فى أمر الحرب خاصة بما يفيده السياق ، لما فى ذلك من تطييب خواطرهم ، واستجلاب مودتهم ، ولتعريف الأمة بمشروعية ذلك حتى لا يأنف منه أحد بعدك ، والمراد هنا المشاورة فى غير الأمور التى يرد بها الشرع »(٣)

ثم ينقل الشوكانى عن ابن خوز مقداد قوله : « واجب على الولاة مشاورة العلماء فيما لا يعلمون وفيما أشكل عليهم من أمور الدنيا ، ومشاورة وجوه الجيش فيما يتعلق بالحرب ، ووجوه الناس فيما يتعلق بالمصالح ووجوه الكتاب

---

(١) سورة الجاثية الآية ٢٣

(٢) سورة آل عمران الآية ١٥٩

(٣) فتح القدير جـ ١ ص ٣٩٣

والعمال والوزراء فيما يتعلق بمصالح البلاد وعمارتها »[1]

كما ينقل عن القرطبى أنه روى عن ابن عطية ، قوله : « أنه لا خلاف فى وجوب عزل من لا يستشير أهل العلم والدين »[2]

ويروى الطبرى فى تفسيره عن قتادة قوله : « أمر الله عز وجل نبيه ﷺ أن يشاور أصحابه فى الأمور ، وهو يأتيه وحى السماء ، لأنه أطيب لأنفس القوم ، وأن القوم إذا شاور بعضهم بعضاً ، وأرادوا بذلك وجه الله ، عزم لهم على أرشده »

ثم يقول « إن الله عز وجل أمر نبيه ﷺ بمشاورة أصحابه فيما حزبه من أمر عدوه ومكايد حربه ، تألفاً منه بذلك من لم تكن بصيرته بالإسلام البصيرة التى يؤمن عليه معها فتنة الشيطان ، وتعريفاً منه أمته مأتى الأمور التى تحزبهم من بعده ومطلبتها ليقتدوا به فى ذلك عند النوازل التى تنزل بهم فيتشاوروا فيما بينهم كما كانوا يرونه فى حياته ﷺ يفعله »[3]

ومن هذا نفهم أن الشورى هى الأساس الذى بنى عليه نظام الحكم فى الإسلام ، وأن الشورى إنما تكون فى الأمور التى لم يرد فيها نص شرعى ، فإذا وجد النص فلا مشورة ولا رأى ، ولا اختيار ولا مداولة ، وإنما الامتثال والتنفيذ

ونفهم كذلك أن كيفية الشورى غير منصوص عليها ، فالمطلوب الشورى ، وتتم بأية كيفية كانت ، فمهما تحققت الشورى ، وعمل بها فهو نظام الإسلام ، يقره الله ، ويرضى عنه

يقول المرحوم سيد قطب « وبهذا النص الجازم ﴿ **وشاورهم فى الأمر** ﴾ يقرر الإسلام هذا المبدأ فى نظام الحكم ، حتى ومحمد رسول الله ﷺ هو الذى يتولاه ، وهو نص قاطع لا يدع للأمة الإسلامية شكاً فى أن الشورى مبدأ أساسى لا يقوم نظام الإسلام على أساس سواه ، أما شكل

---

(1) نفس المرجع ص ٣٩٤

(2) نفس المرجع والصفحة .

(3) تفسير الطبرى جـ ٧ ص ٢٤٤ وص ٢٤٥

الشورى ، والوسيلة التى يتحقق بها ، فهذه أمور قابلة للتحرير والتطوير وفق أوضاع الأمة وملابسات حياتها ، وكل شكل وكل وسيلة تتم بها حقيقة الشورى — لا مظهرها — فهى من الإسلام »[1]

ويقول الأستاذ محمد حسين هيكل : « وقد كانت الشورى أساس نظام لهذه الحياة ، فلم يكن ينفرد بأمر إلا ما أوحى إليه من عند الله »[2]

هل الشورى ملزمة أم معلمة ؟

قال بعض العلماء إنها ملزمة ، وقال بعضهم إنها معلمة فمن قال إنها معلمة أجاز للإمام مخالفتها إلى رأى آخر ، يتبين له صوابه ، وإن كان خلاف رأى الأكثرية .

ومن قال إنها ملزمة أوجب على الإمام اتباعها ، وحرم عليه مخالفتها ، وهذا هو الرأى المختار عندنا وهو رأى كثير من علماء المسلمين ، وأدلتنا عليه ما يأتى

١ — الأمر الجازم بالآية الكريمة ﴿ وشاورهم فى الأمر ﴾ والأمر للوجوب ما لم يصرفه صارف .

٢ — نزول الرسول على رأى أصحابه فى كثير من الأحداث كغزوة أحد ، وغزوة بدر ، وكذلك نزوله على رأى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وترك رأيه حينما عرض عليهما الصلح مع المشركين على ثلث ثمار المدينة مقابل رجوعهم عن المدينة فى غزوة الأحزاب وقد رفضا ذلك .

٣ — لو كانت الشورى لمجرد الاستنارة والإعلام ، لم تكن حاسمة فى الموضوع ، حيث يجوز للإمام مخالفة رأى مستشاريه من ذوى الرأى دون أن يكون عليه أدنى لوم ، وفى هذه الحالة يكون التشاور عبثاً ، ولا حاجة إلى جمع ذوى الرأى لأخذ آرائهم ثم رفضها فى النهاية ، وهذا كلام لا يقره العقل ، ولهذا فإن رسول الله ﷺ لما ترك رأى الأغلبية ، وأخذ برأى الأقلية فى شأن

---

(١) فى ظلال القرآن م ١ ص ٥٠١ دار الشروق .

(٢) حياة محمد ص ٢٩١ ط ٩

اسرى بدر عاتبه الله عتاباً شديداً بقوله تعالى : **﴿ ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا ، والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم ﴾**[1] .

هذه الأدلة تؤيد رأى القائلين بالإلزام ، وتعطيه من الوجاهة والقوة ما يجعله يقدم على الرآى الاخر ، لهذا يحكى القرطبى عن ابن عطية قوله « لا خلاف فى وجوب عزل من لا يستشير أهل العلم والدين »

ويروى الطبرى بالسند عن الضحاك بن مزاحم قوله : « ما أمر الله عز وجل نبيه ﷺ بالمشورة إلا لما علم فيها من الفضل »[2] .

ويقول الشيخ شلتوت « أما الشورى فهى أساس الحكم الصالح ، وهى السبيل إلى تبين الحق ومعرفة الآراء الناضجة ، أمر بها القرآن ، وجعلها عنصراً من العناصر التى تقوم عليها الدولة الإسلامية »[3]

ومن اللفتات الرائعة فى القرآن الكريم التى تؤيد الأخذ بالشورى وتشير بقوة إلى وجوبها ، وتقريرها أساساً للحكم الإسلامى ، أن الحكومة الإسلامية إذا لم تعتمد عليها تكون عرضة للأخطاء التى لا تحمد عواقبها ، والاضطرابات التى قد تكون سبباً فى انهيار الدولة وزوالها

من هذه اللفتات الأمر بالشورى بعدما حدث للمسلمين فى غزوة أحد ما حدث ، فإذا نحن لاحظنا أن الرسول ﷺ لم يخرج إلى المشركين فى هذه الغزوة إلا بعد أن استشار أصحابه ، وكان رأى الأغلبية الخروج إليهم ومواجهتهم ، فنزل ﷺ على رأيهم عملاً بمبدأ الشورى ، ثم كان ما كان من القتلى والجرحى والنتائج المحزنة التى أصيب بها المسلمون

عندما يستعرض الإنسان تلك الأحداث قد يتبادر إلى الذهن أن ما حدث للمسلمين إنما هو من نتائج الشورى ، وقد يفتح الشيطان بابه على القلوب ، فيقول قائل ، لو لم ينزل الرسول على رأى الأغلبية وعمل برأيه هو لما حدث

---

(١) سورة الأنفال الآية ٦٧

(٢) تفسير الطبرى جـ ٧ ص ٣٤٤ تحقيق شاكر

(٣) الإسلام عقيدة وشريعة ص ٣٦٨

للمسلمين ما حدث .

فى هذا الموقف الحرج ، وفى هذه اللحظات الحاسمة . التى يغلب على الظن فيها أن المسلمين لو خيروا بين الأخذ بمبدأ الشورى ، أو ترك الأمر للحاكم يتصرف فيه بما يراه فى مصلحة الأمة ، لاختاروا ترك الأمر للحاكم .

فى هذا الوقت بالذات يأبى الله إلا أن يلتزم المسلمون بالشورى ويأمر بها سبحانه أمراً صريحاً ، ويطلب من النبى ﷺ أن يعفو عن هؤلاء الذين تولوا يوم الزحف ، وكان منهم من أيد الخروج ودعا إليه ، وكأن المعنى يجب ألا تكون النتيجة التى حدثت سبباً فى غضبك على هؤلاء الذين أشاروا بالخروج بل « اعف عنهم » وزد على العفو الاستغفار لهم « واستغفر لهم » ولا تترك الشورى بل الزمها ، واجعلها أساساً لنظام الحكم « وشاورهم فى الأمر » حتى إذا استقر الرأى على أمرٍ ما ، وعزمت على فعله ، فامض لما استقر عليه الرأى متوكلاً على الله ، لا على المشورة ، فما هى إلا سبب فقط ، وربط الأسباب بالمسببات ، إنما هو فعل الله عز وجل ﴿ **فإذا عزمت فتوكل على الله ۚ إن الله يحب المتوكلين** ﴾

وفى هذا يقول المرحوم سيد قطب « ولقد كان من حق القيادة النبوية أن تنبذ مبدأ الشورى كله بعد المعركة ، أمام ما أحدثه من انقسام فى الصفوف فى أحرج الظروف ، وأمام النتائج المريرة التى انتهت إليها المعركة ، ولكن الإسلام كان ينشىء أمة ويربيها ويعدها لقيادة البشرية ، وكان الله يعلم أن خير وسيلة لتربية الأمم وإعدادها للقيادة الرشيدة أن تربى بالشورى ، وأن تدرب على حمل التبعة وأن تخطىء — مهما كان الخطأ ، جسيماً وذا نتائج مريرة — لتعرف كيف تصحح خطأها ، وكيف تتحمل تبعات رأيها وتصرفها فهى لا تتعلم الصواب إلا إذا زاولت الخطأ ، والخسائر لا تهم إذا كانت الحصيلة هى إنشاء الأمة المدربة المدركة المقدرة للتبعة ، واختصار الأخطاء والعثرات والخسائر فى حياة الأمة ليس فيها شىء من الكسب لها إذا كانت نتيجة أن تظل هذه الأمة قاصرة كالطفل تحت الوصاية ، إنها فى هذه الحالة تتقى خسائر مادية وتحقق مكاسب مادية ، ولكنها تخسر نفسها وتخسر وجودها ، وتخسر تربيتها ، وتخسر تدريبها على الحياة الواقعية ،

كالطفل الذى يمنع من مزاولة المشى مثلاً لتوفير العثرات والخبطات ، أو توفير الحذاء[1]

ثم يقول « ومن هنا جاء الأمر الإلهى ، فى هذا الوقت بالذات ﴿ **فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم فى الأمر** ﴾ ليقرر المبدأ فى مواجهة أخطر الأخطار التى صاحبت استعماله ، وليثبت هذا القرار فى حياة الأمة المسلمة ، أياً كانت الأخطار التى تقع فى أثناء التطبيق وليسقط الحجة الواهية التى تثار لإبطال هذا المبدأ فى حياة الأمة المسلمة ، كلما نشأ عن استعماله بعض العواقب التى تبدو سيئة ولو كان هو انقسام الصف ، كما وقع فى « أحد » والعدو على الأبواب ، لأن وجود الأمة الراشدة مرهون بهذا المبدأ ، وجود الأمة الراشدة أكبر من كل خسارة أخرى فى الطريق »[2]

ومن هذا يتضح أن الشورى ملزمة ، وإنها مبدأ أساسى فى نظام الحكم الإسلامى ، فلا يجوز لحاكم أن يهملها بحجة عدم وعى الأمة أو عدم توفر الظروف المناسبة ، أو أن الأمة تمر بظروف طارئة إلى غير ذلك من الأعذار التى يتعلل بها الطغاة المستبدون لإلغاء مبدأ الشورى لينفردوا بالحكم ، ويطلقوا أيديهم تعبث بمقدرات الناس وحرياتهم من غير رقيب ولا حسيب

من أجل هذا قرر الإسلام المبدأ ، فى هذه الظروف الحرجة ، حتى لا يجوز إلغاؤه بعد ذلك لأى سبب من الأسباب

بقى علينا أن نعرف ماذا يقول الذين اختاروا الرأى الآخر ؟ وأن نسمع رأى من قالوا أن الشورى معلمة غير ملزمة ، وأن نستعرض أدلتهم ونمحصها لنبنى عليها ما نقرره من الاختيار أو الرد

وقد استدل القائلون بهذا الرأى بما يأتى

١ ـ أن الرسول ﷺ أخذ برأى أبى بكر وحده فى شأن أسرى بدر ، وترك رأى عمر وعبد الله بن رواحة

---

(١) فى ظلال القرآن م / ١ ص ٥٠١

(٢) فى ظلال القرآن م / ١ ص ٥٠٢

كذلك إصراره على تنفيذ صلح الحديبية رغم معارضة الصحابة وأخذه برأى الحباب بن المنذر يوم بدر . وبرأى سلمان الفارسى فى حفر الخندق .

٢ ـــ إن أبا بكر رضى الله عنه أصر على إنفاذ جيش أسامة رغم معارضة الصحابة ، كما رفض كل الآراء القائلة بعدم الدخول فى حرب مع المرتدين ، وأصر على الدخول فى الحرب معهم ، ونفذه فعلاً

وإن عمر رضى الله عنه أصر على عدم تقسيم أرض العراق رغم مخالفة الصحابة .

٣ـــ مفهوم الآية الكريمة : ﴿ فإذا عزمت فتوكل على الله ﴾ فإنها تدل على أن للرسول والخلفاء الراشدين من بعده أن يختاروا رأياً ولو كان مخالفاً لرأى المستشارين ، وأن يتوكلوا على الله فى تنفيذه

لهذا يقول الطبرى فى تفسير الآية : « فإذا صح عزمك بتثبيتنا إياك ، وتسديدنا لك فيما نابك وحزبك فى أمر دينك ودنياك ، فامض لما أمرناك به على ما أمرناك به ، وافق ذلك آراء أصحابك ، وما أشاروا به عليك أو خالفها »

تلك هى أدلة القوم التى تزرعوا بها ، وسنرى أنها عند المناقشة والتمحيص ، لا تثبت أمام قوة البراهين التى ساقها أصحاب الرأى الأول ، ولنناقش هذه الأدلة واحداً واحدا

الدليـــل الأول

لا يدل على جواز عدم الأخذ برأى الأغلبية بعد الشورى لما يأتى :

١ ـــ لأن موقف الرسول من أسرى بدر ، كان قبل نزول آية الشورى ، حيث نزلت الآية بعد غزوة أحد ، فلم يكن هناك إذن ما يلزمه برأى الأغلبية .

٢ ـــ معاتبة القرآن الكريم له ﷺ لأخذه برأى الأقلية فى الحادثة السابقة ، يدل على أن الأولى والأفضل اتباع رأى الأغلبية .

وأما إصراره على إبرام صلح الحديبية مع معارضة كبار الصحابة له ، فلأنه كان مأموراً بذلك من قبل الله عز وجل يدل على ذلك قوله لعمر بعد ما كلمه فى شروط الصلح : « أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيعنى »(1)

فقوله ﷺ « لن أخالف أمره » يدل على أنه كان مأموراً بذلك

وأما أخذه برأى الحباب بن المنذر وحده ، وتركه للمكان الذى كان قد نزل فيه ، وكذلك أخذه برأى سلمان الفارسى فى حفر الخندق ، فإن الحادثتين ليس فيهما رأى الأغلبية ، ورأى أقلية وإنما هو رأى عرضه صاحبه ، ولم يعارضه أحد ، واستحسنه الرسول ﷺ لما رأى فيه من الوجاهة فأخذ به ونفذه فهذان الحادثان لا يصلحان دليلاً فى الموضوع .

الدليل الثانى

ن' يدل كذلك على ترك رأى الأغلبية من جانب الشيخين رضى الله عنهما لما يأتى :

لأن أبا بكر وعمر قد فهما فى هذه المواقف فهماً لم يوفق الصحابة رضى الله عنهم لفهمه على النحو الذى فهماه عليه ، وبيان ذلك .

١ ـــ جيش أســـامة :

أن رسول الله ﷺ هو الذى عقد لواء جيش أسامة ، وهو الذى ولاه القيادة ، وهو الذى أمر بإنفاذ الجيش وهو فى مرضه الأخير حين بلغه أن الناس تكلموا فى أسامة ، فخرج عليهم بعد أن اشتد به الوجع وقال : « أنفذوا جيش أسامة »(2)

وما كان لأبى بكر أن يعصى لرسول الله أمرا ، وليس هو الذى يتقاعس عن تنفيذ خطة رسمها رسول الله ﷺ بنفسه .

---

(1) سيرة ابن هشام م / ٢ ص ٣١٧

(2) فتح البارى جـ ٨ ص ١٥٢

إن أبا بكر رضى الله عنه رأى بثاقب فكره أنه لو سرح جيش أسامة لانفتح على المسلمين باب خطير لا يمكنهم إغلاقه ، ولا يسعهم الاستمرار فيه ، وهو جرأة المسلمين على مخالفة أمر رسول الله ، ولو انفتح هذا الباب عقب وفاة الرسول وبهذه السرعة ، وعلى يد أبى بكر وهو أشد الناس استمساكاً بأمره ﷺ لما علم إلا الله مدى الخطورة التى يتعرض لها المسلمون ، وهم قد ذاقوا مرارة المخالفة فى غزوة أحد التى لم تغب عن أذهانهم لحظة ، ولم تستطع الانتصارات المتوالية أن تنسيهم مرارتها

وبخاصة أن الرسول ﷺ لم يستمع إلى اعتراضات المعترضين على إنفاذ الجيش وهو فى مرضه الأخير كما ذكرت ، وانتقل إلى الرفيق الأعلى والجيش مستعد للخروج

فهل يكون لأبى بكر بعد ذلك الخيار فى أن يسير الجيش أو يسرحه ؟

لم يكن لأبى بكر رضى الله عنه الخيار فى ذلك ، بل كان يعلم تماماً أنه لو لم ينفذ الجيش لانفتح هذا الباب الخطير ، ولهذا أصر أبو بكر على إنفاذ الجيش ، لأنه ينفذ أمر من لا يجوز عصيانه

وأما الصحابة فقد كانوا يرون أن فى إبقاء الجيش نفعاً للمسلمين ، وجمعاً لشتاتهم ، وقوة يواجهون بها الأحداث الهائلة التى تنتظرهم ، وقد كان هذا كله فى نظر أبى بكر لا يعدل التهديد المخيف الذى هددتهم به الآية الكريمة إذا هم خالفوا أمر رسول الله ﷺ ﴿ **فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم** ﴾[1] ففضل احتمال أخف الضررين

ومن هذا نعلم أن أبا بكر رضى الله عنه لم يصر على تنفيذ رأيه فى مواجهة رأى أغلبية المسلمين ، وإنما أصر على تنفيذ أمر رسول الله ﷺ الذى أمر به ، بعد أن اشتد به الوجع كما قدمنا

٢ ــ حروب الردة

وفى حروب الردة وقف أبو بكر هذا الموقف المتشدد ، فلم تلن له قناة ،

(١) سورة النور الآية ٦٣

ولم يخطر بباله التردد ، وأخذ يستشير الصحابة ، فقال عمر — رضى الله عنه — : « يا خليفة رسول الله تألف الناس وارفق بهم ، قال فقال لى أجبار فى الجاهلية ، خوار فى الإسلام ؟ فقد انقطع الوحى ، وتم الدين ، أينقض وأنا حى ؟ ؟ ثم قال : والله لو منعونى عقالاً كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه »[1]

ودارت المناقشة بين الرجلين الكبيرين ، يقول عمر : كيف تقاتل الناس ، وقد قال رسول الله ﷺ « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، فمن قالها عصم منى ماله ودمه إلا بحقها ، وحسابهم على الله » ؟

ويرد أبو بكر رضى الله عنه فى بديهة حاضرة ، وشجاعة نادرة ، والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، وقد قال إلا بحقها

ولم يزل أبو بكر بعمر يحاوره ويناقشه ، حتى اقتنع عمر برأى أبى بكر ، وقال : « فوالله ما هو إلا أن رأيت الله شرح صدر أبى بكر للقتال ، فعرفت أنه الحق »[2]

ويعلق ابن حجر على ذلك بقوله « أى ظهر له من صحة احتجاجه لا أنه قلده فى ذلك »[3]

ويقول صاحب مختصر سيرة الرسول « كان أبو بكر أمير الشاكرين الذين ثبتوا على دينهم ، وأمير الصابرين الذين صبروا على جهاد عدوهم وهم أهل الردة ، وبرأى أبى بكر أجمعوا على قتالهم » ثم يقول « وفى هؤلاء وقعت الشبهة والمراجعة بين أبى بكر وعمر وغيره ، حتى ناظرهم أبو بكر ، فرجعوا إلى قوله ، وتبين لهم صوابه فى قتالهم »[4]

---

(١) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ص ٤٧٢

(٢) فتح البارى جـ ١٢ ص ٢٧٥

(٣) نفس المرجع ص ٢٧٩

(٤) مختصر سيرة الرسول ص ٤٧٢ — ٤٧٣

ومن هذا نعرف أبا بكر لم يستبد برأيه ، بل ناقش عمر حتى أقنعه ، ولو كان يجوز لأخذ الأخذ برأيه دون الالتزام برأى أصحابه لما كان هناك داع لهذه المناقشة ، بل كان يأخذ المشورة ، ثم يصدر أمره بالرأى الذى يراه ، وعلى المسلمين السمع والطاعة ، ولكن مناقشته واحتجاجه يدلان على أنه رضى الله عنه لم يرد أن يقدم على هذا الأمر إلا بعد أن يقنع أصحابه ، فيوافقوه ، فيعمل بما وافقت عليه الأمة .

٣ ــ موقف عمر من سواد العراق

وبإصرار عمر ــ رضى الله عنه ــ على عدم تقسيم سواد العراق يستدل القائلون بأن الشورى معلمة لا ملزمة ويقولون : لو كانت ملزمة لما استطاع عمر أن ينفذ رأيه ، ويضرب برأى الصحابة عرض الحائط ، ولكن المستدلين بهذا لم يستوعبوا المسألة ، وأخذوا بظاهرها ففاتهم الدليل .

إن عمر ــ رضى الله عنه ــ رأى ما لم يره الصحابة ، واختلف معهم فى الرأى ، فالصحابة يرون أن أرض العراق حق لهم لأنهم هم الذين فتحوها ، ومن واجب الإمام أن يقسمها بينهم عملاً بقوله تعالى ﴿ **واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل** ﴾(١)

وباستثناء هذا الخمس تكون أربعة الأخماس للفاتحين ولذا طالبوا بتقسيمها

وأما عمر فقد رأى أن المصلحة فى إبقاء الأرض بأيدى أصحابها الأصليين على أن يدفعوا ما عليها من حق يستفيد به المسلمون ويكون عوناً مستمراً لهم ، ولو قسمت هذه الأرض على الفاتحين لما استطاعوا استغلالها وتثميرها ، كيف وهم مشغولون بالجهاد دائماً

تأكد عمر رضى الله عنه أن فى رأيه مصلحة لعامة المسلمين الحاضرين منهم واللاحقين ، ولكنه رأى كذلك معارضة شديدة ، ولو كان من حقه الانفراد

---

(١) سورة الأنفال الآية ٤١

بالرأى لأصدر أمره ، ولم يعبأ بآراء القوم ، ولكنه لجأ إلى ما لجأ إليه ، سلفه ، لجأ إلى المناقشة والإقناع ، حتى انضم إليه من يستطيع بهم تنفيذ رغبته فأخذ يناقش مخالفيه ، ويبين وجهة نظره ، ولكن قادة الجيش الفاتح وجنوده كانوا مصرين على تقسيم الأرض فقال عمر رضى الله عنه : « فكيف بمن يأتى من المسلمين ، فيجدون الأرض قد اقتسمت وورثت عن الآباء ، وحيزت ، ما هذا برأى »[1]

عندئذ قال له عبد الرحمن بن عوف : « فما الرأى » أليست الأرض والعلوج مما أفاء الله عليهم ؟ »

قال عمر « ما هو إلا كما تقول ، ولست أرى ذلك ، والله لا يفتح بعدى بلد كبير ، بل عسى أن يكون كلا على المسلمين ، فإذا قسمت أرض العراق بعلوجها ، وأرض الشام بعلوجها ، فما يسد به الثغور ، وما يكون للذرية بهذا البلد وبغيره من أرض الشام والعراق » ؟ ! !

ثم أكثروا عليه الكلام ، وقالوا : أتقف ما أفاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا ، ولم يشهدوا ، ولأبناء أبنائهم ، ولم يحضروا ؟

وكان عمر لا يزيد على أن يقول : هذا رأيى ، وأخيراً قالوا له : استشر ، فاستشار المهاجرين الأولين ، فاختلفوا ، فكان من المعارضين له : الزبير بن العوام ، وبلال بن رباح ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وكان ممن معه فى الرأى عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب ، وطلحة بن عبيد الله ، وعبد الله بن عمر »[2]

ومن هذا نتبين أن عمر رضى الله عنه لم يستبد برأيه ، بل أخذ يناقش الصحابة ، ويحاول إقناعهم برأيه ، حتى رأينا أنه عندما استشار كبار المهاجرين خالفه ثلاثة ، ووافقه أربعة كما نلاحظ أن الذين وافقوه كانوا من فقهاء الصحابة ، زيادة على كثرتهم العددية .

---

(١) استدل عمر على رأيه بالآية الكريمة ﴿ والذين جاءوا من بعدهم ﴾ لأنها معطوفة على قوله تعالى : ﴿ للفقراء المهاجرين ﴾

(٢) الشورى فى الإسلام الدكتور بابللى ص ١٠٣

وكأن هذه النتيجة لم ترض أمير المؤمنين ، فأراد أن يتثبت للأمر فاستدعى عشرة من الأنصار ، خمسة من الأوس ، وخمسة من الخزرج ، وكان العشرة من كبار الأنصار وأشرافهم ، فلما انتظم عقدهم بين يديه ، خطبهم قائلاً بعد حمد الله والثناء عليه :

« إنى لم أزعجكم إلا لأن تشتركوا فى أمانتى فيما حملت من أموركم ، فإننى واحد كأحدكم ، وأنتم اليوم تقرون الحق ، خالفنى من خالفنى ، ووافقنى من وافقنى ، ولست أريد أن تتبعوا هذا الذى هواى ، معكم كتاب الله ينطق بالحق ، فو الله لئن كنت نطقت بأمر أريده ما أريد به إلا الحق »

قالوا قل نسمع يا أمير المؤمنين .

قال : قد سمعت كلام هؤلاء القوم الذين زعموا أنى أظلمهم حقوقهم ، وإنى أعوذ بالله أن أركب ظلماً ، ولئن كنت ظلمتهم شيئاً هولهم ، وأعطيت غيرهم شقيت ، ولكنى رأيت أنه لم يبق شيء يفتح بعد أرض كسرى ، وقد غنمنا الله أرضهم وأموالهم وعلوجهم ، فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله ، وأخرجت الخمس فوجهته على وجهه وأنا فى توجيهه ، وقد رأيت أن أحبس الأرض بعلوجها ، وأضع عليهم فيها الخراج ، أرأيتم هذه الثغور ؟ لا بد لها من رجال يلزمونها ، أرأيتم هذه المدن العظام ، كالشام والجزيرة والكوت والعصيرة ومصر ؟ لا بد لها من أن تشحن بالجيوش وإدرار العطاء عليهم . فمن أين يعطى هؤلاء إذا قسمت الأرض والعلوج ؟

فقالوا جميعاً الرأى رأيك ، فنعم ما قلت ، وما رأيت ، إن لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجرى عليهم ما يتقوون به ، رجع أهل الكفر إلى مدنهم .

فقال عمر قد بان لى الأمر

ثم انتهى الأمر بتسليم الجميع ، وبأن كلف عمر من يقوم بوضع الأرض مواضعها ، ويضع على العلوج ، ما يحتملون »[1]

---

(١) الخراج ص ٢٥ — ٢٦

هكذا عرض أمير المؤمنين الأمر على مستشاريه ، وهكذا بين لهم وجهة نظره التى اقتنع بها ، ولم ينفرد برأيه ، ولم يصدر أوامره بالتنفيذ ، بل لما رأى المخالفة بادية ، ولم يفهم القوم وجهة نظره ، أخذ يشرحها لهم ، ويوضح لهم ما خفى من جوانبها ،ولئن اختلف عليه المهاجرون ، فوافقه أربعة منهم ، وخالفه ثلاثة ، فإن الأنصار جميعاً قد وافقوه وأيدوا رأيه

وإننا لنرى فى النفر الذين طلب منهم عمر المشورة سيادة وقيادة وفقهاً ، حتى لايدعى مدع أن عمر قد اختار من القوم من لايستطيع مخالفته ، ليضمن تاييدهم ، على أن هذا المفهوم غير وارد أساساً فى الإسلام ، فإننا رأينا العجوز تعارض عمر فى مسألة المهور دون أن تخافه أو تجامله ، ورأينا عمر يعترف بخطئه على المنبر أمام العجوز والمسلمين ، كذلك سمعنا الأعرابى يعترض أمير المؤمنين وهو يخطب ، حتى إذا ما تبين له الأمر اقتنع وأطاع

تلك هى طبيعة المسلمين التى تربوا عليها ، لا يجاملون على حساب الحق ، ولا يخافون الحاكم مهما كانت شخصيته إلا أن يكون أحدهم مذنباً ، ذلك لأنهم واثقون من عدالة حكامهم ، وعدم جورهم

ولنقف قليلاً عند قولة عمر « قد بان لى الأمر »

إن هذه الكلمة تدل على أن عمر رضى الله عنه كان فى حيرة من أمره بسبب المخالفة البادية ، والمعارضة العنيفة ، وهو وإن كان مقتنعاً تماماً برأيه ، إلا أنه لم يرض أن يلزم به القوم وهم له كارهون

من أجل هذا لجأ إلى الاستشارة ، فاختلف عليه المهاجرون ووافقه الأنصار ، حينئذ اجتمع له رأى غالبية من شاورهم ، فبان له الأمر ، وذهبت الحيرة ، وقد رأينا أنه بموافقة الأنصار انتهى الأمر بتسليم الجميع .

فهل يجوز لقائل بعد ذلك أن يقول إن عمر قد خالف رأى أهل الشورى ، ونفذ رأيه مع معارضتهم له ؟

لا الواقع أن عمر خالف رأى أهل الشورى ، ولكنه لم ينفذ رأيه مع مخالفتهم له ، بل أقنعهم برأيه ، حتى إذا اطمأنوا له ، ووافقوه عليه ، نفذه وهم عنه راضون

وتلك هى الشورى الصحيحة التى ارادها الإسلام ، إذ ليس المراد بالشورى أن يطرح الأمر ، ليبدى الناس فيه آراءهم ، ثم يؤخذ برأى الأغلبية لأول وهلة ، ويستبعد رأى الأقلية دون مناقشته ، بل المراد طرح الأمر ، ومناقشته وتوضيحه ، وفى النهاية يؤخذ الرأى ، فقد تقنع الأقلية الأغلبية برأيها ، وتتنازل الأغلبية عن رأيها لما ترى من صواب رأى الأقلية بعد المناقشة ، وهكذا تنقلب الأقلية أغلبية فيعمل برأيها ، وهذا ما حصل فى حرب الردة ومانعى الزكاة ، وهو ما حدث فى وقف سواد العراق .

الدليــل الثالث

إن مفهوم الآية الكريمة ﴿ فإذا عزمت فتوكل على الله ﴾ ليس قاطعاً فى الموضوع ، فإنها كما تدل على جواز أخذ الخليفة برأيه بعد المشاورة ، وإن خالف رأى المستشارين ، فهى كذلك تدل على أن الخليفة يستشير القوم ، فإذا استقر رأيهم على شيء وعزم الخليفة على تنفيذه ، فعليه أن يمضى فى تنفيذ ما عزم عليه متوكلاً على الله .

وإذا كانت الآية تفيد المعنيين على السواء فإنه يحتاج فى تأييد أحد الرأيين إلى أدلة تقويه ، وتقدمه على الرأى الآخر

وما قدمناه من فعل الخليفتين الراشدين رضى الله عنهما يؤيد القائلين بإلزام الشورى للإمام ، فيتعين حينئذ الأخذ بهذا الرأى دون سواه

وأما تفسير الطبرى للآية بقوله : « فإذا صح عزمك بتثبيتنا إياك وتسديدنا لك فيما نابك وحزبك فى أمر دينك ودنياك ، فامض لما أمرناك به ، على ما أمرناك به ، وافق ذلك آراء أصحابك ، وما أشاروا به عليك أو خالفها » .

فإننا لا نرى فيه جواز مخالفة الرسول لأمر أصحابه إلى أمر يراه من عند نفسه ، بل المخالفة حينئذ تكون إلى أمر هو مأمور به ، يدل على ذلك قوله : « فامض لما أمرناك به ، على ما أمرناك به » .

ومن هذا العرض يتضح لنا أن الشورى ركن أساسى لنظام الحكم

الإسلامى ، وإنها ملزمة للإمام ينزل فيها على رأى الأغلبية فإذا بدا له خلاف رأى الأغلبية ، فعليه أن يوضح وجهة نظره وأن يقنع المستشارين أو أغلبيتهم بما بدا له ، فإذااقتنعوا ووافقوه ، أخذ به ، وإلا تركه ولم يعمل به



أهل الشورى ، ورأى الأغلبية

هذه هى الشورى التى أرادها الله للمسلمين ، وأمر بها لتكون أساساً لنظام الحكم الإسلامى ، ولكن من هم أهل الشورى ؟ وكيف يختارون ؟ ولماذا ينزل الإمام على رأى الأغلبية ؟

هذه أسئلة لا بد أن ترد بعد أن عرفنا الشورى وأحكامها ، ولا بد كذلك من الإجابة عنها ، لتتم الفائدة ويستكمل البحث ، وتحصل لدى القارىء صورة كاملة عن الموضوع .

أهل الشـــورى

قررنا فى السابق أن الشورى ملزمة للإمام ولا يجوز له بعد عرض الرأى ومناقشته ، واستقرار الأمر على شىء معين أن يخالف رأى الأغلبية ، ويعدل عنه إلى غيره .

ذلك لأن الأمة لا تجتمع على ضلالة كما سنبينه بعد ، وأهل الشورى هم صفوة الأمة ، والطبقة المختارة منها ، وليسوا من المصفقين لكل حاكم ، ولا من الدهماء وعامة الناس ولا من الذين يبيعون ضمائرهم بثمن بخس ودراهم معدودات .

وإنما يختارون اختياراً دقيقاً ، وبشروط تؤهلهم لهذا المنصب الخطير .

فقد كان أهل الشورى فى عصر الرسول ﷺ هم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، وكان ﷺ يشاورهم فى كل ما يعن له ، ويعرض عليهم ما يحزبه من الأمور ، ويستمع إلى آرائهم ، ويمحصها ويأخذ بالحسن الجيد منها

وظل الأمر كذلك فى عهد أبى بكر وعمر رضى الله عنهما وبقية عصر الخلفاء الراشدين ، وقد ضيق عمر — رضى الله عنه — دائرة أهل الشورى فحصرها فى آخر حياته فيمن توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض ، ثبت ذلك قبل وفاة

الخليفة الثانى عمر بن الخطاب حيث حصر الشورى فى الستة الذين توفى رسول الله وهو راض عنهم ، وأضاف إليهم ابنه عبد الله ، ليرجح رأى أحد الفريقين ، واشترط ألا يكون له من أمر الخلافة شيء

أما الآن وقد انقرضت هذه الطبقة ، فما الشروط التى نختار على أساسها أهل الشورى ؟ أو أهل الحل والعقد بالتعبير الذى استحدث بعد ذلك

يقول الشيخ الخضرى : « وأهل الحل والعقد هم كبار الصحابة ــ رضوان الله عليهم ــ الذين امتازوا بكثرة الصحبة فاستنارت بصائرهم ، وعرفوا من يصلح للأمة ، وهذا فى العصر الاول ، وينزل منزلتهم فيما بعده من العصور ، من له سابقة خير فى الإسلام »(١)

ويشترط المرحوم الأستاذ عبد القادر عودة فيهم الشروط الآتية

١ ــ **العدالة** ويفسرها بقوله : « والعدالة هى التحلى بالفرائض والفضائل ، والتخلى عن المعاصى والرذائل ، وعما يخل بالمروءة أيضاً »

٢ ــ **العلم** والمراد به « العلم بمعناه الواسع ، فيدخل فيه علم الدين وعلم السياسة وغيرهما من العلوم ، ولا يشترط أن يكون العالم منهم ملماً بكل العلوم ، بل يكفى أن يكون ملماً بفرع من العلوم كالهندسة أو الطب أو غير ذلك ، وليس من الضرورى أن يكون العلماء جميعاً مجتهدين ، فيكفى أن يتوفر الاجتهاد فى مجموعهم لا فى كل فرد منهم وإذا توفر فى جماعتهم العلم جاز أن يكون فيهم غير عالم ، ولا بأس أن يكون ذا ثقافة تؤهله لأن يدرك ما يعرض عليه إدراكاً يمكنه من الحكم عليه ، وإبداء رأيه فيه »

٣ ـ **الرأى والحكمة** « ولا يشترط فيه أن يكون من ذوى العصبية لأن أساس الشورى هو الرأى الصحيح المتفق مع الشرع ، المجرد من الهوى والعصبية »

ويزيد صاحب كتاب الشورى فى الإسلام على هذه الشروط شرطين يرى أنه لا بد منهما ، وهما التجربة ، والاختصاص .

---

(١) إتمام الوفاء فى سيرة الخلفاء ص ١١

والواقع أن هذين الشرطين يتضمنهما الشرط الثانى والثالث اللذان ذكرهما المرحوم الأستاذ عودة ، ذلك لأن العلم بمعناه الواسع يكون غالباً نتيجة التجربة المتكررة التى حصل منها العلم وكذلك الاختصاص والتفوق فى شىء معين ينتج عنها رأى أصيل ، وحكمة بالغة .

ومن هذا نتبين أن الشرطين مندرجان فى العلم والحكمة ، فلا داعى إذن لإفرادهما بالذكر .

وأرى أن يضاف إلى هذه الشروط شرطان آخران مهمان ، لا غنى عنهما فى هذه الشروط المذكورة وهما :

١ ــ الإيمان بأن الإسلام عقيدة وشريعة شاملة لجميع نواحى الحياة المختلفة ــ السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية ــ بمعنى أن تجاهل جانب من هذه الجوانب أو التهاون فيه يخل بصلاحية هذا المتهاون لأهليته لمجلس الشورى ، فالذين يفرقون بين الدين والدولة ويقول : هذا دين وهذه سياسة ، والذين ينكرون بأفعالهم أو بأقوالهم أن للإسلام سياسة يدير بها أمته ، أو نظاماً اجتماعياً واقتصادياً يتعامل المسلمون بموجبه ، أو تنظيماً عسكرياً يطبقه الجيش الإسلامى فى حروبة مع أعدائه ، من أنكر شيئاً من ذلك لا يكون أهلاً لعضوية مجلس الشورى .

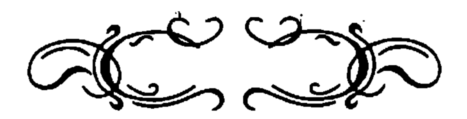
٢ ــ الحرص على تطبيق الشريعة الإسلامية عن إيمان بها وإخلاص لها ، ويعرف ذلك بحاله مع أهله وأولاده ، ومعاملته لغيره فمن كان ملتزماً بالشرع مراعياً له فى تصرفاته استحق بذلك أن يكون من أهل الشورى

وهذان الشرطان أساسيان فى أعضاء مجلس الشورى ولا يمكن أن يستحق إنسان عضوية المجلس بدونهما مهما اجتمعت فيه الشروط السابقة ، لأن الإنسان قد يكون عادلاً وعالماً وذا رأى وحكمة بالمعنى الذى ذكره المرحوم عبد القادر عودة ، ومع ذلك لا يكون مؤمناً بكون الإسلام عقيدة وشريعة بالشمول المذكور ، وقد يكون مؤمناً بذلك مع توفر الشروط السابقة ، ولكنه غير حريص على تطبيق الشريعة ، فلا يستحق حينئذ أن يكون من أهل الشورى .

وإنما اشترطنا هذين الشرطين لنضمن بذلك سلامة المجلس من المنافقين

والمخادعين ، ونظافته من الدجالين والمرائين ، ولنضمن وقوف المجلس إلى جانب الحق والعدل مهما حاف الحاكم أو استبد .

وباجتماع الشروط كلها فى شخص يستحق عضوية المجلس ، ولا يجب أن يكون جميع المتصفين بهذه الصفات أعضاء فى المجلس ، بل يكتفى الإمام ببعضهم ، ويلتزم برأى أغلبيتهم كما فعل عمر بن الخطاب ـــ رضى الله عنه ـــ عندما عزم على اختيار الخليفة الذى يليه



كيف يختار مجلس الشــورى ؟

باستقصاء الاحداث التاريخية ، وتتبع الاحوال التى كان الخلفاء يطبقون فيها مبدأ الشورى ، نرى أن للإسلام نظاما خاصا فى اختيار الاعضاء الذين كانوا يستشيرونهم

إن اختيار الأعضاء لايكون عن طريق الشعب ، فتلك هى الطريقة الديمقراطية التى تقدس الشعب ، وتجعله مصدر السلطات وقد علمنا أن الإسلام يرفض هذه الطريقة ، وذلك للأسباب الآتية

أولا لأن الشعب وعامته على جانب قليل من الثقافة التى تؤهلهم لتحمل المسئولية ، لايمكن أن يسند إليه مثل هذا الأمر الخطير

ثانيا : لأن هذه الطريقة تستدعى أن يرشح الاعضاء أنفسهم حتى يتمكن الناس من اختيارهم ، وذلك يستلزم مايأتى :

أ ــ أن يطلب كل عضو العضوية لنفسه ، وهذا ممنوع فى الإسلام لقوله ــ ﷺ ــ « إنا والله لانولى على هذا العمل أحدا سأله ، أو أحدا حرص عليه » (١)

ب ــ أن يتنافس الاعضاء ويزكى كل مرشح نفسه لدى الشعب ليختاره ، وهذا التنافس يجر حتما إلى الخداع والكذب وشراء الذمم كما هو حاصل الآن فى الانتخابات الديمقراطية وأمثال هؤلاء لا يصلحون لعضوية مجلس شورى المسلمين

ثالثا لأن اختيار الشعب لشخص مايجعل هذا الشخص حريصا على تحقيق رغبات من أختاروه ، ولو كانت هذه الرغبات لاتخدم المصلحة العامة ، وذلك ليحظى برضاهم ، ويضمن اختيارهم له فى المستقبل .

رابعا : إذا كان الشعب هو الذى يختار مجلس الشورى ، فان المجلس كله يصبح تحت رحمة الشعب ، فان رضى عنه أبقاه ، وان غضب عليه أبعده ،

(١) مشكاة المصابيح جـ ٢ ص ٣٢٠

وهذا لايجعل المجلس قادرا على القيام بالمهام الخطيرة التى يضطلع بها ، بل يحدث من الاضطراب والفوضى مايستحيل معه الاستقرار .

لأجل هذا لم يجعل النظام الإسلامى اختيار أعضاء مجلس الشورى إلى الشعب ، بل جعل اختيارهم حقا من حقوق الإمام الذى تتحقق فيه الشروط المذكورة فى فصل الخلافة ، إن شاء استعمله بنفسه، وإن شاء وكله إلى من يثق فيه من الناس

والنظام الإسلامى فى هذا الاجراء لايوصف بالدكتاتورية ، لأنها وإن وافقت الإسلام فى هذا الاجراء إلا أنها موافقة شكلية ، والفرق بين النظامين يتضح فيما يأتى :

١ ــ الحاكم فى الإسلام مقيد بأحكام الشريعة ، فإن حاد عنها ، وخرج عليها عزل ، والدكتاتور لا تحده حدود ، لأنه هو الذى يصنع الحدود ويسخرها لرغباته

٢ ــ الحاكم فى الإسلام يختار أعضاء مجلس الشورى ممن تتوفرت فيهم الصفات السابقة ، ولو كان فيهم من يعارضه ويخالف رغباته والدكتاتور يختار أعضاء حكومته، من الموالين له ، الخاضعين لهواه الذين يساعدونه على تحقيق مطامعه وشهواته

٣ ــ والحاكم فى الإسلام ينزل على رأى الأغلبية ــ وإن خالف رأيه ــ ومجلس الشورى يقف فى وجهه إذا أخطأ ، ويقومه إذا حاد أو اعوج فيتقبل منه ذلك راضياً

والدكتاتور يصب جام غضبه على من ينتقده ، ويملأ السجون بمعارضيه ، ويزلزل الأرض بمن يقول لا

فالحاكم فى الإسلام إذن يختار من الناس من يساعده على إحقاق الحق ، وإزالة الباطل ، ويحملهم هذه المسئولية ، ليكونوا شركاء معه فى العبء الذى تحمله عن الناس

والدكتاتور يختار الإمعات الذين يصفقون له ولو أخطأ ويمدحونه

ولو أساء ، وهو ينفرد دونهم بالحكم ، وعليهم إقناع الشعب وإرضاؤه بالوضع السيء الذى لا يقبله أحد له عقل وضمير .

فاختيار مجلس الشورى من حق الإمام ، هو الذى يختارهم بنفسه أو بواسطة وكلائه ، ليعاونوه فى مهمته ، ويحملهم المسئولية ليشاركوه التبعة أمام الله عز وجل . يقول الدكتور يابللى نقلاً عن الأستاذ محمد حسين هيكل : ولم تكن الانتخابات بالصورة التى تعرفها اليوم أساس تلك الشورى بل كان الخليفة هو الذى يختار من يستشيرهم[1]

والواقع التاريخى لعصر الخلفاء الراشدين صورة صادقة لذلك ، فلم يرو لناالتاريخ حادثةواحدة اشترك فيها الشعب فى اختيار مجلس الشورى فى عصر الخلفاء ، بل كل الدلائل تنطق بأن الخليفة هو الذى كان يختار مستشاريه ، وكان يختارهم اختياراً يساعده على أداء الأمانة التى حملوه إياها باستخلافه .

فأبو بكر رضى الله عنه بدأ حياته كخليفة . باختيار مجلس الشورى ، فها هو ذا يجمع كبار الصحابة ويستشيرهم فى حرب المرتدين ومانعى الزكاة

يقول الأستاذ هيكل : « جمع أبو بكر كبار الصحابة يستشيرهم فى قتال الذين منعوا الزكاة ، وكان رأى عمر بن الخطاب وطائفة من المسلمين معه ألا يقاتلوا قوماً يؤمنون بالله ورسوله ، وأن يستعينوا بهم على عدوهم »[2]

ويقول الشيخ عبد الله بن عبد الوهاب « وجادل أبو بكر أصحابه فى جهادهم ، وكان من أشدهم عليه عمر وأبو عبيدة وسالم مولى أبى حذيفة »[3]

ونحن نراه رضى الله عنه يختتم حياته باختيار مستشاريه ، فها هو ذا فى مرض الموت ، وقد خاف على المسلمين الاختلاف فى الرأى ، وعدم الاتفاق على رجل منهم بعده ، يجمع كلمتهم ، ويوحد صفهم ، ويتم المهمة التى بدأها ، فأراد أن يختار من يخلفه ، عندئذ لم ينفرد بالرأى ولم يفرض على

---

(١) الشورى فى الإسلام ص ١٠٥
(٢) الصديق أبو بكر ط / ٤ ص ١١٢
(٣) مختصر سيرة الرسول ص ٤٧٣

المسلمين رجلاً لا يرضونه ، فأخذ يستشير كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار .

اختار الصديق عبد الرحمن بن عوف ليأخذ رأيه ، واستشار بعده عثمان بن عفان فى الشخص الذى يريد أن يستخلفه ، ولم يكتف الخليفة بذلك بل شاور سعيد بن زيد ، وأسيد بن حضير وغيرهما من المهاجرين والأنصار(١)

من هذا ترى أن الصديق رضى الله عنه لم يكن له مجلس معين ذو أفراد معلومين ، يجمعهم كلما حزبه أمر ، أو ألم بالمسلمين أمر خطير بل كان إذا اقتضى الأمر يختار من يعتقد فيه النصح والخبرة فى الموضوع ويحرص على استشارتهم ، ويستمع إلى آرائهم ، ونحن نلمح كذلك من اختياره لمجلس الشورى أنه لم يكن يختار الوجهاء الأشراف فقط ، بل كان يختار الأكفاء ولو كانوا من الموالى ، واستشارته لسالم موى أبى حذيفة أوضح شاهد على ذلك .

وكذلك كان عمر — رضى الله عنه — يختار مستشاريه من أصحاب الرأى الراجح والعقل الفذ ، ويعرض عليهم رأيه ، ويستمع إلى آرائهم ويفاضل بينهما ، فإن رأى فيها الحق والخير للمسلمين أخذ بها ، وإن رأى أن ما عنده أكثر خيراً ناقشهم ، وبين لهم حتى يقنعهم ، فيلتفوا حول رأيه .

ولقد كان موقفه من تقسيم سواد العراق صورة صادقة لهذا فقد بدأ باستشارة المهاجرين ، فلما اختلفوا عليه ، ولم يتضح له الرأى ، اختار عشرة من الأنصار وعرض عليهم الأمر وشرحه لهم ، فوافقوه ، وعلى أثر ذلك قال « قد بان لى الأمر »

وها هو ذا عند وفاته ، يختار الستة الذين توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض ، وكون منهم مجلس الشورى ، ووكل إليهم أخطر مهمة فى حياة الأمة ، وهى اختيار الخليفة الثالث .

ومما يدل على اختياره لهم ، وأنهم لم يكونوا معينين من قبل ما يأتى :

---

(١) الصديق أبو بكر ط / ٤ ص ٣٧١

روى الشيخ عبد الله بن عبد الوهاب أن عمر استأذن عائشة فى أن يدفن مع صاحبيه فأذنت له ، فقالوا — أى الصحابة — : « أوص يا أمير المؤمنين استخلف ، قال : ما أرى أحداً أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفى رسول الله وهو عنهم راض ، فسمى علياً وعثمان وطلحة والزبير وسعداً وعبد الرحمن بن عوف وقال يشهدكم عبد الله بن عمر ، وليس له من الأمر شيء — كهيئة التعزية له — فإن أصابت الإمارة سعداً فذاك ، وإلا فليستعن به أيكم ما أمر ، فإنى لم أعزله عن عجز ولا خيانة »[1]

وبهذا يتقرر بوضوح أن اختيار مجلس الشورى كان من حق الخليفة ، وأنه لم يكن هناك مجلس ثابت يعود إليه الإمام كلما اقتضى الأمر ، ولكن كان الخليفة يختار لكل أمر من المستشارين الأكفاء الذين يرى أنهم أهل لإبداء الرأى فيما اختيروا له

ولكن هل نفهم من هذا أن الإسلام يرفض أن يكون هناك مجلس للشورى ثابت يرجع إليه الإمام فى الأمور المهمة ؟

وهل يمنع الإسلام اشتراك المسلمين فى اختيار مجلس الشورى ؟ ؟

الحقيقة أن الإسلام لا يرفض وجود مجلس للشورى دائم لأنه لا يوجد نص يمنع من ذلك ، ولأن وجود مجلس للشورى دائم للمسلمين من الأمور التى تركت للإمام يرى فيها مصلحة المسلمين فيعمل على تحقيقها ، ولأجل هذا جاء النص بالشورى ولم يفصل كيفيتها ، ولم يذكر الطريقة التى يختار بها المجلس إلى غير ذلك .

فلو رأى الإمام أن يكون له مجلس دائم يجمعه كلما اقتضى الأمر ويستشيره كلما نزلت به ملمة ، فله أن يفعل ذلك ما دامت تتحقق به مصلحة المسلمين

وأما اختيار المسلمين لمجلس الشورى ، فذلك وإن لم يحدث فى عهد الخلفاء الراشدين إلا أنه يوجد فى السيرة النبوية ما يبيحه ويسمح بالعمل به ، ولكن ليس على الإطلاق — بمعنى أن الشعب جميعه من حقه أن يختار المجلس

(١) مختصر سيرة الرسول ص ٤٨٧

لأن ذلك لا يخلو من العيوب التى ذكرناها ــ بل يجوز للإمام أن يختار من المسلمين من يختارون له مجلس الشورى .

روى ابن هشام عن كعب بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « أخرجوا إلىَّ منكم اثنى عشر نقيبا ، ليكونوا على قومهم بما فيهم ، فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيبا ، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس »[1] .

ويقول الأستاذ هيكل : « فلما فرغوا من البيعة ، قال لهم النبى : أخرجوا إلى منكم اثنى عشر نقيبا ، يكونون على قومهم بما فيهم كفلاء ، فاختار القوم تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس فقال النبى لهؤلاء النقباء : أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومى »[2]

ونحن نلاحظ فى هذين النصين أن الرسول ﷺ قد طلب من الذين بايعوه فى العقبة أن يختاروا منهم نقباء يكونون عليهم كفلاء ، وأن القوم اختاروا نقباءهم بأنفسهم ، كما نلاحظ أن الاختيار كان بحسب النسبة العددية للفريقين ، فقد كان عدد المسلمين من الخزرج أكثر من عدد المسلمين من الأوس وأنهم اختاروا النقباء يمثلون كل قبيلة .

يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب : « فكان نقيب بنى النجار : أسعد ابن زرارة ، ونقيب بنى سلمة ، البراء بن معرور وعبد الله بن عمرو بن حرام ، ونقيب بنى ساعدة : سعد بن عبادة ، والمنذر بن عمر ونقيب بنى زريق : رافع بن مالك بن عجلان ، ونقيب بن الحارث بن الخزرج : عبد الله بن رواحة وسعد بن الربيع ، ونقيب القواقل عبادة بن الصامت ، ونقيب الأوس : أسيد بن حضير وأبو الهيثم بن التيهان ، ونقيب بنى عوف : سعد ابن خيثمة »[3]

ومن هذا نعلم أنه لا مانع فى الإسلام من أن يختار عقلاء الناس وخيارهم

---

(١) السيرة النبوية م / ١ ص ٤٤٣ تحقيق مصطفى السقا وزملائه .

(٢) حياة محمد ط / ٩ ص ٢٠٦

(٣) مختصر سيرة الرسول ص ١٣٠

مجلس الشورى ، وأن يكون المجلس دائماً يرجع إليه الإمام متى شاء للنظر فى الأمور التى تهم المسلمين .

بل فى وجود مجلس دائم يرجع إليه الإمام مصلحة تحقق للمسلمين فوائد كثيرة ، حيث يمكن اجتماعهم فى جلسات دورية تعرض فيها أمور الدولة ويتخذ فيها قرارات مفيدة ، كما أن وجودهم معلومين يمكن الإمام من سرعة جمعهم وعرض الأمر عليهم ، والبت فى الأمور الطارئة بأقصى سرعة ممكنة إلى غير ذلك .



رأى الأغلبيـــة

بينا فيما مضى أنه لا قيمة للشورى ما لم يلتزم الإمام برأى الأغلبية التى يستشيرها ، ورددنا على أدلة القائلين بأن الشورى غير ملزمة للإمام ، وأنه يجوز له أن يخالف رأى الأغلبية إلى رأى الأقلية ، أو يأخذ برأيه الذى يقتنع به ولو خالفت الأغلبية .

وقد لفت نظرى فى هذا الموضوع رأى الأستاذ عفيف طباره حيث يقول : « والشورى التى أوجبها الإسلام لا يفهم منها أنها لمجموع أفراد الأمة أو للأكثرية المطلقة فيها ، لأن القرآن تكررت فيه الآيات التى تنص على أن الرأى والفضل والعلم ليست من صفات أكثر الناس على التعميم ، وهذه أمثلة مما جاء فى القرآن ﴿ **وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله** ﴾[1]

﴿ **أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا** ﴾[2]

وإذا كانت طاعة الكثرة الجاهلة تضل عن سبيل الله ، فليس من الصواب أن تكون لهم الشورى ، وإنما ترجع الشورى إلى أهل الرأى والحكمة بدليل قوله تعالى : ﴿ **وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ، ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم** ﴾[3]

انتهى كلام الأستاذ طباره ، وهو فى موضوعه كلام جيد لا يعترض عليه ، ولكن ذكره فى معرض الشورى التى هى أساس الحكم الإسلامى من جهة ، وإيراده عند الاستدلال على الأخذ برأى الغالبية فى مجلس الشورى الإسلامى من جهة أخرى يضعان عليه كثيراً من علامات الاستفهام

ذلك لأن هذه الآيات تذكر الكثرة من غير المسلمين فلا يجوز الاستدلال

---

(١) الأنعام الآية ١٦٦

(٢) الفـرقان الآية ٤٤

(٣) النســاء الآية ٨٣

بها على الكثرة من المسلمين ، لأن المسلمين هم الذين أيد الله بهم دينه ، ونصر بهم الإسلام ، يقول تعالى : ﴿ **هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين** ﴾[1]

فلا يمكن إذن أن توصف كثرة المؤمنين بأنهم يضلون عن سبيل الله .

ولأننا اشترطنا فى أهل الشورى شروطاً خصصتهم ، وجعلتهم الصفوة المختارة من الأمة ، فلا يعقل إذن أن تكون أغلبيتهم جاهلة ، أو أن يكون رأى أغلبيتهم يضل عن سبيل الله ، وقد ذكر الأستاذ طبارة نفسه ذلك حيث يقول « وإنما ترجع الشورى إلى أهل الرأى والحكمة »

وإذا كان أهل الشورى هم أهل الرأى والحكمة ، فلماذا نرفض رأى أغلبيتهم ؟ لا مسوغ إذن لهذا الرفض ، ولا مبرر لأن يرفض الإمام رأى أغلبية أهل الرأى والحكمة ، ويلجأ إلى رأى الأقلية ، ولو كانت من ذوى الرأى والحكمة

ومن الأدلة التى تؤيد الأخذ برأى الأغلبية ، وتدعوا إلى العمل به ، قول الرسول ﷺ « لا تجتمع أمتى على ضلالة ، ويد الله مع الجماعة ، فمن شذ شذ فى النار »[2]

ومنها حديث حذيفةالذى يقول فيه « كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركنى ، وفيه يقول الرسول لحذيفة «تلزم جماعة المسلمين وإمامهم »[3]

هذان الحديثان يفيدان أن للأغلبية وزنها ، وأن الجماعة ـــ جماعة المسلمين ـــ لا تجتمع على باطل ، ومعلوم أن المراد بالجماعة أغلبية المسلمين الذين لديهم فرصة بحث الأمور والاجتماع على شيء منها أورده ، وليس المراد كل المسلمين ، أو كل من يبحثون أمراً من أمورهم ، إذ من الضرورى اختلاف الآراء وتباين وجهات النظر

يقول المرحوم الأستاذ عبد القادر عودة : « والواقع أن الشورى لن يكون

---

(١) الأنفال الآية ٦٢

(٢) سنن الترمذى .

(٣) صحيح مسلم .

لها معنى إذا لم يؤخذ برأى الأكثرية ، ووجوب الشورى على الأمة الإسلامية يقتضى التزام رأى الأكثرية وقد سن الرسول ﷺ سنة الالتزام برأى الأكثرية فى خروجه لغزوة أحد »[1]

وليس من حق هذه الأكثرية أن تتراجع عن رأى اتخذته ولا يجوز للإمام أن يرجع عن أمر أقرته الأغلبية ولو تراجعت عنه لأن للشورى وقتها ، وللتنفيذ وقته ، وليس من الحكمة ولا من الرأى أن نخلط وقت أحدهما بالآخر ، لأننا لو فتحنا هذا الباب لأصبحت الأمور ألعوبة فى أيدى مجلس الشورى ، فيبدى كل رأيه من غير تمحيص ولا روية مؤسساً ذلك على بقاء الفرصة مفتوحة لو تبين له رأى خلاف رأيه ، أما إذا علم أن الفرصة هى التى بين يديه فقط ، وأن رأيه بعد الانتهاء منها لن يؤخذ به ، بل لن يلتفت إليه ، عندئذ يصدر رأيه بعد دراسة وتفكير ، وبعد أن يطمئن قلبه إلى ما سيديه من رأى بالقبول أو الرفض .

ليس هذا القول جزافاً ، وإنما هو عمل رسول الله ﷺ فإنه بعد أن استقر الرأى على الحرب فى غزوة أحد ، ودخل رسول الله بيته ولبس لأمته ، خرج على أصحابه ، وقد عزموا أن يردوا الأمر إليه فرفض ، وصمم على المضى إلى آخر الشوط وقال : « ما كان لنبى لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه »

فهو — ﷺ — بهذا يقرر المضى على مااتفق عليه أكثرية المسلمين ويرفض الرجوع عن هذا القرار بعد أن اتخذت خطوات إيجابية لتنفيذه ، يشير إلى ذلك بلبس اللامة التى هى من أدوات الحرب معلنا أنه ليس من حق أحد أن ينقض قراراً اتخذ ، ولو كان الذين قرروه .

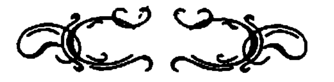
يقول المرحوم الأستاذ سيد قطب : وكما ألقى النبى ﷺ درسه النبوى الربانى ، وهو يعلم الأمة الشورى ، ويعلمها إبداء الرأى ، واحتمال تبعته بتنفيذه فى أخطر الشئون وأكبرها ، كذلك ألقى عليها درسه الثانى فى المضاء بعد الشورى ، وفى التوكل على الله وإسلام النفس لقدره على علم بمجراه

---

(١) الإسلام وأوضاعنا السياسية ص ١٦٢

واتجاهه فأمضى الأمر فى الخروج ، ودخل بيته ، فلبس درعه ولامته ، وهو يعلم إلى أين هو ماض ، وما الذى ينتظره وينتظر الصحابة معه من آلام وتضحيات ، وحتى حين أتيحت له فرصة أخرى بتردد المتحمسين ، وخوفهم من أن يكونوا استكرهوه ﷺ على ما لا يريد ، وتركهم الأمر له فيخرج أو يبقى حتى حين أتيحت هذه الفرصة لم ينتهزها ليرجع ، لأنه أراد أن يعلمهم الدرس كله ، درس الشورى ، ثم العزم والمضى مع التوكل على الله والاستسلام لقدره ، وأن يعلمهم أن للشورى وقتها ، ولا مجال بعدها للتردد والتأرجح ومعاودة تقليب الرأى من جديد ، فهذا مآله الشلل والسلبية والتأرجح الذى لا ينتهى »[1] .

« وكذلك وضع محمد إلى جانب الشورى أساس النظام، فإذا تم للكثرة رأى بعد بحث ، لم يكن لها أن تنقضه لهوى أو لغاية ، بل يجب أن ينفذ الأمر ، على أن يحسن من يتولى تنفيذه ويوجهه إلى حيث يتحقق نجاحه[2]



---

(١) الظلال م / ١ ص ٥٠٢ .

(٢) حياة محمد ص ٢٩٢

الفصل الثانى

ملامح المجتمع الإسلامى

١ - وحدة العقيدة .
٢ - وحدة الوسائل .
٣ - وحدة الغاية .
٤ - الجماعة والعمل الجماعى .

ملامح المجتمع الإسلامى

لقد بعث النبى ﷺ والناس فوضى متفرقون ، لا نكاد نجد شخصين يلتقيان على كلمة سواء ، ولا زوجين يسيران فى اتجاه واحد ، قبائل متناحرة ، وبيوت ممزقة ، وأسَر متفرقة .

مجتمع مهلهل فى عقيدته وأوضاعه واتجاهاته ، وأصدق تعبير عن هذا التمزق قول شوقى :

أتيت والناس فوضى لا تمر بهم إلا على صنم قد هام فى صنم

بعث النبى ﷺ وهذه حال العرب ، بل حال الدنيا كلها فكانت مهمته ﷺ جمع هذا الشتات ، ولمّ هذا الشمل .

لهذا جاء ﷺ بالتوحيد ، توحيد العقيدة ، وتوحيد الأمة ، وتوحيد الاتجاه ، وتوحيد الغاية .

هذا التوحيد الشامل لكل نواحى الحياة المختلفة ، واتجاهاتها هذا التوحيد ، هو الغاية العظمى التى من أجلها بعث رسول الله ﷺ فقامت أمته على التوحيد ، حتى كان التوحيد أساس عقيدتها ، ومصمم نظمها وثقافتها ، وروح منهاجها وطريقتها ، ومنطلق وسائلها وغايتها

لم يكن هناك شىء يجمع هذه الأشلاء الممزقة إلا التوحيد ، حيث عجزت هذه الأمة أن تلتقى على عروبتها ، كما عجزت عن أن تلتقى بآلهتها المتخاصمة المبعثرة .

لقد عجزت صرخات الحُنفاء من أبنائها الذين نادوا بالتحذير وبصروها بعاقبة أمرها أن تجمع هؤلاء المتفرقين كما عجزت توجيهات المصلحين عن توحيد صفها ، وجمع شملها لقد عجزت كل الوسائل عن أن تصل بهذه الأمة إلى ما يجب أن تكون عليه ، ولم يبق سوى التوحيد بمعناه الشامل الواسع الذى ذكرناه

لقد شاء الله عز وجل لهذه الأمة أن تكـون خاتمة الأمم وشاء الله لرسالتها أن تكـون للناس كافة ، فهى ليست دعوة إقليمية ، وليست دعوة شعوبية ، وليست دعوة لأمة واحدة دون أمم الأرض جميعاً ، بل هى للأمم عامة ، وللناس كافة ، قال تعالى ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيرا ﴾[1]

فكان لا بد لهذه الأمة المصطفاة ، والتى كتب لها أن تبقى حتى تشهد مصرع الحياة ، كان لا بد لهذه الأمة من ملامح ، تميزها عن غيرها من الأمم التى ستعاصرها فى تلك الحقبة من الزمان ، فكانت تلك الملامح مجتمعة فى التوحيد

١ ـــ وحـدة العقيـدة

العقيدة أهم وسائل توحيد الأمة ، لأن الأمة إذا كانت موزعة العقيدة ، متفرقة الدين ، تتخطفها آلهة شتى ، ويتنازعها أرباب متفرقون ، كانت أمة مبعثرة الاتجاه ممزقة الشريعة ، ضالة الغاية .

فتوحيد العقيدة يتجه أولاً إلى توحيد الله عز وجل إذ مقتضى التوحيد أن يكون إلهها الذى تتجه إليه واحداً ، وأن يكون ربها الذى تدين له بالربوبية واحداً ، وأن يكون معبودها الذى تحنو له جباهها واحدا

وأن يكون توكلها على هذا الإله الواحد ، ورجاؤها فى ذلك الإله الواحد ، وخوفها من ذلك الإله الواحد ، ومحبتها لذلك الإله الواحد كما يكون نذرهـا وذبحهـا ، واستغـاثتها واستعـانتها ، وسؤالها وأملهـا ، كل ذلك يكـون للإلـه الواحد ، لا تتجه بشىء من ذلك قل أو كثر إلا إليه ـــ سبحانه ـــ وإن أدنى اتجاه بشىء مما ذكرنا إلى غير الله عز وجل فمعناه الدينونة لما اتجه إليه الإنسان ، والعبودية لغير الله جل شأنه وهذا هو الشرك بعينه وصدق الله العظيم حيث يقول : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾[2] .

وأن أول تفرق الأمة وتمزقها يأتيها من تفرق عقيدتها ، فدعاء الناس مخلوقاً

---

(١) سورة سبأ الآية ٢٨

(٢) سورة يوسف الاية ١٠٦

لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعا هو أول أبواب الشر الكثيرة التى تفتح عليهم ، وخوفهم من المخلوقين ، وتوقع الضر والنفع منه هو أعظم البلاء الذى ينزل بهم ، وتوكلهم على ذوى الجاه والمناصب ، واعتقادهم بأنهم هم الذين يسيرون الأمور ، ويدفعون الشرور ، هو أكبر المخاطر التى تحيق بهم

وهناك أهل التمائم والتعاويذ ، أولئك الذين تزعزعت عقائدهم ، ووهنت ثقتهم ، وضعف إيمانهم ، فلا يمشون إلا والتمائم فى أعناقهم ، لتدفع عنهم الشر ، وتجلب لهم الخير ، ويرجعون إذا شمألت الطير ، ويقلعون إذا نعقت البوم ، ويتشاءمون إذا مر بهم شخص أعور ، أو رأوا جرة مكسورة

أولئك هم الذين فقدوا ثقتهم بالله ، ووثقوها فى مخلوق أو تميمة

وهناك نوع جديد من العبودية لغير الله ، وصرف نوع عظيم من أنواع العبادة لغيره جل وعلا وهو تعظيم الزعماء ووصفهم بصفات البارى جل شأنه واعتقاد نفعهم وضرهم والخوف منهم ،والاعتماد عليهم ، وذلك هو عينه الطاغوت الذى أشارت إليه الآية الكريمة ﴿ **فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى** ﴾[1]

﴿ **ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت** ﴾[2]

وهناك الذين يتخذون الأولياء والصالحين واسطة بينهم وبين الله عز وجل فإذا عزموا أمراً ذهبوا إلى قبورهم يسألونهم الوساطة ليتممها الله لهم ، وتلك عادة جاهلية ممقوتة نعاها الله على أصحابها فى قوله تعالى ﴿ **والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى** ﴾[3]

وليس معنى هذا أنا نمنع زيارة القبور ، أو الوقوف عليها للعبرة والموعظة ، فذلك شيء أمر به الشارع ﷺ حيث يقول : «**كنت قد نهيتكم** عن زيارة القبور ألا فزوروها فإنها تذكركم الآخرة »[4] وقول الفضيل بن

---

(١) البقـرة الآية ٢٥٦

(٢) النحـل الآية ٣٦

(٣) الزمر الآية ٣

(٤) رواه مسلم .

عياض : « ومن أراد واعظاً فالموت يكفيه »[1].

فلا بأس إذا شرعا أن تزور القبور لترى مصيرك فى أهلها وتعرف مكانك بين أصحابها ، فيرق قلبك ، وتدمع عينك ، وتعود وقد زودت نفسك بما يعينك على إصلاح أمرك ، وسداد خطوك وتحديد مسيرتك ، ولكن البأس كل البأس ، والخطر كل الخطر فى أن تسأل أصحابها شيئاً ، أو تستعين بهم فى شىء لا يقدرون عليه لأنفسهم .

هذا التمزق فى التفكير ، وهذه الأشتات المتنافرة فى الاتجاه تظهر الأمة بمظهر الفرقة والاختلاف ، فترى متناحرة متخاصمة ، يطمع فيها أعداؤها ويهون شأنها على خصومها ، ذلك لأن تفرق العقيدة أشتاتاً لا حصر لها يؤدى إلى اختلاف السبل ، إذ يكون لكل وجهة تتعارض مع وجهة الآخر وطريق تختلف قرباً وبعداً من الآخرين بقدر اختلافهم فيها

ومن أجل القضاء على هذا التباين الذى لا مفر منه ما دامت العقيدة متفرقة ، ولأجل تحديد مسيرة الأمة وعدم تفرقها ، جاء الإسلام بالتوحيد توحيد العقيدة الذى يجعل الناس جميعاً يسيرون فى اتجاه واحد حيث تكون الوسيلة واحدة والغاية واحدة ، لاثنوية ولا تثليث ولا تشاؤم ولا وساطة ، بل الكل فى ذات الله سواء ، يتفاضلون بالعافية ، ويدركون ما عنده بالطاعة .

فحينئذ يكون العمل لله ، والترك لله ، والحب لله ، والبغض لله والعطاء لله ، والمنع لله ، والعبادة لله ، والسؤال لله ، والاستعانة بالله ، تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له ﴾[2].

والرسول ﷺ يعلم ابن عباس رضى الله عنهما حقيقة التوحيد ، فيقول : « يا غلام ، احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك ، ولو اجتمعت على أن ينفعوك لم

---

(١) كشف الخفاء .

(٢) الأنعام الآية ١٦٢

ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، جفت الأقلام وطويت الصحف »[1]

بهذا التوحيد تخط الأمة لنفسها طريقاً سويا ، تجتمع عليه دون أن يشذ منها شاذ ، ومن أجل هذا كان ﷺ يقول لقومه : « كلمة واحدة يدين لكم بها العرب ، وتملكون بها العجم »

روى ابن كثير فى تفسير قوله تعالى ﴿ **وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم ، إن هذا لشىء يراد** ﴾[2] قال إن قريشاً أرسلت رجلاً إلى أبى طالب فقال له هؤلاء مشيخة قومك وسراتهم يستأذنون عليك ، وقال أدخلهم ، فلما دخلوا عليه قالوا يا أبا طالب ، أنت كبيرنا وسيدنا ، فأنصفنا من ابن أخيك ، فمره فليكف عن شتم آلهتنا ، وندعه وإلهه ، وقال بعث إليه أبو طالب ، فلما دخل عليه رسول الله ﷺ قال : يا ابن أخى ، هؤلاء مشيخة قومك وسراتهم ، وقد سألوك أن تكف عن شتم آلهتهم ، ويدعوك وإلهك ، قال ﷺ « يا عم أفلا أدعوهم إلى ما هو خير لهم » ؟ قال وإلام تدعوهم ؟ قال ﷺ « أدعوهم أن يتكلموا بكلمة يدين لهم بها العرب ، ويملكون بها العجم » فقال أبو جهل لعنه الله من بين القوم : ما هى ؟ وأبيك لنعطينكها وعشر أمثالها ، قال ﷺ « تقولون لا إله إلا الله » فنفروا وقالوا سلنا غيرها قال ﷺ : « لو جئتمونى بالشمس حتى تضعوها فى يدى ما سألتكم غيرها » فقاموا من عنده غضاباً ، وقالوا والله لنشتمنك وإلهك الذى أمرك بهذا

إنها كلمة التوحيد ، كلمة واحدة تحدد اتجاه القوم ، وتحدد وسيلتهم وتحدد غايتهم ، إن كلمة التوحيد « لا إله إلا الله » تجمع القلوب المتنافرة فإذا هى وحدة هائلة ، وتدعم النفوس الواهنة ، فإذا هى قوة رادعة وتلم الفئات المبعثرة ، فإذا هى كتلة صلبة

إن هذه السبل المتنافرة التى خلفها الشرك والكفر تبدد الجهود المبذولة ، وتصدع القلوب الملمومة ، وتترك الناس حيرى هائمين كالسائمة غاب عنها الراعى الواعى الأمين .

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير مع اختلاف قليل .

(٢) سورة ص الآية ٦

أما إذا تحقق التوحيد فى القلوب ، وسيطر على النفوس ، غير مجرى الحياة كلها ، فترى الناس يستمدون قوتهم من الله الواحد ، ويستلهمون خطتهم من الإله الواحد ، تطمئن قلوبهم إلى نصره ، وتطمع نفوسهم فى تأييده ، وتمتد إليه سبحانه أيديهم بالسؤال ، لأنه وحده الذى يملك الإجابة ، وتعنو جباههم له بالعبادة ، لأنه الواحد الذى يستحق العبادة ، وتطأطىء رؤسهم لعظمته ، لأنه الواحد المتفرد بالعظمة ، وتنحنى هاماتهم خضوعاً لجلاله ، لأنه وحده ذو الجلال والإكرام ، وتنقطع آمالهم إلا من كرمه ، لأن خزائنه سحاء الليل والنهار ، وتخضع أعناقهم لحكمه ، لأنه جل شأنه لا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه

فهو جل جلاله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد

إن عقيدة التوحيد تجمع القلوب المتفرقة ، وتمد الضعفاء بقوة فوق قوة البشر ، وتجعل من الأمة المبعثرة الممزقة وحدة ترهب الأعداء ، وتحقق الآمال ، وتنشر العزة بين صفوف الموحدين فيواجهون الشدائد بعزة المؤمنين ، ويتغلبون على الصعوبات بقوة اليقين بنصر الله .

إن كلمة التوحيد « لا إله إلا الله » بمفهومها الحقيقى تخضع الأمة كلها لمفهوم واحد ، يصدر عنها عقيدة واحدة ينشأ عنها جيل موحد الفكر ، موحد الوسيلة ، موحد الغاية وتلك هى غاية التوحيد .

والشطر الثانى لكلمة التوحيد هو « شهادة أن محمداً رسول الله » يجعل المجتمع كله خاضعاً لما جاء به رسول الله ﷺ فى مفهومه ، وفى تصوره ، وفى اعتقاده ، ومعنى هذا أن المجتمع المسلم لا بد أن يلتقى على شريعة الله ، ويتلقاها عن رسول الله ، فيعبد ربه بما عبده به رسول الله ، ويبنى أفراده على قواعد هذا الشرع الحنيف ، بحيث يكون كل فرد من أفراده لبنة فى هذا الصرح الشامخ .

فشهادة أن محمداً رسول الله توجب على المجتمع المسلم الذى يدين بها أن يتخذ رسول الله ﷺ قائداً له فى كل أحواله ، فلا يحيد عن طريقه فى الفهم

والتصور والعقيدة والتشريع ، والعبادة والمعاملة ، لا بد أن ينبثق فهمه وتصوره من الإسلام ، فيأبى كل فهم يتنافى مع الإسلام ، ويرفض كل تصور لا يتلاءم مع الإسلام

ولا بد أن تنبع عقيدته وشريعته من الإسلام ، فيأبى كل عقيدة سوى التوحيد، ويرفض كل تشريع وضعه أهل الأرض مهما كانت نوعية ذلك التشريع

ولا بد أن تكون عبادته ومعاملته وفق خطة الإسلام ، فيأبى كل عبادة لغير الله ، ويرفض كل معاملة لا تقوم على أساس شريعة الله

إن فهم المجتمع الإسلامي وتصوره لا بد أن يكون خاضعاً لمبادىء الإسلام ، ذلك لأن عقلية المسلم لا بد أن تغرس فيها الحقائق الإسلامية ، فتنبت وتترعرع فيها بحيث لا تجد المفاهيم الأخرى إليه سبيلا ، فهو يرى الأشياء ببصيرة المسلم ، ويحكم عليها من خلال تصوره الإسلامي الصحيح ، فلا ينخدع بالمبادىء الهدامة ، ولا تبهره الصور الزائفة ، وهو يرد كل شيء إلى الإسلام فما وافقه أخذه وسلم به ، وما خالفه رفضه

وإن عقيدة المجتمع المسلم وشريعته لا بد أن تكون قائمة على هدى رسول الله ﷺ ذلك لأن العقيدة لا تؤخذ إلا عن رسول الله ، والشريعة لا تكون صحيحة إلا إذا كانت تابعة لما جاء به رسول الله ، فلو صح أن يأخذ الناس عقيدتهم وشريعتهم من أفواه الكهنة والأحبار ، لما صحت عقيدة ولا نفعت شريعة ﴿ **ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن** ﴾[١]

وإن عبادة المجتمع المسلم ومعاملاته لا بد أن تكون مأخوذة من الوحي الذي أنزل على رسول الله ﷺ ذلك لأن الله لا يعبد إلا بما جاء به نبيه ، والمجتمع لا يستقيم أمره إلا إذا كانت معاملاته خاضعة لتشريع رسول الله ، ولو صح للناس أن يعبدوا الله تعالى تبعاً لأهوائهم ، وأن يتعاملوا وفقاً لنزعات نفوسهم لاضطربت الأحوال ، وفسدت الأوضاع ﴿ **وما آتاكم الرسول**

---

(١) المؤمنون الآية ٧١

فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾[1]

وتلك هى حقيقة الشطر الثانى من الركن الأول للإسلام .

٢ ـــ وحدة الوسيلة

إن وحدة الوسائل من أهم أسباب وحدة الأمة الإسلامية ، لأن الوسائل هى الطرق الموصلة إلى الغاية ، والغاية فى الإسلام هى إرضاء الله عز وجل بطاعته فيما أمر ونهى وإخلاص العبادة له وحده دون سواه **﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾**[2]

ولقد شرع الإسلام الوسائل التى تتضمن توجيه الناس إلى الغاية التى خلقوا من أجلها ، شرع الإسلام العبادات وكلف بها الجميع على السواء ، وهى علاوة على كونها عبادة لله عز وجل فإنها وسائل تجمع الأمة ، وتخط بها طريقاً سوياً تسير فيه على هدى وبصيره حتى تصل إلى غايتها

والوسائل فى الإسلام يجب أن تكون شريفة لشرف الغاية التى نريد الوصول إليها ، والإسلام يرفض القاعدة التى اختطها بعض الناس ، ورسموا منهج حياتهم على أساسها وهى « الغاية تبرر الوسيلة » يرفض الإسلام هذه القاعدة ، لأن الغاية التى يعمل لها غاية نظيفة شريفة ، ولا يمكن الوصول إليها إلا بوسائل نظيفة وشريفة

فمهما كانت عظمة الغاية ، ومهما كانت حاجة الإنسان إليها فإن ذلك لا يبرر مطلقاً الوصول إليها بوسائل غير مشروعة ، لأن الوسائل غير المشروعة ، لا توصل إلا إلى غايات غير مشروعة

فإذا كنت تريد جمع المال الحلال فإنه لا يمكنك الوصول إليه بطريق الربا ، أو الاحتكار أو الرشوة أو القمار

وإذا كانت غايتك أن تعف نفسك فلا يمكنك ذلك عن طريق الزنا أو اللواط .

---

(١) الحشــر الآية ٧

(٢) الذاريات الآية ٥٦

إذا أردت أن تكون شجاعاً فلا يتأتى ذلك بالاعتداء على الضعفاء أو الجبناء

وفرق واضح بين أولئك الذين يَتَحَرون الحلال فى المكسب والمطعم والمشرب ، وبين أولئك الذين يريدون جمع المال ، ولا يهمهم كيفية الحصول عليه ، وبين أولئك الذين يريدون إعفاف أنفسهم وبين الذين لا هم لهم إلا إشباع رغباتهم ، وبين الشجاع الأبى ، وبين المعتدى على الضعفاء .

الفرق واضح ولا شك ، لأن الغاية الشريفة تأبى أن تنال بوسائل خسيسة ، لهذا فإننا نرفض تلك القاعدة ، ونرفض أن تكون منهاج حياتنا

والوسائل التى وضعها الإسلام تتلخص فى العبادات ، فالصلاة والصيام والزكاة والحج ، وسائل يتحقق بها الوصول إلى الغاية العظمى إرضاء الله تعالى بطاعته وعبادته

وهى فى نفس الوقت عوامل تجميع تُصَفُّ الأمة فى ساحة وتجمعها فى ميدان واحد ، وتأخذ بيدها إلى غاية واحدة ، فتسير كلها فى اتجاه واحد لتحقيق غاية واحدة

هذه الفرائض لم تفرض على قوم دون قوم ، ولم تجب على الذكور دون الإناث ، بل هى فريضة على كل مسلم ومسلمة تتوفر فيه الشروط المطلوبة

كيف تحقق هذه الوسائل أهدافها ؟

الصلاة : إن الله تبارك وتعالى فرض الصلاة على المسلمين جميعاً : ﴿ **إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباًموقوتا** ﴾[1]

هذه الصلاة تجمع المسلمين فى صعيد واحد كل يوم خمس مرات على صعيد الحى ، ثم فى كل أسبوع مرة على صعيد القرية والمدينة ، فى صلاة الجمعة ، ثم كل عام مرتين فى صلاة العيدين على صعيد المدينة

ولا يجوز لمسلم يسمع النداء للصلاة ، وهو غير معذور ، ثم يصلى فى

(١) سورة النساء الآية ١٠٣

بيته ، لأن الرسول ﷺ قال للأعمى الذى جاء يستأذن ليصلى فى بيته أتسمع النداء ؟ قال نعم قال فأجب[1]

ثم طلب من المسلمين أن تكون هذه الصلاة فى جماعة ، ولقد رفض رسول الله ﷺ أن يسمح للأعمى الذى لا قائد له ، وبين بيته والمسجد نخيل وأشجار ، وهو يخشى أن يصطدم بشىء من ذلك فى طريقه إلى المسجد ، رفض ﷺ أن يبيح له الصلاة فى داره ، وسأله ، أتسمع الأذان ؟ أتسمع الإقامة ؟ ويجيب الرجل نعم ، فيقول الرسول « لا أجد لك عذراً »[2]

لماذا ؟ ليجتمع المسلمون ويحافظوا على هذا التجمع الذى يزيد من قوتهم ، ويقوى روابط المحبة والمودة بينهم ، وليتعارفوا ويتشاوروا فتجتمع قلوبهم ، وتتوحد صفوفهم ، ويسيروا جميعاً صفاً واحداً إلى غايتهم

الصيام

والصيام فريضة جماعية أيضاً ، وقد يتخيل بعض الناس أنه يصوم وحده ، ويفطر وحده ، وأن صيامه غير مرتبط بصيام أحد

وهذا التخيل غير صحيح ، لأن الصيام محدد بوقت معين يصوم فيه المسلمون جميعاً فى كافة أنحاء الأرض المختلفة وهو شهر رمضان ولا يجوز لأحد من المسلمين أن يصوم شعبان بدل رمضان ولا أن يصوم شوال بدلاً منه إلا أن يكون معذوراً

وفترة الصيام محدودة من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، فلا يحل لمسلم أن يأكل فى تلك الفترة أو يتناول شيئاً من المفطرات دون عذر شرعى ، فالمسلمون جميعاً مرتبطون فى بدء صيامهم بطلوع الفجر ، وفى انتهائه بغروب الشمس ، وذلك هو عين المعنى الجماعى الذى يرمى إليه الإسلام فى مشروعيته للعبادات كلها

---

(١) رواه مسلم مشكاة المصابيح جـ ١ ص ٣٣٢

(٢) رواه مسلم .

الزكـــاة

والزكاة لا تخلو من هذا المعنى العام ، ذلك لأن الدولة هى التى تجمع الزكاة وهى التى توزعها على الفقراء والمستحقين فهى تجمع من كافة الموسرين، وتوزع على كافة المستحقين ، فمجموعة المسلمين الأغنياء، يشعرون بواجبهم نحو مجموعة إخوانهم الفقراء وهذا هو المقصود من معنى الجماعة فى العبادة

ولا ينافى هذا ما رآه بعض الفقهاء من جواز إخراج الزكاة من كل فرد على حدة فى الوقت الذى يحين فيه وقتها ، لأن ذلك يكون فى حالات خاصة ، ومع ذلك فهو لا يمنع من شعور مجموعة الأغنياء بحاجة إخوانهم المحتاجين والمستحقين ، فهى فريضة جماعية اجتماعية لا يشك فى ذلك اثنان

ثم الحــج

والحج من فرائض الإسلام الخمسة ، وهى فريضة يبدو فيها الجانب الجماعى بوضوح ، فالمسلمون يلتقون فى يوم واحد ومكان واحد ، وليس لأحد أن يتقدم هذا اليوم بالوقوف أو يتأخر عنه ، ومن يفعل ذلك فحجه فاسد

والمسلمون جميعاً عند أداء هذه الفريضة يلبسون زياً واحدا ويقومون بأعمال جماعية كالطواف والسعى والرمى والحلق كلهم مكلفون بذلك ، ولا يجوز لمن يريد أداء هذه الفريضة أن يمتنع عن فعل شىء من ذلك

فاجتماع المسلمين فى يوم واحد ، ومكان واحد ، وقيامهم بأعمال واحدة كل ذلك ينمى فيهم الروح الجماعية التى جاء من أجلها الإسلام .

ومن هذا نفهم أن العبادات التى فرضها الله تعالى على المسلمين كلها وسائل تجميع للأمة تربى فيهم حب الجماعة ، وتنمى فيهم الروح الجماعية ، وترغبهم فى العمل من أجلها ، والتضحية فى سبيلها

فالإسلام إذن هو دين التوحيد الخالص ، دعا إليه فى العقيدة ورسمه فى

الوسائل ، وفرضه على المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها بقوله تعالى ﴿ وإن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاتقون ﴾[1]

٣ ـ وحـدة الغايـة

وتلك هى السمة الثالثة من سمات المجتمع المسلم إن وحدة الغاية هدف مقصود ، بل هو الغاية التى من أجلها خلق الإنسان ، فإن من الممكن أن يلتقى جماعة من الناس على عقيدة واحدة ، ومع ذلك تختلف غاياتهم

فكثير من الناس يتخذون الشيوعية ، مذهباً وعقيدة ، ولكنهم يختلفون فى الغاية ، فهذا يعتنق الشيوعية ليستنزف بها أموال الناس وهذا يعتنقها ليصير بها دكتاتوراً يتحكم فى رقاب الناس ، والآخر يعتنقها حقداً على ذوى الأموال والمناصب وكثيرون أيضاً يتخذون الرأسمالية مذهباً وعقيدة ولكنهم يختلفون فى الغاية كما اختلف الذين من قبلهم فهذا يعتنق الرأسمالية ليسخر بها العمال ويستغل طاقاتهم وهذا يعتنقها ليبتز أموال الناس ويجمع منها أكبر قدر ممكن والآخر يعتنقها ليتوصل بها إلى مآربه من الجاه والسلطان

لا شك أن هؤلاء وأولئك كل منهما يعتنق عقيدة واحدة ، ولم تستطع تلك العقيدة أن توحد غاياتهم ، وأن ترسم لهم منهج حياة لا يختلف

وكما عجزت هذه العقائد عن توحيد الغاية ، فإنها عجزت عن تحديد الوسائل المؤدية إلى الغاية ، ولا شك أن وحدة الوسائل تؤدى إلى وحدة الغاية ، ولما كانت هذه العقائد عاجزة عن تحديد الوسائل ، كان لزاماً أن تختلف الغاية

ونحن نرى ذلك واضحاً فى الواقع الذى يعيشه أهل هذه العقائد ، فإن الشيوعيين تجمعهم عقيدة واحدة ، ومع ذلك تعددت غاياتهم تبعاً لتعدد الوسائل

فمن كان المال غايته سلك إليه وسائل شتى ، فقد يصادر الأموال ، وقد يحتكر الاتجار فى بعض المواد المربحة ، وقد يلجأ إلى مشاركة كبار التجار مختفياً

---

(١) سورة المؤمنون الآية ٥٢

وراء أسمائهم .

ومن كانت غايته التسلط والحكم ، فإنه يسلك لذلك طرقاً متعددة فالإرهاب والتخويف أحد وسائله والتعذيب والسجن وسيلة،أنكى وأمر ، وشراء الزعماء وإغراؤهم بالمال مكيدة حقيرة للوصول إلى تلك الغاية .

وكذلك الرأسماليون يدينون بعقيدة واحدة ، ولكن غاياتهم متعددة فمن كانت غايته تسخير العمال واستغلال طاقاتهم وصل إلى غايته بزيادة ساعات العمل أحياناً ، وقلة الأجور أحياناً ، وطرد العمال ليتعطلوا فيعرضوا أنفسهم بأجور أقل أحياناً أخرى .

ومن كان همه الجاه والسلطان ، فإنه يستطيع الوصول إلى ذلك بالرشوة تارة ، وبشراء الأصوات فى الانتخابات تارة وبتقييد عمال مصانعه فى دائرته الانتخابية ليختاروه نائباً أو شيخاً تارة أخرى

وهكذا نرى أن العقيدة فى هذه المذاهب لا تحدد الوسيلة من جهة وبالتالى لم تتوحد غاياتها ، ولهذا فإننا نرى أصحاب هذه العقائد يختلفون على أنفسهم اختلافاً بيناً فى كل شيء ، حتى ليخيل إليك أن أصحاب العقيدة الواحدة لايمت واحد منهم إلى الآخر بصلة ، ولما كانت العقيدة هى أقوى الروابط التى تشد الناس بعضهم إلى بعض ، فتوحد مسيرتهم ، وتجمع كلمتهم : وتحدد غايتهم ، كان من الطبيعى أن تكون هذه العقائد كذلك ، ولكن الواقع بين أصحابها ليس كذلك ، لماذا ؟ ؟

لأن الحقيقة التى لا يستطيع أحد إنكارها هى أن هذه العقائد شعارات براقة فقط ، وكلمات معسولة ليس غير

ماذا حققت الشيوعية لمعتنقيها ، وقد قامت لها دولة كبرى هى ثانى دولة فى العالم ؟ ماذا حققت من مبادئها ؟ ؟

لا شك أنها أفقرت الأغنياء ، ولم تزد الفقراء إلا فقرا .

وماذا حققت الرأسمالية لأربابها ، وهم أصحاب أكبر دولة فى العالم ، ويتبعها أغنى دول العالم ، ماذا حققت من مبادئها ؟ ؟

إنها لم تستطع أن تسوى بين أبنائها فى الحقوق والواجبات ولا زالت

تجاهد ، فى سبيل تحقيق هذا المبدأ الذى هو أول مبادئها والفشل يلاحقها فى كل ميدان ، ولا زال نظام الطبقات والتفرقة بين السود والبيض هو المهيمن على هذا المجتمع

أما عقيدة التوحيد التى آمن بها المسلمون ، وتمسكوا بها تمسكاً فاق كل حد فإنها ترتبط بالوسائل ارتباطاً وثيقاً ، وتوحد الغاية التى جاءت من أجلها

فتوحيد الله عز وجل هو إفراده بالعبادة ، وعدم صرف شىء منها ـ مهما قل ـ لغيره ، وتلك هى الغاية المطلوبة

وأنواع العبادة المختلفة هى الوسائل التى فرضتها العقيدة لتوصل إلى تلك الغاية

فالعقيدة عندنا هى التى تحدد الوسائل ، والوسائل هى التى توصل إلى الغاية . .

ومن هنا يتضح الفرق بين عقيدتنا وبين العقائد الأخرى وأحب أن أوضح هنا أن المايزة والمفارقة لن تكون بين الديانات السماوية ، ذلك لأن هذه الديانات ما عدا الإسلام عاجزة عن مواجهة مشكلات العالم اليوم ، ولم يدع أحد من أتباعها أنها جاءت لحل مشكلات العالم السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، بل ولم يطمع أهلها منها فى ذلك ، وغاية ما يتطلعون إليه من اعتناقها أن تربطهم بعالم أسمى من عالمهم ، وأن تلج بهم ملكوت السماوات على حد زعمهم

وستكون المايزة بين عقيدتنا وبين العقيدتين اللتين يزعم أربابها أنهما جاءتا لإنقاذ البشرية وحل مشكلاتها المعقدة وهما الشيوعية والرأسمالية .

ونستطيع أن نقول أن عقيدتنا تخالف العقيدتين المذكورتين فيما يأتى

أولاً

أن عقيدتنا ربانية سماوية ، لم يدخلها تحريف ، ولم يطرأ عليها تبديل ، لذا فإنها صالحة لكل زمان ومكان ، لأن الذى شرعها هو خالق الزمان والمكان ، وهو أعلم بما يصلح عباده فى كل زمان ومكان

وقد طبقت فعلاً فى البلاد التى فتحها المسلمون مع اختلاف أجناس الناس وطبقاتهم وبيئاتهم فكانت بالتجربة العملية ناجحة نجاحاً بهر العالمين

ولذا أيضا فإنها لا تحتمل الخطأ والتعديل ، لأن مشرعها سبحانه لا يجوز عليه الخطأ ، وليس لأحد من خلقه مهما كان نبياً أو مقرباً أن يمد يده إلى شرعه بالتعديل أو التبديل

وأما النظر فيما يستجد من المسائل ، وإصدار الأحكام فيها ، فذلك ليس تعديلاً من خطأ ، أو إضافة من نقص ، بل هو إلحاق للمسائل المستجدة بما يشابهها من المسائل التى نزلت فيها الأحكام ﴿**ذلك تخفيف من ربكم ورحمة**﴾[1]

وأما العقائد الأخرى فإنها بشرية أرضية ، لذا فإنها لا تصلح لكل زمان ومكان ، لأن مشرعيها إنما يضعونها للفترة التى يعيشون فيها ويتوقعونها ، وللبيئة التى درسوها وخبروا أحوالها ، فما وضع فى القرن الثامن عشر ، ألغته دساتير القرن التاسع عشر ، وما كان مناسباً للقرن التاسع عشر ، لم يعد مناسباً للقرن العشرين

وما صلح منه لأمريكا ، لم يصلح لانجلترا ، وما نجح فى روسيا فشل فى فرنسا وهكذا

ولذا أيضاً فإنها محتملة للخطأ والتعديل ، لأن مشرعيها بشر تغلب عليهم محاباة طبقة على حساب طبقة أخرى ، قصيرو النظر ، لا يرون إلا ما هو واقع تحت سمعهم وبصرهم ، ولهذا يبدلون ويعدلون فيها كل آونة وأخرى ، تجد لهم أوضاع لم تكن فى حسبانهم ، فيضطرون إلى التعديل والتبديل وهكذا

وهى أيضاً تخضع لهوى الحكام وشهواتهم ، فيبدلون فيها ما لا يناسبهم ، ويثبتون ما يتناسب مع رغباتهم .

وثانيــاً

إن عقيدتنا شاملة جامعة ، فهى تتناول أوضاع الحياة كلها ، دون أن

---

(١) سورة البقرة الآية ١٧٨

تفرط فى شىء منها ، فهى تنظم الجانب الإلهى فى الإنسان ، كما تنظم الجانب الإنسانى فيه ، وتهتم بالجانب الأخلاقى ، اهتمامها بالجانب الاقتصادى ، وتحرص على الجانب السياسى ، حرصها على الجانب الدينى

وبهذا تربط عقيدتنا بين هذه الجوانب كلها برباط وثيق فتسير الحياة كلها فى ظل العقيدة ـــ عقيدة التوحيد .

ليس هناك دين منعزل عن الدنيا ، ولا سياسة بعيدة عن الأخلاق ، ولا اقتصاد لا تراعى فيه مصلحة الإنسان ، بل هناك تناسق وتجاوب فى أنحاء الحياة المختلفة ، فالسياسة تواكب الأخلاق ، والدين لا ينفك عن الدنيا ، والعلاقة وثيقة بين الأخلاق والسياسة والدين ، نتعامل على أساسها فى الاقتصاد ، كما نتعامل بمقتضاها فى التقاضى والمحاكمات

تلك هى طبيعة عقيدتنا تنتظم مناحى الحياة فتوجهها الوجهة الخيرة الرشيدة . وفى ظلالها يشعر كل فرد بمسئوليته أمام الله تعالى الرئيس والمرءوس ، الموظف والتاجر ، العامل والصانع ، البائع والمزارع ، وتلك المسئولية هى التى تحدد الخط الذى تسير فيه الدولة الإسلامية ، والشعور بها هو الذى ينشر السعادة والطمأنينة بين أبنائها ، حيث لا جور من الحكام ، ولا إهمال من المحكومين ، ولا تعقيد من الموظفين ، ولا غش من التجار ولا تفريط من العمال ، ولا إفراط من أصحاب الأعمال ، كل فرد من أفراد الأمة يعيش فى كنف العقيدة ، مستظلاً بعدالتها ، ناعماً بالسعادة التى كفلتها لمن يعيش فى كنفها

أما العقائد الأخرى فإنها ضيقة محدودة ، ضيقة بقدر ما يضيق الإنسان بالحياة التافهة الخالية من اليقين والإيمان ، محدودة بقدر الحيز الذى يشغله الإنسان على ظهر هذه الأرض الرحبة الفسيحة ، لذا فإنها تقتصر على جانبين فقط من جوانب الحياة المتعددة الكثيرة

فهى إما أن تتناول الجانب السياسى أو الاقتصادى ، وهذان هما ما يعنى العقائديين فى هذه الحياة ، أما الجانب الأخلاقى أو الجانب الروحى ، فلا يعنيان العقائديين فى قليل ولا كثير

والعقائد المشهورة الآن هى الرأسمالية والشيوعية ، وكلا المذهبين لا يعنيان نفسيهما بالمسألة الأخلاقية ، ولا بالجانب الروحى ، إذ لا هم لهما إلا السياسة والاقتصاد ، وما عدا ذلك فهى أمور لا تستحق العناية ، وليست مما هو جدير بالإهتمام

والأخلاق فيهما مرتبطة بالمادة ارتباط الروح بالجسد ، فما حقق منها نفعاً يجب العناية به ، والتمسك بأهدابه

فالصدق والأمانة والوفاء بالعهد وضبط الموعد ، هى أمهات الفضائل عندهم ما دامت تحقق الربح المادى ، وتعود بالنفع على المتمسكين بها ، فإذا تبين لهم أن الصدق لا يجلب مكسباً وأن الأمانة لا تزيد الربح ، وأن الوفاء بالعهد يطردهم من البلاد التى استعمروها ، وأن ضبط الموعد يؤدى إلى تقليص ممتلكاتهم تنكروا لتلك الفضائل ، وانقلبت عندهم إلى أبشع الرذائل ، يدل على ذلك معاملتهم للدول التى استعمروها

أما الأخلاق التى لا ترتبط بالمادة فلا وجود لها فى حياتهم فالعفة والقناعة والإيثار والتضحية ، وبذل النصيحة والدفاع عن العرض ، أمور لا وجود لها إلا فى الكتب

والذى يمعن النظر فى كلا المذهبين يرى من وراء الستار أصابع اليهود تخطط لانتشار المذهبين ، ومن ثم للسيطرة على العالم

كارل ماركس صاحب المذهب الشيوعى ومؤسسه يهودى ألمانى يقول الأستاذ محمد قطب « واستغلت اليهودية العالمية نظرية دارون أبشع استغلال ، استغلته على يد ثلاثة من أكبر علمائها ، قاموا بصياغة الفكر الأوربى كله فى ميدان الاقتصاد وعلم النفس والاجتماع ــ أخطر ميادين ثلاثة فى عالم الفكر ــ على أساس معاد للدين ، بل محطم لكل مفاهيمه أولئك هم ماركس ــ فرويد ــ دركايم »[1]

ويذكر الأستاذ عبد السميع المصرى بعض نصوص بروتكولات حكماء صهيون فيقول « كان امتلاك الأراضى دائماً مصدراً للنفوذ والسلطة ، فباسم

---

(1) التطور والثبات فى حياة البشرية ص ٣٤

العدالة الاجتماعية والمساواة تقسم الملكيات الكبيرة ، ونعطيها الفلاحين الذين يتوقون إليها ، ولن يلبثوا أن ينوءوا بعبء استغلالها ، فتسنح الفرصة لامتلاكنا لها ، ونصبح بدورنا ملاكا كباراً بالـذهب والمدح يمكننـا اكـتساب الطبقة العاملة التى تتولى القضاء على الرأسمالية[1]

وليست أصابع اليهود وراء الشيوعية فقط ، ولكنها تلعب نفس الدور مع الرأسمالية ، حيث تدفعها دفعاً عنيفاً لتتسلط وتتصرف فى أمور الناس ومقدراتهم حسبما تشاء ، حتى يكون الناس عبيداً فى يد حفنة من أصحاب رءوس الأموال ، يقول الأستاذ عبد السميع المصرى « ولقد أدى النظام الرأسمالى إلى تركيز الثروات فى أيد قليلة يتناقص عددها يوماً بعد يوم عن طريق إنشاء الاحتكارات الجديدة ، كاحتكار البترول العالمى ، وصناعة الصلب ، وصناعة السيارات حتى أصبحت القوة السياسية تسير فى ركاب الثروة ، كما أصبح السياسيون يقرون السلام ، أو يعلنون الحرب وفقاً لرغبات رأس المال وهو القائد الفعلى للقوة السياسية »[2]

ويقول « وأصبح كبار الرأسماليين هم القوة الحقيقية — فى العالم الرأسمالى — مستترين فى ثياب الوطنية ، يقيمون الحكومات ويسقطونها ، ويشنون الحروب إذا شاءوا ، ويضعون رؤساء الجمهوريات ، ويدفعون تكاليف الحروب عن طريق إقراض الحكومات ويستردون أموالهم مضاعفة عن طريق تجارة الأسلحة وفوائد القروض »[3]

وهكذا تتسلط اليهودية العالمية على المذهبين الكبيرين فى العالم ، فتوجههما الوجهة التى تريد وتصرفهما حسبما تملى عليها مصلحة الصهيونية ، لتقيم على أنقاضهما فى النهاية مملكة صهيون العالمية .

يقول المرحوم سيد قطب : « وسياسة اليهود إمساك العصا من الوسط ، والانضمام إلى المعسكرات المتطاحنة كلها من باب الاحتياط لتحقق بعض المغانم على أية حال ، وضمان صالح اليهود فى النهاية سواء انتصر هذا المعسكر

---

(١) مقومات الاقتصاد الإسلامى ص ١٨٤

(٢) نفس المصدر ص ١٨٧

(٣) مقومات الاقتصاد الإسلامى ص ١٨٨

أم ذاك ؟ »[1]

ومن هنا يتضح أن المادية بمخالبها الفتاكة هى التى تسيطر على المذهبين العالميين ـــ الشيوعية والرأسمالية ـــ وأن همهما كله محصور فى السياسة والاقتصاد ، وأنهما أهملتا عن قصد الجانب الأخلاقى ، والجانب الروحى ، بقدر عنايتهما بالجانبين السياسى والاقتصادى فاختل بذلك التوازن الإنسانى الذى أوجده الإسلام ، وأرسى قواعده على أسس متينة من الأخلاق ، مراعياً حاجات الإنسان المختلفة التى لا حياة له ـــ حياة صحيحة بدونها ـــ وهى التناسق بين الجوانب مجتمعة ـــ الروحية والأخلاقية والجسمية والسياسية والاقتصادية .

ومن أجل هذا عادت الشيوعية الأديان ، فالدين فى نظرها أفيون الشعوب ، يعوق مسيرتها ، ويحول دون نهضتها ، يقول صاحب المنجد : « كارل ماركس ينبذ كل الديانات ، ولا يرى فيها سوى وسيلة يستعملها الأغنياء ، لبسط سلطانهم على الفقراء » ويقول : « الشيوعية مذهب كارل ماركس الاجتماعى ، قال فيه : إن العوامل الاقتصادية وحدها تقيد تطور تاريخ الإنسانية ، وإن الفوارق الاقتصادية تؤدى إلى تكوين طبقات فى المجتمع تستثمر إحداها الأخرى ، وإن التقدم التاريخى يحصل من العراك ، بينها ، وتفوز الطبقة العاملة آخر الأمر بالسيادة ، فتكون مجتمعاً تلغى فيه الطبقات والملكية الشخصية »[2] .

والدين فى نظر الرأسمالية ضد التطور ، وعدو العلم ، وعقبة كأداء فى طريق الحضارة والحرية ، ومن هنا كانت الثورة ضد الكنيسة وكان انفلات الناس من ربقة الدين ، ليتعمقوا فى العلم ، ويحصلوا الحرية ، وينعموا بالتقدم الحضارى

يقول المرحوم سيد قطب : « هنالك ثار المجددون المتنورون وعيل صبرهم ، وأصبحوا حرباً لرجال الدين ، وممثلى الكنيسة ، والمحافظين على القديم ، ومقتوا كل ما يتصل بهم ، ويعزى إليهم من عقيدة وثقافة وعلم

---

(١) فى ظلال القرآن جـ ١ ص ٨٨ دار الشروق .

(٢) المنجد مادة شاع (فى الأدب والعلوم) .

وأخلاق وآداب وعادوا الدين المسيحى أولاً ، والدين المطلق ثانياً ، واستحالت الحرب بين زعماء العلم والعقلية ، وزعماء الدين المسيحى ـ وبلفظ آخر الديانة البوليسية[1] ـ حرباً بين الدين والعلم مطلقاً

وقرر الثائرون أن العلم والدين ضرتان لا تتصالحان وأن العقل والنظام الدينى لا يجتمعان ، فمن استقبل أحدهما استدبر الآخر ، ومن آمن بالأول كفر بالثانى »[2] .

هكذا ضاقت النصرانية بالعلم ، وبادلها العلم هذا الضيق وأشد ، كما حقدت الشيوعية على الأديان واعتبرتها مخدراً للشعوب .

أما عقيدتنا فقد وسعت الدنيا والآخرة ، وزاوجت بين الدين والعلم ، وشملت نواحى الحياة المختلفة ، وتناولتها بالتنظيم والتنسيق ، ولم تضق قط ، ولن تضيق بشىء منها ، إلا ما كان خبيثاً ضاراً ، لا نفع فيه ، ولا فائدة ترجى من ورائه .

وثالثاً

إن الجهاد المقدس فى عقيدتنا فريضة ماضية إلى يوم الدين ، وأنه فرض لتأمين الدعاة ، ونشر الدعوة فى جو هادىء تغمره حرية الفكر وصراحة الاختيار ، وليس الجهاد فى الإسلام لإجبار الناس على اعتناق مبادئه ، ولا من أجل استعمار البلاد ، واستعباد أهلها ، ولا لتوسيع رقعة الأرض التى يعيش عليها ، واستغلال خيراتها

يقول رسول الله ﷺ : « ثلاث من أصل الإيمان الكف عمن قال لا إله إلا الله ، ولا نكفره بذنب ، ولا نخرجه من الإسلام بعمل ، والجهاد ماض منذ بعثنى الله إلى أن يقاتل آخر أمتى الدجال ، ولا يبطله جور جائر ولا عدل عادل ، والإيمان بالأقدار »[3]

وإننا لنرى فى تاريخ الإسلام أن بعض البلاد فتح عنوة ، وبعضها فتح صلحاً ، والفرق بين الاثنين أن الأولى وقفت فى وجه الدعاة والدعوة ،

(١) نسبة إلى بولس الذى حرف النصرانية التى جاء بها عيسى عليه السلام

(٢) المستقبل لهذا الدين ص ٥٢ .

(٣) رواه أبو داود .

ومنعت الناس من الاستماع إلى الدعاة ، ليفحصوا كلامهم ويفكروا فيه بعقولهم ، لتستقر معانيه فى قلوبهم ، مما اضطر المسلمين إلى قتال هؤلاء المعاندين ، وفتح بلادهم بالسيف

وأما الثانية فقد هادنت ولم تتمرد ، ولم تعق مسيرة الدعاة إلى الله ، فهادنها المسلمون ، وصالحوا أهلها

وفى كلا البلدين لم يجبر المسلمون أحداً على اعتناق الإسلام ، بل مهدوا الطريق ، وعرضوا الفكرة ، وتركوا الناس يختارون لأنفسهم ما يفضلون من العقيدة ، تحقيقاً لقوله تعالى ﴿ **لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى** ﴾[1] وقوله سبحانه ﴿ **وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** ﴾[2]

يقول الشوكانى فى تفسير الآية قل لهم يا محمد الحق من ربكم ؛ وبعد أن تقول لهم هذا القول ، من شاء أن يؤمن بالله ويصدقك فليؤمن ، ومن شاء أن يكفر ويكذبك فليكفر[3]

وهذه هى غاية الصراحة فى حرية الإنسان حين يختار لنفسه عقيدته بعد أن يبين له الحق ، وتوضح له معالمه

وتاريخ الإسلام ملىء بالشواهد التى تدل على أن الفتح الإسلامى لم يكن لإجبار الناس على تغيير عقائدهم ، ولا لاستغلال خيرات البلاد واستعباد أهلها ، فأبو عبيدة بن الجراح يأخذ الجزية من أهل حمص ليدافع عنهم ، ولما عجز عن الدفاع عن حمص ، وغلبه الروم عليها ، رد الجزية إلى أهلها ، قبل مغادرة البلاد

أفيكون هذا صنيع قوم فتحوا البلاد لاستغلال خيراتها واستعباد أهلها ؟ ولو كان المسلمون من هذا النوع لما ردوا مالاً حصلوه ، ولا استعملوا سياسة الأرض المحروقة على حد تعبير المحدثين ــ قبل مغادرة البلاد ، حتى لا يهنأ بها العدو المسترد لها

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٦

(٢) سورة الكهف الآية ٢٩

(٣) فتح القدير جـ ٣ ص ٣٨٢

فالجهاد إذن فى عقيدتنا لنشر الدعوة ، وتأمين الدعاة وتوضيح الحق ، وضمان الحرية لأولئك الذين يبحثون عن الحق وتعوقهم سياط الطغاة الجبارين

وأما القتال فى العقائد الأخرى فمن أجل القضاء على الأفكار المعادية ، واستغلال البلاد المفتوحة ، واستعباد أهلها ، وتسخيرهم لخدمة الغزاة ، وإجبارهم على اعتناق مبادئهم

وهذه بديهيات تملأ تاريخ المذهبين المتنافسين على امتلاك العالم ، والتسلط على أهله وخيراته ، ونظرة واحدة إلى خريطة أوربا قبل الحرب العالمية الأخيرة وبعدها توضح مدى التغيير المروع الذى أدخل على الخريطة بعد انتهاء الحرب ، فدول كانت تتمتع بحريتها استعبدت وخضعت لإحدى دول الحلفاء ، ودول كانت موحدة تمزقت فأصبحت دولتين أو دويلات ، ودول كانت رأسمالية ، فغلبت عليها روسيا ، فاتخذت رغم أنفها الشيوعية مذهباًوعقيدة ، ودول كانت شيوعية وقعت تحت النفوذ الرأسمالى فأرغمت على استبدال عقيدتها ، واعتنق أهلها عقيدة الفاتح المتسلط الجديد

تلك حقائق لا يستطيع أى إنسان مهما كان فصيحاً أن يجد من نفسه القدرة على تبريرها ، ولسنا فى حاجة إلى التدليل على ما نقول ، فشيوعه أعظم من أن يخفى على ذى بصر بالأمور ، مطلع على أحوال العالم

وتعتبر ألمانيا نموذجاً لذلك كله ، فقد كانت دولة واحدة فصارت دولتين إحداهما شرقية ، والأخرى غربية ، وكانت دولة حرة ، فأصبحت ترزخ تحت نير المعسكرين ، شرقيها تحت التسلط الشيوعى ، وغربيها تحت وطأة الرأسمالية

ولما حاولت النمسا فى عام ١٩٥٦ م الخروج من قبضة الدب الروسى ، استعملت روسيا ضدها أبشع أنواع المبيدات ، حتى كانت تقتلع البيوت من جذورها وتهدمها على رءوس أصحابها ، وعادت فى النهاية إلى المخالب الحمراء .

ولم تكن النمسا الدولة الوحيدة التى استعملت ضدها تلك الإجراءات ولو كان كذلك لاعتبرناها شذوذاً لا يعتد به ، ولكنها تكررت مع كل دولة

امتحنت بالاستعمار الروسى ، وأقربها منا اليوم ماجرى فى تشيكوسلوفاكيا[1] يوم ثار أبناؤها لاسترداد حريتهم ، عندئذ اقتحمت الدبابات الروسية بلادهم ، وفرض الجيش الروسى سيطرته على رقابهم ، وأحصى عليهم أنفاسهم وخطرات قلوبهم ، وعاد الشعب السلافى مرة أخرى تحت وطأة المبادىء التى ضاق بها ، وحاول الفرار من قبضتها

والذى يندى له الجبين ، وينفطر له القلب ، أن دولة واحدة من الدول التى تتشدق بالحرية ، وتملأ الدنيا صراخاً بالديمقراطية لم تتحرك لإنقاذ هذا الشعب الذى سئم العبودية ، ويئس من الرخاء الموهوم الذى تدعيه الشيوعية ، ذلك لأن المعسكرين متآمران على تلكم الشعوب التى فقدت بسبب الحرب حريتها وفقدت مع حريتها مناهجها ومبادئها

تلك هى أبرز الملامح التى تميز عقيدتنا عن العقائد الأخرى ، وتوضح أنها هى الجديرة بإسعاد البشرية ، وتحقيق حريتها الدينية والفكرية ، وحل مشكلاتها المستعصية على المفكرين .

٤ ــ الجماعة والعمل الجماعى

الجماعة فى الإسلام هى الأصل الذى يعمل المسلمون جاهدين لتحقيقه ، وليست عناية الإسلام بالفرد إلا ليكون لبنة صالحة فى الجماعة التى ستحمل عبء الدعوة من حيث نشرها والجهاد فى سبيل نصرتها ، وإقامة الدولة التى دعا الإسلام إلى تشييدها وتدعيم أركانها

لهذا كانت كل العبادات فى الإسلام جماعية ، أو داعية إلى تدعيم الجماعة ، كما أشرت إلى ذلك سابقاً

فالصلاة فى جماعة تفضل صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة ، وصلاة الجمعة لا تصح إلا فى جماعة

والصيام يدفع الأغنياء على العطف على الفقراء فيلتئم الشمل وتتحاب الجماعة .

والزكاة تؤخذ من الأغنياء ، وتعطى للفقراء ، فيتعاطف الجميع ، وتزول

(١) كذلك حصل فى بولندا فى الفترة الأخيرة .

الشحناء فتتدعم الجماعة

والحج فى مظهره ومخبره فريضة جماعية ، حيث يتساوى الجميع فى الزى ، والموقف ، مودعين الدنيا ، مقبلين على الله فتأتلف القلوب ، وتتحد المشاعر ، وتقوى رابطة الأخوة ، فتقوى بذلك الجماعة المسلمة

والجهاد يقف فيه المسلمون صفاً كأنهم بنيان مرصوص وهكذا جميع الفرائض والواجبات

وجوب العمل لإيجاد الجماعة المسلمة

والعمل لإيجاد الجماعة المسلمة فريضة واجبة على كل مسلم والعمل على تدعيمها وتقويتها أمر حتمى مطالب به كل مسلم ، ومسئول عنه بين يدى الله عز وجل

لهذا دعا الإسلام إلى التزام الجماعة ، ونهى عن مفارقتها عند وجودها ، حتى ولو جار الأئمة وظلموا

فالقرآن الكريم يأمر المسلمين بالتزام الجماعة ﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا** ﴾[1] ويطالبهم بإيجاد الجماعة المسلمة إذا لم تكن موجودة ﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر** ﴾[2]

ويحث على العمل الجماعى حتى فى طلب العلم ﴿ **فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون** ﴾[3]

وحتى فى الجهاد وقتال الأعداء : ﴿ **إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص** ﴾[4]

---

(١) آل عمران الآية ١٠٣
(٢) آل عمران الآية ١٠٤
(٣) التوبة ١٢٢
(٤) الصف ٤

والرسول ﷺ يدعو المسلمين إلى ما دعاهم إليه القرآن الكريم من قبل ، روى الإمام أحمد والترمذى عن الحارث الأشعرى أن رسول الله ﷺ قال « آمركم بخمس الجماعة ، والسمع ، والطاعة ، والهجرة ، والجهاد فى سبيل الله ، وإنه من خرج من الجماعة قيد شبر ، فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع »(١)

وعن عرفجة قال قال رسول الله ﷺ « من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد ، يريد أن يشق عصاكم ، أو يفرق جماعتكم ، فاقتلوه » (٢)

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « من خرج من الطاعة ، وفارق الجماعة فمات ، مات ميتة جاهلية »(٣)

وعن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركنى ، فقلت يا رسول الله ، إنا كنا فى جاهلية وشر ، فجاءنا الله بهذا الخير ، فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال نعم ، فقلت له هل بعد هذا الشر من خير ؟ قال نعم وفيه دخن ، قلت وما دخنه ؟ قال قوم يستنون بغير سنتى ، ويهتدون بغير هديى ، تعرف منهم وتنكر ، فقلت هل بعد هذا الخير من شر ؟ قال نعم ، دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها ، فقلت يا رسول الله ، صفهم لنا ، قال نعم ، هم قوم من جلدتنا ، ويتكلمون بألسنتنا ، قلت يا رسول الله ، ما ترى إن أدركنى ذلك ؟ قال تلزم جماعة المسلمين ، وإمامهم فقلت وإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام ، قال فاعتزل تلك الفرق كلها ، ولو أن تعض على أصل شجرة ، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك »(٤)

« مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو ، تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر »(٥)

---

(١) مسند الإمام أحمد وسنن الترمذى

(٢) صحيح مسلم .

(٣) صحيح مسلم .

(٤) صحيح مسلم .

(٥) صحيح مسلم .

وأم سلمة رضى الله عنها تحذر أهل العراق من المشايعة ومفارقة الجماعة فقد روى ثابت بن العجلان عنها أنها كتبت إلى أهل العراق ، تقول : « إن الله برىء ، وبرىء رسوله ، ممن شايع ، وفارق الجماعة ، فلا تشايعوا ولا تفارقوا ، والسلام عليكم ورحمة الله »[1]

هذه الأحاديث الشريفة وتلك الآيات الكريمة ، تدعو بوضوح لا خفاء فيه ، إلى الجماعة ، وتحث على الالتزام بها ، وتنهى عن التفرقة والتمزق ، وتبين أن التفرقة أعظم أسباب الوهن والفشل ، قال تعالى : ﴿ **ولا تنازعوا فتفشلوا ، وتذهب ريحكم** ﴾[2]

ولقد بلغ من اعتداد الإسلام بالجماعة ، واهتمامه بتدعيمها وتقويتها أن اعتبر المؤمنين الذين لم ينضموا إلى جماعة المسلمين فى منزلة أقل من منزلة الكافر المعاهد ، ولم يجعل لهم ولاية فى عنق الجماعة المؤمنة ، يقول تبارك وتعالى ﴿ **إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا ، وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق** ﴾[3]

يقول الشوكانى رحمه الله : « وإن استنصروكم ، أى هؤلاء الذين آمنوا ولم يهاجروا ، إذا طلبوا منكم النصرة لهم على المشركين ــ فعليكم النصر ــ فواجب عليكم النصر ، ــ إلا ــ أن يستنصروكم ــ على قوم بينكم وبينهم ميثاق ــ فلا تنصروهم ، ولا تنقضوا العهد الذى بينكم وبين أولئك القوم حتى تنقضى مدته »[4]

ويقول الشهيد سيد قطب رحمه الله « فأما الذين يملكون الهجرة ولم يهاجروا ، استمساكاً بمصالح أو قرابات مع المشركين ، فهؤلاء ليس بينهم وبين

---

(١) المطالب العالية تحقيق الدكتور الأعظمى .

(٢) الأنفال ٤٦

(٣) الأنفال ٧٢

(٤) فتح القدير تفسير الآية .

المجتمع المسلم ولاية ، كما كان الشأن فى جماعات من الأعراب أسلموا ، ولم يهاجروا لمثل هذه الملابسات وكذلك بعض أفراد فى مكة من القادرين على الهجرة

وهؤلاء وأولئك أوجب الله على المسلمين نصرهم — إن استنصروهم فى الدين خاصة — على شرط ألا يكون الاعتداء عليهم من قوم بينهم وبين المجتمع المسلم عهد ، لأن عهود المجتمع المسلم وخطته الحركية أولى بالرعاية »[1]

مقومات الجماعة المسلمة

مما سبق يتبين لنا أن الجماعة المسلمة لها مقومات أساسية ، ودعائم إيجابية ، لا يتحقق وجودها كجماعة إلا بها ، ولا يوجد المجتمع المسلم إلا بوجودها

١ — فهو مجتمع جماعى النزعة ، لا يعرف أفراده الانعزال أو الفردية ، ولا يستطيعون تحقيق حياة كريمة إلا فى ظل الجماعة المسلمة ، فالمسلمون أكفاء ، يجير بعضهم على بعض ، يسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم ، والمسلم للمسلم كاليدين تغسل إحداهماالأخرى ، والمسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضا

٢ — وهو مجتمع متحاب هين لين بعضه على بعض ، لا تعرف البغضاء إلى قلوب أفراده — ما داموا متمسكين بالإسلام — طريقاً ، فهو متحاب فى الله ، قريب من الله ، يحب اللهويحبه الله ، يبذل كل فرد فيه نفسه لإخوانه ، ويعزها على أعداء الله ﴿ **يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه ، فسوف يأتى الله بقوم ، يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين** ﴾[2]

٣ — وهو مجتمع الإيثار والتضحية ، ليس لأى فرد فيه ما يحتفظ به لنفسه دون إخوانه ، فماله له ولإخوانه ، وجهده له ولإخوانه ، وحياته له ولإخوانه

---

(١) فى ظلال القرآن تفسير الآية

(٢) المائدة ٥٤

الأنانية عنده أخس شيء يتصف به الإنسان ، والأثرة أبغض إليه من عدوه ، لأنها هى التى تمكن منه عدوه

قال تعالى ﴿ **والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة** ﴾[1]

وهل تتحقق المحبة والرفق واللين إلا بين أفراد مجتمع متماسك ؟ وهل يوجد الإيثار وتكون التضحية إلا لمجتمع مثالى حققت وجوده العناية الربانية ، وأرسى دعائمه وحى السماء ؟

أفيجوز لمسلم بعد ذلك أن يزعم أنه يستطيع القيام بما كلفه به الإسلام منعزلاً عن المجتمع ؟ وهل يجوز للفرد المسلم أن يعيش وحده ، ولا يتفاعل مع الجماعة المسلمة العاملة فى المكان الذى يعيش فيه ؟ وهل يقبل من مسلم أن يقوم بفرائض الإسلام وأركانه بعيداً عن مجتمعه ؟ ؟

ليس هذا من الإسلام فى شيء مهما زعم صاحبه أنه مسلم كما يزعم اليوم كثيرون

روى الإمام أحمد عن الحارث الأشعرى قال قال رسول الله ﷺ « آمركم بخمس بالجماعة ، والسمع ، والطاعة ، والهجرة ، والجهاد فى سبيل الله ، وإنه من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع ، ومن دعا بدعوى الجاهلية ، فهو من جثى جهنم ، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم[2]

وهل هناك دعوى إلى الجاهلية الآن أشد على المسلمين من تفريق جماعتهم ، وتمزق وحدتهم ؟

إن أولئك الذين يدعون المسلمين إلى الانعزالية ، ويحرضونهم على العمل الفردى ، ويحطمون جماعة المسلمين ، ويشيعون عنهم الأراجيف وينفرون منهم

---

(١) الحشر ٩

(٢) مسند الإمام أحمد

ذوى النيات الحسنة والصدور السليمة ، هم الذين يدعون بدعوى الجاهلية ﴿ **أولئك يدعون إلى النار ، والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه** ﴾[1]

فوائد العمل الجماعى

للعمل الجماعى آثار طيبة مباركة ، تعود على المجتمع بفوائد جليلة ، لأن العمل الجماعى يحيى فى المجتمع معانى سامية ، تشد أركانه ، وتقوى دعائمه ، وتربط بين أفراده برباط وثيق لا تنفصم عراه منها

١ – التعاون الذى حث عليه القرآن الكريم ﴿ **وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان** ﴾[2]

٢ – ومنها الأخوة التى أثنى عليها الله عز وجل فى كتابه العزيز ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾[3]

﴿ **واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا** ﴾[4]

٣ – ومنها الإيثار وهو تضحية الإنسان بمصالحه الخاصة ، ليحقق لغيره تلك المصلحة ، وهذا المعنى الجليل لا يتحقق إلا فى مجتمع مثالى ، تربط بين أفراده رابطة أقوى من روابط الدم وآصرة أوثق من أواصر الرحم ووشيجة أعظم من وشائج النسب ، تلك هى العقيدة التى طهرت العقول من الخرافات ، وخلصت النفوس من الوثنيات ، ووجهت الناس جميعاً وجهة واحدة ، يدينون بالوحدانية ، ويعبدون الله وحده بما شرعه على لسان نبيه

من أجل هذا أثنى الله تعالى على المؤمنين بقوله عز من قائل : ﴿ **والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم ، يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة** ﴾[5]

---

(١) البقرة ٢٢١
(٢) المائدة ٢
(٣) الحجرات ١٠
(٤) آل عمران ١٠٣
(٥) الحشر ٩

٤ — ومنها المحبة وهى الأساس الذى قام عليه المجتمع الإسلامى كما ألمعنا إلى ذلك من قبل ، ففى الآية السابقة ﴿ يحبون من هاجر إليهم ﴾ وفى آية أخرى **﴿ والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا ﴾**[١]

وهكذا كلما جاءت طائفة من المسلمين أحست بفضل من سبقها إلى هذا الدين ، وقدرت لهم هذا الجميل ، فكافأتهم عليه بهذاالدعاء الذى يفيض بأسمى معانى البر والمحبة والتقدير **﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ﴾**

بل هم يترفعون بقلوبهم أن يدنسها الغل على إخوانهم المؤمنين فيسألون الله أن يطهرها من هذا الوباء الذى يقوض أركان المجتمع ويأتى على قواعده **﴿ ولا تجعل فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا ﴾**

إن أرقى درجات المحبة فى الله تلك التى اتصف بها هذا المجتمع ، ونادى بها رسول الله ﷺ فى أكثر من مناسبة « وكونوا عباد الله إخواناً كما أمركم الله »[٢] « ما تحاب رجلان قط إلا كان أفضلهما أشدهما حباً لصاحبه »[٣] « أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم »[٤]

تلك الصفات الحميدة والخصال الجليلة ، إنما تكون ثمرة طبيعية للعمل الجماعى ، لأن العمل الجماعى يقتضى من كل فرد فى المجتمع أن يبذل أقصى جهده لخدمة مجتمعه ، فيمد يد العون لمن معه فيتحقق التعاون ، وببذل الجهد ومد يد العون تتحقق الأخوة ، ونتيجة حتمية لتحقق هذا المعنى يوجد الإيثار ، وتكون المحبة ، ويجنى المجتمع أطيب الثمرات ، ويعيش أبناؤه فى أمن وسلام .

---

(١) الحشر ١٠

(٢) صحيح مسلم

(٣) صحيح البخارى .

(٤) صحيح مسلم .

مضار العمل الفردى

بالعكس مما ذكرنا تكون ثمرات العمل الفردى فى المجتمع أياً كان ذلك المجتمع فجة مرة ، تحمل بين ثناياها تفتيت المجتمع ، وتفريق الجماعة ، فإذا هى نكدة عفنة ، تصيب المجتمع بالآفات والأضرار ، وتكون نتائجها ما يأتى

١ ــ التفرقة وهى داء عضال تصاب به المجتمعات ، فيضعف قوتها ، ويوهن عزيمتها ، ويجعلها لقمة سائغة لأعدائها ، ذلك لأن العمل الفردى لا يهتم بالتجميع ، ولا يعمل له ، يعيش فيه كل فرد لنفسه فقط ، لا يعبأ بجيرانه ولا يهمه أحوال أقرانه ، فمتى توفر للفرد ما يريد ، قنع به وإن لم يحصل عليه أحد من إخوانه

ولهذا نهى القرآن الكريم عن التفرقة ، يقول تعالى ﴿ **ولا تفرقوا** ﴾[١] ويقول ﴿ **ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم** ﴾[٢]

٢ ــ العداوة وهى نتيجة حتمية للتفرقة ، لأن الإنسان الذى لا يهمه إلا نفسه ، ولا يسعى إلا لمصلحته ، يحاول الحصول على هذه المصلحة ، ولو كانت ملك غيره ، ويصر على انتزاعها ولو من فم ولده ، عندئذ يكون التناحر حتماً مقضياً ، وتكون العداوة أمراً لا مفر منه ، وتصبح هى الأساس الذى يبنى عليه المجتمع حياته ، فتشتعل نارها ، ويصبح كل فرد ويمسى وهو ينفخ فى هذه النار لتزداد سعيرا

ولقد من الله على المؤمنين إذ أزال من قلوبهم العداوة واعتبر ذلك نعمة يستحق سبحانه الشكر عليها حيث قال ﴿ **واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمه إخوانا** ﴾[٣]

٣ ــ الأنانية وتلك ثالثة الأبساف ، وتصور مجتمعاً يقول فيه كل فرد : أنا وأنا فقط ، فهو لا يكتفى بأن يحصل حقه ، بل يسعى جاهداً للحصول على

---

(١) آل عمران ١٠٣
(٢) الأنفال ٤٦
(٣) آل عمران ١٠٣

حق غيره ، ويحرص على أن يحرمه منه ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، لأنه لا يرى بنظره القصير المحدودغير نفسه ، ولا يسمع بسمعه الكليل إلا نداء شيطانه ، ولا يحس بحواسه المتبلدة سوى مطالب جسده ، يرى أن كل خير فى الكون يجب أن يكون له وحده ، وكل شر فيها لا بد أن ينصرف عنه إلى غيره ﴿ **تلك إذاً قسمة ضيزى** ﴾[1]

٤ ــ ثم تكون البغضاء ، وماذا يجنى مجتمع التفرقة والعداوة والأنانية سوى البغضاء ؟ وماذا ينتظر هذا المجتمع غير التمزق والهوان ؟

إن التباغض والتناحر معولا هدم فى حياة الأمم التى يتصف أفرادها بهاتين الصفتين ، وإن المجتمع الذى يقول فيه كل فرد نفسى نفسى لهو مجتمع هان عليه الهوان ورضى لنفسه الذل ، ونزول البلاء ببعضه أحب إلى بعضه الآخر من أن تشمل العافية الجميع .

ذلك هو حصاد العمل الفردى ، وتلك هى نتائجه الوخيمة والإسلام ولا شك برىء منها ، لأنه يحاربها ، وينهى أتباعه عن الاتصاف بها ، ويحذرهم من الوقوع فيها

وهنا شىء يجب التنبيه عليه ، ويجب كذلك أخذه بعين الاعتبار ، ذلك هو أن الإنسان مدنى بطبعه ، اجتماعى بفطرته ، لا يمكنه مطلقاً ــ مهما حاول ــ أن يعيش وحيداً فريداً ، لأنه فى أبسط ضرورياته محتاج إلى غيره ، ولقد أدرك الإسلام هذه الحقيقة قبل أن يدركها علماء الاجتماع بمئات السنين ، إلا أن الإسلام دعم هذه الظاهرة بالأخوة التى أقامها بين بنى الإنسان جميعاً أسودهم وأبيضهم ، فالناس كلهم لآدم ، وآدم من تراب ، ولا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى إلا بالتقوى فلا مجال إذن لأن يعتزل إنسان أخاه ، ولا مجال لأن يفخر إنسان بحسبه ونسبه ، ولا أن يحتقر إنسان لضعة نسبه ، وقلة ذات يده ، ولقد ترجم الشاعر الإسلامى تلك الحقيقة حيث يقول

الناس من جهة التمثيل أكفاء   أبوهم آدم والأم حواء

---

(١) النجم ٢٢

فإن يكن لهم فى أصلهم شرف   يفاخرون به فالطين والماء

ومن أجل ذلك نجد الإسلام قد نجح فى توثيق الروابط بين الذين آمنو به ، ودخلوا تحت لوائه ، وكانت تلك الروابط أقوى على مواجهة المحن ، وأقدر على حل مشكلات المجتمع ، حتى شاهدت الدنيا ولأول مرة فى تاريخها الطويل أن الإسلام قد أقام مجتمعاً ظل فترة طويلة لم يحتج إلى قضاء يرجع إليه فى فصل خصوماته ،ولا إلى شرطة تحفظ أمنه ، وترعى حقوقه ، وتسهر على حراسة مقوماته

وأما علماء الاجتماع فقد حاولوا تدعيم تلك الظاهرة بأسباب مادية صرف ، فالإنسان مرتبط بالإنسان بتلك الأسباب المادية لأنه محتاج لمن يصنع له طعامه ويقدم له شرابه ، وهو كذلك بحاجة إلى من يصنع له ملابسه ومسكنه الذى يأوى إليه ، كما هو محتاج إلى من يؤدبه ويعلمه ، إلى غير ذلك ، وهو فى كل هذا أو جله محتاج إلى غيره ، ومن هنا — فى نظر — علماء الاجتماع نشأت علاقات الناس بعضهم ببعض

ونحن نرى فى هذه الروابط ضعفاً لا يقوى على مواجهة نوازع النفس البشرية ، ولا يقدر على حل ما ينشب بين بنى الإنسان من خلافات وخصومات ، ذلك لأن هذه الروابط ليست نابعة من نفس الإنسان برضى منه ورغبة ولكنه فى الحقيقة مجبر عليها ، فالحذاء والحائك ، والحجام والقصاب إلى غير ذلك من أصحاب الحرف ، لو سئل كل منهم عن رأيه فى حرفته ، لكانت الإجابة بالسخط وعدم الرضى ، ولولا أنه مضطر إلى ممارستها ليكسب قوته وقوت عياله لما باشرها

من هذا نعلم أن الإنسان لا يبذل المال للصانع أو للتاجر أو للعامل أو للمعلم لأنه أخوه ، أو لأنه محتاج إلى المال ، بل لأنه يقوم له بعمل ما مقابل هذا المال المبذول ، وبالتالى لا يعمل العامل ، ولا ينتج الصانع ، ولا يبيع التاجر ، ولا يؤدب المعلم لأن الناس أخوة له أو لأنهم محتاجون إلى ما يقدمه لهم ، بل ليحصل على المال مقابل ما يقوم به من عمل .

ولذلك نجد المجتمعات التى قامت على أساس هذه الروابط مجتمعات

حاقدة مبغضة ، ليست راضية ولا قانعة ، حتى أصبحت تلك المجتمعات مرتعاً خصباً للمبادىء الهدامة التى لا تنتشر إلا فى الظلام ولا تعيش إلا فى المستنقعات .

وبهذا نتبين الفرق هائلاً بين تفسير الإسلام لمعنى التعاون الحاصل بين الناس ، حيث يربطه بمعان روحية سامية ، ويقيمه على قواعد الأخوة الحاصلة بين بنى آدم أجمعين

ولقد فقه المسلمون فعلاً هذا المعنى وعاشوا فيه ، وإن موقف عثمان بن عفان رضى الله عنه من تجارته التى جلبت إلى المدينة المنورة فى عام قحط وشدة لأوضح شاهد على تأصل معنى الأخوة فى علاقات المسلمين بعضهم ببعض

حضرت هذه التجارة العظيمة والمسلمون فى حاجة ماسة إلى الطعام ، حيث كان العام عام جدب ومجاعة ، وحضر التجار يساومون عثمان رضى الله عنه فى ثمنها ، حتى بلغوا بها أضعاف قيمتها ، وعثمان يرفض ، ويصر على الرفض ، ولما سئل عن سبب رفضه قال : لقد بعتها إلى من زادنى عما أعطيتمونى بعتها إلى من اشتراها بعشر أمثالها ، وتصدق بها على المسلمين

ومن قبله عمر رضى الله عنه فى عام الرمادة ، وقد أجدب المسلمون وأجهدهم الجوع ، حتى أنهم لم يجدوا ورق الشجر ليأكلوه ، فأرسل عمر إلى ولاته يبعثون له بالأرزاق ، فلما أحضرت ، أخذ يعد الطعام بنفسه للمسلمين ، ولما قرقرت بطنه من الجوع ، ضرب عليها بيده ، وقال قرقرى أو لا تقرقرى ، فوالله لا تذوقين سمناً ولا عسلاً حتى يشبع المسلمون

على هذه المعانى السامية من الأخوة والشعور بالمسئولية ، بنى الإسلام قواعد المجتمع الذى قامت فيه دولته ، وعمت على أرضه حضارته ، ليست هناك مبررات لاستغلال الإنسان لأخيه الإنسان ، وليس هناك ما يدعوه لاستغلال حاجته لأن المبادىء السامية الرفيعة التى ركزها الإسلام فى نفوس الناس تأبى عليهم أن يكونوا محتكرين أو استغلاليين

لم تكن هذه المعاملة خاصة بالمسلمين ، بل امتدت إلى غيرهم ممن يعيشون فى كنفهم ، ويحتمون بدولتهم ، حتى أن عمر رضى الله عنه لما رأى يهودياً

أقعدته الشيخوخة وعجز عن العمل ، فراح يتكفف الناس يسألهم ويطرق أبوابهم قال : يا شيخ ما أنصفناك أخذنا منك الجزية قوياً وضيعناك ضعيفا ، وضرب له حصة من بيت مال المسلمين

وأما تفسير الماديين لهذا التعاون فمبنى على حاجة الإنسان إلى الإنسان ، وهم يقيمونه على قواعد الضرورة الملحة التى تسخر الإنسان لأخيه الإنسان

فالعلاقات قائمة بين إنسان ما — عندهم — وبين الصانع — مثلاً — ما دام الإنسان فى حاجة إلى الصانع ، فأنا أقدم له القماش ، وهو يقوم بحياكته ، حتى إذا أخذت ثوبى وأخذ أجرته ، انقطعت العلاقات التى بيننا حتى أحتاج إليه وهكذا ، فإذا وجدت العلاقة مستمرة بين التاجر والصانع بعد انقضاء حاجة كل منهما ، فلا بد أن يكون هناك علاقة غير علاقة الضرورة والحاجة الملحة ، فما هى إذن تلك العلاقة ؟

إنها علاقة الإنسان بالإنسان للمعنى السامى الذى دق على أفهام الماديين فلم يدركوه ، وخفى عن أذواقهم فلم يحسوه ، وذلكم هو المعنى الذى أقام عليه الإسلام مجتمعه ، بمعنى الأخوة والشعور بالمسئولية

ولهذا نلمح عتاباً رقيقاً لأبى بكر الصديق رضى الله عنه حين أقسم ألا ينفع مسطح بن أثاثة بنافعة أبدا ، وكان مسطح قد اشترك فى حديث الإفك ، وممن خاض فيه وكان أبو بكر رضى الله عنه من قبل ينفق على مسطح لفقره وحاجته فلما اشترك فى حديث الإفك أقسم ألا ينفق عليه ، فعاتبه الله تعالى بهذا العتاب الرقيق

إن علاقة الإنسان بالإنسان فى الإسلام ليست قائمة على أسس مادية ، فأبو بكر ينفق على مسطح ما دام ماشياً فى ركابه ، فإذا خرج عليه تنقطع النفقة ، وإنما العلاقات قائمة على أساس الأخوة ، والأخوة بين المسلمين قائمة لا تنقطع سواء ساءت العلاقات بين الرجلين أم لا ؟

ذلك لأن الأصل فى العلاقات بين المسلمين أن تكون حسنة ، فإذا ساءت فإنما ذلك لأمر طارىء يزول سوء العلاقات بزواله ، والأمور الطارئة يجب ألا تؤثر فى الأمور الثابتة المقررة

نعم إن مسطحاً أخطأ فى حق أبى بكر ، ولكن الخطيئة هفوة يمكن التوبة منها والإقلاع عنها ، فهى إذن لا يمكن أن تكون أساساً للعلاقات بين الناس ، ولهذا ذكر الله عز وجل أبا بكر رضى الله عنه بأن كل الناس يخطئون ، ويتوبون ، فيتوب الله عليهم ، ويعفو عنهم ، فما لكم لا تعاملون بعضكم بهذا الخلق الفاضل ؟

يقول سبحانه : ﴿ **ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله ، وليعفوا وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ؟ والله غفور رحيم** ﴾[1]

إن العلاقات بين بعض أفراد المجتمع المسلم أوشكت أن تنقطع ، لخوض مسطح فى عرض أبى بكر ، وأوشكت النزعة البشرية أن تتغلب فى هذا الموقف الحرج ، ولكن القرآن الكريم الذى بنى علاقات هذا المجتمع ، ووضع أسسها القويمة ، يرد هذه النزعة فى لطف يعيد إلى النفوس صفاءها ، ويرد إلى القلوب طهارتها وإلى الصدور سلامتها ، فيذكرها أن الخطيئة من طبيعة الإنسان وأن العفو والصفح من الشيم الفاضلة التى يعامل الله سبحانه بها عباده المخطئين ، ثم يوجه إليهم هذا السؤال التقريرى ﴿ **ألا تحبون أن يغفر الله لكم** ﴾ ؟ ؟

حينئذ يعمل هذا العتاب الرقيق عمله فى نفس الصديق ، ويؤتى ثمرته ، ويحرك وجدانه الخير ، فيترفع عن أن يعامل مسطحاً بمثل ما عامله به ، بل ينسى للناس جميعاً خوضهم فى عرضه ، وثلبهم لشرفه ، وتتجاوب نفسه المؤمنة التى تربت فى مدرسة النبوة الفاضلة ، ويجيب بلى ، والله إنى لأحب أن يغفر الله لى ، ويرضى عن مسطح ، ويعيد إليه نفقته ، ويحلف والله لا أنزعها منه أبدا

وهكذا تعود العلاقات بين أفراد المجتمع فى خطها الذى رسمه لها الإسلام ، محبة ووئاماً ، وصفاء وسلاما ، ذلك لأن الإسلام يرفض أن تعيش جماعته ممزقة الشمل ، مقطعة الأوصال ، يعيش كل فرد منها فى عزلة عن الآخرين

---

(١) النور ٢٢

لا بد للفرد المسلم من جماعة يعيش بينها

ولما كان الإسلام يهتم بتربية الفرد المسلم ، ويعنى بذلك عناية فائقة ــ لأنه اللبنة التى يتكون منها هذا البناء الشامخ ــ كان لا بد أن يعيش هذا الفرد فى جماعة ، تحتضنه ، وتعطف عليه ، وتهيىء له وسائل التربية السليمة ، وإلى هذا المعنى يشير الحديث الشريف « المؤمن مرآة أخيه »[1]

فإن مفهومه يدل على أن الفرد وحده منعزلاً عن الجماعة لا يبصر عيوبه ، ولا يعرف محاسنه ، فإذا كان الإنسان جاهلاً بنفسه ، فكيف يقومها ، ويعمل على تهذيبها ؟

ذلك لأنه إن أساء لا يدرى عن إساءته ، وإن أحسن لا يسمع من يشجعه حتى يستمر فى إحسانه ، فإذا كان فى مجتمع متناصح متفاهم ، يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ــ وتلك هى أهم صفات الجماعة المسلمة ــ وجد فى كل فرد من أفراد المجتمع مرآة صادقة ، لا تجامل ، ولا تخدع ، يرى فيها عيوبه ، كما يبصر من خلالها محاسنه

وما أروع هذا التعبير الدقيق « المؤمن مرآة المؤمن » فكما أن المرآة لا تخفى شيئاً عن الناظر فيها ، كذلك المؤمن لا يجوز له أن يسكت عن عيب يراه فى أخيه ، وكما أن المرآة لا تنقل ما يظهر فيها إلى غير الناظر إليها ، فكذلك المؤمن لا يجوز له أن ينقل عيب أخيه إلى غيره ، وبهذا الفهم الدقيق تظهر روعة التصوير ، وبراعة التشبيه

ولهذا تكون الجماعة ضرورية لتربية الفرد ، واستكمال نقصه بحيث لا يستطيع أن يعيش عيشة راضية إلا فى الجماعة التى تحرص عليه ، وتسعى جاهدة لتخليصه من العيوب والمساوىء ، ولهذا ورد فى الحديث « خير الأصحاب صاحب إذا ذكرت الله أعانك ، وإذا نسيت ذكرك »[2]

فالجماعة المسلمة تنتشل الفرد من الضلال ، وتأخذ بيده إلى الهدى ،

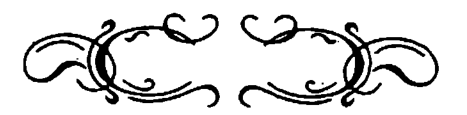
---

(١) رواه أبو داود .

(٢) رواه ابن أبى الدنيا .

وتحيطه برعايتها فلا يزيغ ، وتدفع عنه معاول الهدم والتخريب ، وتحبب إليه الخير ، وتدفعه إلى فعله ، وتبغض إليه الشر ، وتصرفه عنه

والفرد المسلم لا يعيش إلا فى جماعة ، فإذا خرج عنها كان كالسمكة خرجت من الماء تموت ، وإذا انعــزل عن إخوانــه كان كالشاة شذت عن القطيــع ليفترسها الذئب وهذا هو المعنى الذى يصوره الحديث الشريف « عليكم بالجماعة ، فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية ، يد الله مع الجماعة ومن شذ شذ فى النار »[1]



---

(١) رواه الترمذى .

الفصل الثالث

القيـــــــــــادة .

١ - حقوقهـــــــــــا .

٢ - واجباتهـــــــــا .

القيـــادة

ونعنى بالقيادة كل من يتولى شيئاً من أمور المسلمين العامة فالخليفة وعماله ، وقواد الجيش والقضاة ، ورؤساء الشرطة والوزراء ، وغيرهم ممن يقومون بأعمال عامة فى الدولة الإسلامية هم المعنيون بكلمة القيادة

وهم بما خولهم الله من سلطة ، وبما أعطاهم المسلمون من ثقة عليهم من العبء أكثر مما على غيرهم من المسلمين ، وهم للدولة الإسلامية كالقلب للإنسان ، إذا صلحوا صلحت الأمة وإذا فسدوا كان القضاء الذى لا قيامه بعده ، حتى يعودوا إلى شرع الله .

ولقد فرض الله عز وجل على القيادة واجبات لا يجوز التفريط فى شىء منها ، وجعل لها حقوقاً لا يجوز للمسلمين أن يهملوها أو يقصروا فى أدائها

لهذا كان لزاماً على القيادة أن تقوم بدورها ، وكان كذلك واجباً على الرعية أن تؤدى لها حقوقها ، فإذا أهملت القيادة أو قصرت الرعية ، اختلت موازين الدولة ، وتعرضت بذلك للضعف المؤدى إلى الضياع والهوان ، وآذنت بالانتهاء والزوال

ولا خير فى قيادة لا تطالب بحقها ، ولا تؤدى واجبها ، كما لا رجاء فى رعية تنعم بجهد قادتها ، وتقصر فى إعطائها حقوقها ، ولكى تستقيم الأمور ، وتعمر الدولة ، وتبقى قوية عزيزة مرهوبة لا بد أن يقوم كل فرد فيها بالدور المنوط به ، عندئذ تجرى الأمور ، فى مجاريها الطبيعية ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله

واجبات القيـــادة

إن واجبات القيادة الإسلامية نابعة من الوحى الإلهى الذى أوحاه الله إلى نبيه محمد ﷺ ومن أجل هذا كان لزاماً على القيادة أن تتقيد بها ، وليس لها الحق فى ترك شىء منها ، أو التخلى عنها ، أو استبدال شىء منها بشىء آخر إلا أن يكون فيه مصلحة أعظم للمسلمين ، وتلك قاعدة شرعية ، قال بها

جمهور غفير من علماء المسلمين .

وتتلخص واجبات القيادة فيما يأتى

١ ــ تنفيذ الشريعة .
٢ ــ نشر الدعــوة
٣ــ القضاء على الطواغيت .
٤ ــ إعداد الجيش لإعلاء كلمة الله .

أولاً تنفيذ الشريعة

إن تنفيذ الشريعة ، وتطبيق حكم الله فى الأرض ، هو أول واجبات القيادة وأعظم مهماتها ، ذلك لأن الله عز وجل إنما أمر بتنصيب الخليفة ، وأن الأمة إنما أعطته ثقتها ، ليكون قائماً على أمر الله ، حارساً لشريعته منفذاً لأحكامها ، فإذا لم يؤد مهمته فلا خير فى وجوده وإذا لم يقم بواجبه فلا داعى لتنصيبه

والشريعة الإسلامية كل لا يتجزأ ، فلا يقبل فيها أداء العبادةوترك القيادة ، ولا يجوز معها إقامة الدين وإهمال الدولة ، ولا يصح فى نظامها التزام النصح والإرشاد وعدم الاهتمام بالجهاد ، والتفريط فى شىء منها قل أو جل يعتبر إعراضاً عنها ككل

فعلى القيادة مراعاة ذلك ، فلا تقبل من مسلم ترك شىء من أركان الشريعة مهما كانت حجته أو رأيه فى التأويل ، ولقد قاتل أبو بكر رضى الله عنه مانعى الزكاة وكان لهم فى ذلك تأويل ، ولم يقبل التفريق بين الصلاة والزكاة ، كما قاتل مسيلمة والأسود وسجاح لارتدادهم عن الإسلام ، ولم يفرق فى الحرب بين هؤلاء وأولئك .

وإنما فعل ذلك رضى الله عنه لأنه وهو أفهم المسلمين للإسلام بعد رسول الله ﷺ موقن بأن ترك شىء من الإسلام كترك الإسلام كله ، فالمفرط فى إقامة الصلاة كالمفرط فى إقامة الحد ، ومانع الزكاة كالمرتد .

كذلك يجب أن تراعى القيادة عند التنفيذ شمول الإسلام وعمومه ،

فلا تتهاون فى تطبيق نظمه على الحياة وواقع الناس فالنظام الاقتصادى والاجتماعى والسياسى والعسكرى كلها أجزاء من الإسلام يكمل بعضها بعضا ، ولا يمكن ترك شيء منها واستبدال غيره به من النظم الوضعية ، والتهاون فى تطبيق شيء منها خروج على النظام الإسلامى ، واعتقاد أن النظم الوضعية أو شيئاً منها أتم وأكمل من النظم الإسلامية كفر يخرج صاحبه من الملة .

وإعلان أن الحاكمية لله جل وعلا من أعظم ما يجب مراعاته عند تنفيذ الشريعة ، فالحكومة الإسلامية لا تحكم بغير حكم الله ، ولا تنفذ غير شرع الله ، ولا تدين بدستور غير كتاب الله قال تعالى : ﴿ **إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه** ﴾[1] وقال : ﴿ **وأن احكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك** ﴾[2]

وقال : ﴿ **إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ، ولا تكن للخائنين خصيما** ﴾[3]

وإقامة العدل بين الناس جميعاً عند تنفيذ الشريعة من أهم مقاصدها ، فالله عز وجل قد حرم الظلم على عباده كما حرمه على نفسه سبحانه روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى ، وجعلته بينكم محرماً ، فلا تظالموا »[4] وقال عز من قائل ﴿ **وما أنا بظلام للعبيد** ﴾[5]

وحيث كان الظلم حراماً فى الشريعة الإسلامية يكون العدل واجباً لا محيد عنه ، قال تعالى : ﴿ **وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل** ﴾[6] والتعبير بكلمة الناس هنا ليشمل الأمر الناس كل الناس المسلم منهم وغير المسلم ذلك لأن العدل فى نفسه مقصود فى الشريعة الإسلامية دون تفريق بين أتباعها

---

(١) سورة يوسف ٤٠
(٢) المائدة ٤٦
(٣) النساء ١٠٥
(٤) رواه مسلم .
(٥) سورة ق الآية ١٩
(٦) النساء ٥٨

وغيرهم من البشر

والآية الكريمة التى ذكرتها سابقاً ﴿ **إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما** ﴾ إنما نزلت لتبرىء ساحة يهودى اتهم — زوراً — بالسرقة وأشارت إلى السارق الحقيقى ، وهو مسلم من بنى ظفر أفبعد هذه المثالية الرائعة فى إقامة العدل ، وتحقيق الحق ، يدعى مدع أن الإسلام يتوخى العدل بين أتباعه فقط ؟

وتأمين الناس على عقيدتهم وعلى أموالهم وأنفسهم وأعراضهم من مهمة الحكومة الإسلامية ، فإنه من حق كل فرد يعيش فى كنف الإسلام ، ويستظل بظل دولته أن يكون آمناً على كل ما ذكرنا ، لا يتعرض له أحد ، فى شىء منها إلا بحقها ، وقد بين الإسلام هذا الحق وحدده ، فلا يجوز تجاوزه

والشريعة الإسلامية قد أعلنت الأمان للناس جميعاً ورسول الله ﷺ يبلغ عن ربه هذا الإعلان فى خطبة حجة الوداع ، بصورة لا تحتمل الشك ولا التأويل ، فيقول « أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد »

وكان عمر رضى الله عنه يكره ترويع الناس وإخافتهم فقد روى أنه تنحنح والحجام يقص له شعره ، فذهل الحجام عن نفسه ، وكاد يغشى عليه ، فأمر له بأربعين درهماً(١)

وكأن عمر رضى الله عنه أراد تعويض الرجل عما أصابه حتى تهدأ نفسه ، ويسترد أنفاسه

وقد روى عنه أيضاً أنه كان يكتب إلى عماله «لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ، ولا تحبسوهم فتروعوهم »

وقد أباح الإسلام للإنسان أن يدافع عن ماله وعرضه إذا حصل اعتداء على شىء منها ، واعتبر الموت فى حال الدفاع عنها شهادة ، وضمن الأمن

---

(١) عبقرية عمر ص ٢٠ للعقاد .

والأجر لمن ينتصر فى المعركة

يقول ﷺ : « من قتل دون ماله فهو شهيد ومن قتل دون أهله فهو شهيد »[1]

هكذا يجب أن يعيش الناس فى ظل الإسلام آمنين على كل ما يهمهم ، مطمئنين على أموالهم وأعراضهم ، ومن أجل هذا وضع الله عز وجل الحدود عقوبة لكل من يحاول الاعتداء على شيء منها

فشارب الخمر يجلد لأنه اعتدى على عقله فغيبه وأضعفه والإسلام بهذا يؤكد أن العقل البشرى ليس ملكاً لصاحبه يتصرف فيه كما يشاء ، وإنما هو بما ينتجه يجب أن يكون فى خدمة المجتمع الذى يحيطه برعايته

والسارق تقطع يده ، لأنه اعتدى على مال الناس وسلبهم حقوقهم

والقاتل يقتل ، لأنه سلب إنساناً حياته من غير ذنب جناه

والزانى يجلد إن كان عزباً ، ويرجم إن كان متزوجاً ، لأنه هتك أعراض الناس واعتدى عليها

ففى إقامة الحدود تنفيذ للشريعة يأمن به الناس على ما يملكون

وبالجملة فإن تنفيذ الشريعة ، يجب أن يكون عملاً تطبيقياً ، لا فكراً نظرياً ، يعيشه الناس فى المجتمع الإسلامى واقعاً ينعمون به ، لا فلسفة يتطلعون إليها

ولهذا فإن الله عز وجل وصف الذين يعرضون عن تنفيذ الشريعة بأخس الصفات وأبشعها ، حيث وصفهم بالكفر مرة ، وبالظلم مرة ثانية ، وبالفسق مرة ثالثة ، فقال جل شأنه

﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾
﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾
﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾[2]

---

(١) رواه أحمد فى مسنده وأبو داود فى سننه .

(٢) سورة المائدة الآيات ٤٤ — ٤٥ — ٤٧

ثانياً : نشــر الدعـوة

إن نشر الدعوة من أهم واجبات القيادة الرشيدة ، وإن الله عز وجل لم يرسل الرسل ، ولم ينزل الكتب إلا لتكون حجة على الناس ، ولقد روى لنا التاريخ أن الجيوش الإسلامية قد ضربت فى شرق الأرض وغربها وشمالها وجنوبها تحمل للناس الخير ، وتدلهم على الرشد وتزيل من طريقهم الطواغيت التى تعوقهم عن الوصول إلى هدى الله ، ومعرفة الحق والوصول إليه

وإن مما يدل على ذلك ، ويوضح أن نشر الدعوة من أهم واجبات القيادة ، أن رسول الله ﷺ لم يكد يستقر به المقام فى المدينة المنورة بعد صلح الحديبية ، حتى كتب إلى الحكام فى أقطارهم المختلفة يدعوهم إلى الله ، ويرغبهم فى الدخول فى الإسلام ، ويبشرهم بالسلامة من عذاب الدنيا والآخرة إن أسلموا ، فإن هم أصروا على كفرهم ، فإنهم سيبوءون بإثمهم وإثم أممهم

ولقد كتب رسول الله إلى قيصر ملك الروم ، وإلى المقوقس صاحب مصر وإلى النجاشى ملك الحبشة ، كما كتب إلى كسرى ملك الفرس .

وكانت كل كتبه ﷺ دعوة إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ، وإنا لنلاحظ أنه ﷺ كان يكتب إلى كل ملك بما يناسب حاله ووضعه ، ونظرة إلى كتبه تبين لنا مدى فهمه ﷺ لأحوال هؤلاء الملوك ، ومعرفته بالأسلوب الصالح لكل منهم

فإذا كتب إلى كسرى يشدد اللهجة وينذره بالويل وتحمل الإثم إذا أصر وأعرض فيقول له « من محمد رسول الله ، إلى كسرى عظيم الفرس ، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله ، وأدعوك بدعاية الله عز وجل فإنى رسول الله إلى الناس كافة ، لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ، أسلم تسلم ، فإن توليت فإن إثم المجوس عليك »[1]

ذلك لأن كسرى يعتقد أنه وارث الحق الملكى المقدس عن أجداده وسليل الملوك لا يذعن بسهولة ، ولأنه كان مجوسى المذهب لا يدين بدين سماوى فكان هذا الأسلوب أليق به من غيره .

---

(١) تاريخ الإسلام جـ ١ ص ١٦٠ ط ٨ حسن إبراهيم .

ونراه ﷺ إذا كتب إلى النجاشى ألان له الكلام وذكره بصفات الله عز وجل التى وردت عنه فى الإنجيل وأشار له إلى نبوة عيسى وطهر مريم ، كل ذلك ليستميل قلبه للإسلام ، فقد كان النجاشى رجلاً نصرانياً يؤمن بالإنجيل ، ويعترف بمكانة عيسى وأمه مريم عليهما السلام فيقول له : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله ، إلى النجاشى الأصحم ملك الحبشة ، سلام الله عليك فإنى أحمد إليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ، ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى ، فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم ونفخه ، وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته ، وأن تتبعنى ، وتؤمن بالذى جاءنى ، فإنى رسول الله ، وقد بعثت إليك ابن عمى جعفراً ومعه نفر من المسلمين ، فإذا جاءوك فأقرهم ، ودع التجبر ، فإنى أدعوك وجنودك إلى الله ، فقد بلغت ونصحت فأقبلوا نصحى ، والسلام على من اتبع الهدى »[1]

وهكذا نجد الأسلوب يتراوح بين الترغيب والترهيب ، تقديراً لموقف النجاشى ، وحثا له على الدخول فى الإسلام ، وحماية المسلمين الذين يفدون إليه .

ومن هذا العرض نتبين السياسة الرشيدة التى كان يسير عليها رسول الله ﷺ فى معاملة الناس ودعوتهم إلى الله ، والأسلوب الحكيم الذى يتبعه فى نشر الدعوة والتبشير بها

فلما جاء الخلفاء الراشدون نهجوا نهج القائد العظيم ﷺ فكان رائدهم نشر الدعوة فى كل الأصقاع والأزمان ، وكانوا يوصون قواد الجيوش التى يبعثونها بتقوى الله فى السر والعلن ، ويطلبون منهم عرض الإسلام أولاً على من يذهبون إليهم ، فإن أجابوا كفوا عنهم ولم يحاربوهم ، فإن أبوا طالبوهم بالجزية ، فإن رفضوا فهم هم الطواغيت يجب إزالتهم من طريق الحق حتى يتضح للناس وعندئذ لا مفر من الحرب فهى الوسيلة الوحيدة لإزالة الطغيان وتأمين الطريق للباحثين عن الحق

---

(١) نفس المرجع والصفحة

وحتى مع الناس جميعاً كان ﷺ يدعوهم إلى الإسلام فقد أرسل بعد فتح مكة الرسل والسرايا يدعو الناس إلى الدين من غير قتال ولا سفك دماء .

يقول الأستاذ هيكل : « وأقام محمد بمكة خمسة عشر يوماً ينظم خلالها شئون مكة ، ويفقه أهلها فى الدين ، وفى هذه الأثناء بعث السرايا للدعوة إلى الإسلام لا للقتال ، ولتحطيم الأصنام من غير سفك دماء »(1)

فلما تولى أبو بكر رضى الله عنه وكان المرتدون قد تمردوا ، وأعلنوا خروجهم على الإسلام ، كان الخليفة يرسل الجيوش لتدعوهم إلى الإسلام فإن لبوا تركوا وشأنهم وإن أصروا على الكفر قاتلوهم حتى يفيئوا إلى الإسلام .

يقول الأستاذ العقاد « وفى عهد أبى بكر رضى الله عنه وجه خالداً إلى بعض أهل الردة يدعوهم إلى أحكام الإسلام أو يقاتلهم حتى يثوبوا إليه »(2) .

وفى عهد عمر رضى الله عنه والمعركة دائرة بين المسلمين والفرس ، وفى حملة القادسية بالذات ، يرسل القائد — سعد بن أبى وقاص — رسلاً إلى يزدجرد ، وكان بينهم النعمان بن مقرن رضى الله عنه وأخذ النعمان يتكلم عن أصحابه ويوجه الكلام إلى يزدجرد ملك الفرس

يقول ابن الأثير « فتكلم النعمان عن أصحابه ، فقال إنَّ الله رحمنا فأرسل إلينا رسولاً يأمرنا بالخير ، وينهانا عن الشر ، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة . إلى أن قال : فنحن ندعوكم إلى ديننا ، وهو دين حسّن الحسن ، وقبّح القبيح كله ، فإن أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه — الجزية — فإن أبيتم فالمناجزة »(3)

ومن هذه الأمثلة يتضح لنا أن مهمة الخلفاء الأساسية هى نشر الدعوة وإدخال الناس فى الإسلام ، فإن أجابوا كان لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما عليهم ، فإن أبوا طولبوا بالجزية ، فإن أجابوا حقنوا دماءهم وعصموا أموالهم ، وإن رفضوا فليس هناك إلا الحرب ، وآخر الدواء الكى .

(1) حياة محمد ص ٤٢٦ لهيكل .

(2) عبقرية عمر ص ١٨٠ للعقاد .

(3) الكامل لابن الأثير جـ ٢ ص ٣١٥

وفى عهد عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه دخل الناس فى دين الله أفواجا ، وشكا إليه عماله قلة الدخل بسبب إسلام الناس ، وعدم دفع الجزية ، فأرسل عمر إليهم بكلمته المأثورة « إن الله أرسل محمداً ﷺ داعياً إلى الإسلام ولم يرسله جابياً »[1]

إن هذه الكلمة مع بساطتها تحمل الحقيقة الكبرى التى يحملها كثير من الناس ، وتبين الغاية العظمى لتلك الرسالة الإنسانية السامية ، ألا وهى : دعوة الناس إلى الخير ، والأخذ بأيديهم إلى الحق ، لتكون كلمة الله هى العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى .

إن نشر الإسلام ، وتبليغه للناس هو الغاية التى من أجلها أرسل الله عز وجل رسوله محمداً ﷺ وهو التطبيق العملى للآية الكريمة ﴿ **هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون** ﴾[2]

بل هو اللحن العذب الموحى به الهتاف الربانى الكريم ﴿ **ياأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا** ﴾[3]

كيف ننشر الدعـوة ؟

ويجب على القيادة أن تتبع فى نشر الدعوة كل أسلوب يوصل إلى تلك الغاية ، ويحقق المطلوب فى النهاية ، وعلينا أن نعتمد الأساليب الحديثة التى استغلها أعداء الإسلام فى بث عقائدهم ونشر أفكارهم ، وتتلخص هذه الوسائل فيما يأتى :

أولاً وسائل الأعلام :

وهى بكافة أنواعها أسلوب جيد إذا أحسن استغلاله ، فالصحف

---

(١) الخراج لأبى يوسف ص ١٣١
(٢) الصف ٢
(٣) الأحزاب ٤٥ ــ ٤٦

اليومية ، والمجلات الأسبوعية أو الشهرية ، والنشرات الدورية ، والإذاعة والتلفزيون ، كل هذه وسائل هامة ومفيدة فى نشر الدعوة .

وعلى القيادة أن تستغل الكفاءات والمواهب ، فى استعمال هذه الوسائل ، وعليها أن تدرب وتمرن إذا لم يكن لديها كفاءات وعليها أن تهتم بالتخصص ، فتبعث من كل فرقة طائفة تتقن فناً من فنون الإعلام ــ ولو إلى بلاد الأعداء ــ فالحكمة ضالة المؤمن ، وهو أحق بها أنى وجدها

وعلى هؤلاء المتخصصين دراسة ميول الناس ورغباتهم وأن يعرفوا الأساليب التى تؤثر فيهم ، وتجذبهم إلى ما يدعونهم إليه ، فهناك القصة ولها أثرها الواضح فى نفس السامع والقارىء ، وهناك التمثيليات الهادفة التى تبعث فى النفوس الطموح ، وتثير فيها حب الجهاد فى سبيل الله ، وفى تاريخنا مادة دسمة لهذه الموضوعات

وهناك الحوار المثير الذى يحفز النفوس إلى الاستزادة ويدفعها إلى معرفة الحق ، وهناك المقالات التى تتغلغل فى النفس البشرية ، وتحرك بين جوانبها الإيمان بفضل ما تحمله بين طياتها من خير ورشد وهداية

فنحن إذا قدمنا للناس هذه الألوان من الأساليب ، وهى تحمل بين أحضانها ما تدعوهم إليه من العقيدة الصحيحة ، والإيمان العميق ، والأخلاق الفاضلة ، والمثل الحية ، والآداب والتقاليد التى نعتز بها ، نكون قد ولجنا إلى قلوبهم من حيث يجب أن نلج ، ونكون بذلك قد قدمنا لهؤلاء المولعين بهذه الأساليب عوضاً عما يلهثون وراءه من هذه التفاهات التى استولت على عقولهم فأضلتها عن الحق ، والخرافات التى استحوذت على قلوبهم فانحرفت بها عن جادة الصواب ، والملهيات التى سيطرت على نفوسهم فأعرضت عن الرشد ، ومالت إلى الغى

وآنئذ نستطيع أن نقول أميطوا عنا هذا الأذى وهاكم العوض ماثلاً بين أيديكم ، وآنئذ تنبهر أنفاس المخادعين ولا يلحقون بنا ، وتتقطع السبل دون المضللين فلا يصلون إلى ما يقصدون

ثانياً الكتب والبحوث

ويستحسن أن تكون بأسلوب سهل ممتع ، يفهمه عامة الناس وخاصتهم ، وتتناول هذه الكتب وتلك البحوث الأفكار الإسلامية الصحيحة ، وفى مقدمتها العقيدة التى هى أساس الإيمان ، كما تتناول النظم التى جاء بها رسول الله ﷺ إلى الدنيا ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وتعرض المشكلات التى دوخت الناس وتقدم لهم الحلول فى ضوء الإسلام

وتركز على المفاهيم التى حاول أعداء الإسلام إبعادنا عنها على أنها ليست من الإسلام ، وهى فى الحقيقة من صميم الإسلام .

وذلك مثل سياسة الحكم ، وتنظيم الشئون المالية ، وتأسيس المصارف ، وإعداد الجيوش ، وتنظيم الأحوال الاجتماعية وتدعيم الأمن ، وإنشاء المصانع ، وكفالة العاطلين ، والتأمين الصحى ، إلى غير ذلك مما أوهمنا أعداؤنا أنه من السياسة وليس من الدين .

ويفضل أن تعرض هذه الأفكار ونظيراتها فى كتيبات يسهل حملها ، كما تسهل قراءتها ، كل فكرة أو نظرية أو بحث فى كتيب على حده ، وتتسلسل فى ربط قوى ، وجاذبية مؤثرة ، بحيث لا ينتهى القارىء من كتيب حتى يجد نفسه مشدوداً إلى قراءة ما يليه .

وقد اخترت أن نقدم الأفكار فى كتيبات لأن الناس لم يعد لديهم طاقات بحمل الكتب الضخمة ، ولأن المشاغل الكثيرة صرفتهم عن مطالعة البحوث المطولة ، حاشا العلماء الباحثين وأصحاب الرسالات والمفكرين ، فهؤلاء تؤلف لهم المطولات التى تشبع رغبتهم ، والتى تتناول كل دقيقة وجليلة بالشرح والتفصيل ونرجع كل كلمة فيها إلى مصادرها الأصيلة ، ومنابعها العميقة ذلك لأن عقولهم لا يقنعها السرد السريع ، ولا ترضى بالعرض السطحى ، وثقافتهم وإيمانهم لا يشبعها إلا الفكرة الناضجة والبحوث العميقة .

وثالثاً الدعاة

الدعاة هم الأشخاص الذين يحملون الدعوة إلى الناس بأعمالهم قبل أقوالهم ، وبسلوكهم وحسن سيرتهم قبل خطبهم ومحاضراتهم ، ولهذا كان الاهتمام بتربية الدعاة وتدريبهم واختيارهم أمراً لا بد منه

فالدعاة هم القدوة التى ينظر إليها الناس ويتطلعون إلى خلقهم ومعاملاتهم على أنهم المثل الذى يحتذى ، والأسوة التى لا يرضون بها بديلا ، ولهذا كان رسول الله ﷺ يختار الدعاة ويرسل منهم إلى كل جهة ما يناسبها ، وما تحتاج إليه منهم .

فقد أرسل مصعب بن عمير إلى المدينة المنورة ليعلم أهلها الدين ، ويحفظهم القرآن الكريم ، وأرسل معاذ بن جبل إلى اليمن ليقوم بنفس المهمة ، وإذا بحثنا هذا الاختيار وجدناه موفقاً كل التوفيق ، فمصعب فى هذه الفترة هو أنسب الدعاة إلى أهل المدينة فقد كانوا فى حاجة إلى من يقرئهم القرآن ، وهو فتى جلد يتحمل معهم ما يتحملون ، كذلك كان معاذ مع أهل اليمن ، حيث كانوا فقهاء يعجبهم عمق الإيمان والتقوى والورع ، وكانت هذه الصفات متوفرة فى معاذ رضى الله عنه

كذلك كان عمر رضى الله عنه يختار الدعاة ، ثم يرسلهم لينشروا الإسلام ، ويفقهوا الناس ، فقد أرسل إلى الكوفة عبد الله بن مسعود فاجتمع حوله الناس ، يفقههم ، ويؤدبهم بآداب القرآن ، حتى قال فيهم سعيد بن جبير رحمه الله « كان أصحاب عبد الله سرج هذه القرية »[1]

ولما احتاج أهل الشام إلى من يفقههم ، ويعلمهم القرآن ، أرسل يزيد بن أبى سفيان إلى عمر بن الخطاب يقول له : « قد احتاج أهل الشام إلى من يعلمهم القرآن ويفقههم ، فأرسل معاذاً وعبادة وأبا الدرداء »[2]

وهكذا كانوا يختارون الدعاة ، وينتقونهم انتقاء ، وأما فى العصر

---

(١) فجر الإسلام ص ١٨٤

(٢) البخارى فى التاريخ .

الحاضر ، وقد أصبحت الدعوة فناً يحتاج إلى دراسة وخبرات ، وأصبح الدعاة فى حاجة إلى دراسة أساليب الأعداء ، ليستعملوها ضدهم ، وليتجنبوا خطرها فى أصحابهم .

وحيث أصبح الدعاة يبنون عملهم على أسس علمية مدروسة تبحث نفسيات الناس ، وأوضاعهم الاجتماعية ، وأحوالهم الشخصية ، ثم يرسمون الخطط ، ويبدأون فى التنفيذ .

فهناك المدارس التبشيرية ومناهجها التى وضعت على أسس نفسية لتخرج الناس من دينهم ، وهناك الدعايات الحزبية التى تعتمد الإغراء وتتوخى اللعب بعقول السذج والبسطاء ، وهناك المستشفيات لمعالجة المرضى ، واستغلال أوضاعهم النفسية القلقة والإيعاز إليهم بما يغريهم بالدخول فى دينهم أو مبادئهم إلى غير ذلك من الأساليب

لهذا كان لزاماً أن يتسلح دعاتنا بكل هذه الأسلحة ، فيدرسون ما يدعون إليه دراسة علمية صحيحة ، ويستعملون سبل الإقناع المدعمة بالأدلة العلمية المدروسة

ونحن نتفوق على غيرنا ببساطة الأفكار التى ندعو إليها حيث لا فلسفة ولا تعقيد ، ولا تنويه ولا تثليث ، كما نتفوق بوضوح الدين الذى ندعو إليه ، والاله الذى ندين له وشعور الناس بحاجتهم إلى ما ندعوهم إليه ، واطمئنان النفوس إلى المصير الذى نتطلع إليه فى ظل دعوتنا ، وراحة القلوب من الهموم التى استولت على الناس فأزعجتهم

لهذا فإننا لسنا فى حاجة إلى استغلال الأوضاع النفسية ، أو الظروف الاقتصادية لمن ندعوهم ، بل نحن نقدم لهم المعونة لتتحسن أوضاعهم النفسية ، وتزول ظروفهم الاقتصادية ثم ندعوهم وهم فى كامل صحتهم وأنسب ظروفهم ، عندئذ يفهمون الحق ، ويدخلون فى دين الله ، ويستجيبون لداعى الله

مجالات العمل

ومجالات العمل لدى الدعاة تنحصر ــ على تعددها ــ فى أمرين هامين ، هما الأساس الذى يجب أن ينشط فيه الدعاة ، ذانكم هما : الاتصالات الفردية ، والندوات والمحاضرات العامة

وهما مجالان من أخصب الحقول للعمل الإسلامى ، حيث تكون النتائج ــ فى معظم الأحيان ــ مضمونة والفائدة حاصلة .

أ ــ الاتصالات الفردية

حين يقوم الدعاة بعد اتصالات ، وإنشاء صداقات بينهم وبين أفراد يتوسمون فيهم الخير ، ويلمحون منهم الميل إليه والرغبة فيه ، عندئذ تبدأ مهمة الداعية ، وليس كل إنسان يصلح لهذا النوع من العمل ، بل لا بد من توفر صفات فى الدعاة الذين يقومون بتلك المهمة

فالشخصية المؤثرة المحبوبة ، والخلق الكريم الفاضل ، وسعة الاطلاع التى تجعل المدعوين يقرون بفضل الداعى ، ورحابة الصدر التى يستوعب بها كل العقبات ، ويتغلب بها على كل ما يعترضه ، وحسن الحديث الذى يذعن له المستمعون ، وبشاشة الوجه التى يستحوذ بها على الجالسين ، والمجاملات اللطيفة التى يستولى بها على قلوب من يتصل بهم ، كل هذه وأمثالها صفات يجب أن يتحلى بها الداعية ، فإنه على أساسها يستحدث الصداقات ، ويقوى العلاقات ، وحينئذ ينتهز المناسبات لعرض الدعوة ، وإظهار محاسنها ، ويؤكد على الأدلة التى تثبت صحة ما يقول

عندئذ تتحول الصداقة إلى محبة ، والمحبة إلى أخوة ، ثم يتحقق الغرض المطلوب

ب ــ المحاضرات والندوات

والدعاة هنا يجب أن يذهبوا إلى الأماكن العامة ،.وينتهزوا فرص اللقاءات

والاجتماعات ، وأن يرتبوا هم لإيجاد هذه الاجتماعات ليلتقوا فيها بالناس ، ويعرضوا عليهم أفكارهم ومبادئهم فى صورة محاضرات أو ندوات ، وليس كل إنسان يستطيع القيام بهذه المهمة ، بل هناك شروط وصفات لا بد من تحققها ، منها ما هو فى موضوع المحاضرة ، ومنها ما هو فى الداعية نفسه

فأما التى فى الموضوع فتتلخص فيما يأتى :

١ — يجب أن يكون الموضوع متناولاً للمشكلات التى يعانى منها الناس فى المجتمع الذى يعيشون فيه ، وتقدم حلولاً لها فى ضوء الإسلام

٢ — أن يكون الموضوع مشتملاً على مسائل يجب أن يعرفها المسلمون كتوضيح النظم الإسلامية المختلفة ، وإظهار أن فى تطبيقها سعادة للبشرية

٣ — أن يكون فى الموضوع مقارنات بين النظم الإسلامية وغيرها من النظم القائمة

٤ — أن تشتمل على ما يظهر فضل الإسلام، وحرصه على تحقيق الخير للناس أجمعين

٥ — إظهار الحضارة التى وضع أساسها القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة ، وإبراز القواعد الإنسانية السامية التى قامت على تلك الحضارة التى سعدت بها الإنسانية فترة من الزمان إلى غير ذلك من الموضوعات الهامة

وأما التى فى الداعية فتتلخص فيما يأتى :

١ — أن يكون نموذجاً لما يدعو إليه مطبقاً له فى سلوكه وخلقه ومعاملاته ، متخلقاً بأخلاق القرآن فى كل ما يدعو إليه

٢ — أن يهتم بمظهره الإسلامى العام ، فلا يبدو مخالفاً لسنة مشهورة ، أو متخلفاً عن خير يدعو الناس إليه

٣ — أن يتمسك بالإسلام كنظام شامل لجميع نواحى الحياة كما يتمسك به كعقيدة صحيحة ، وشريعة محكمة

٤ — أن يحترم عقول الناس وأوقاتهم ، فيعد الموضوعات التى يحاضر فيها

إعداداً وافياً ، ويدعمها بالأمثلة المقنعة ، والأدلة العقلية القاطعة ، مبرهناً على ما يقول بما حدث فعلاً فى الفترة التى كانت فيها للإسلام دولة قائمة ، وحكومة مسيطرة

ولا يتكلم فيما لا فائدة منه ، ولا يدخل فى مناقشات لا يترتب عليها عمل مثمر ، ولا يتناول موضوعات تافهة لا ترفع من مستوى الناس ، ولا موضوعات فلسفية تضرب فى متاهات لا يعرف العقل منها مخرجا

٥ ــ أن يتحرى الأسلوب السهل الممتع الذى يستفيد منه البسطاء ولا يمله العلماء ، وأن يراوح فيه بين الفكاهة المرحة ، والجد الحاسم ، كما يراوح فى المعانى بين الترغيب والترهيب ، وأن يتناول الحقائق العلمية ، ببساطة فى الأسلوب ، وخفة فى الألفاظ حتى تتقبلها النفوس ، ولا تنفر منها العقول .

وهكذا يكون الداعية قد أدى الدور الذى فى عنقه لدعوته وأخلى نفسه من المسئولية بين يدى الله عز وجل .

ثالثاً القضاء على الطواغيت

الطواغيت جمع طاغوت وهو مشتق من الطغيان الذى هو تجاوز الحد ، فالشيطان الذى يصرف الناس عن الخير طاغوت والصديق الذى يلهى صديقه عن الحق طاغوت ، والزوجة التى تحول بين زوجها والدعوة إلى الله طاغوت ، والمال الذى يورث صاحبه غطرسة وكبراً يصرفانه عن الرشد طاغوت ، والحاكم الذى يشرع للناس ليصرفهم عن شرع الله ، أو يخوفهم فلا يتمكنون من عبادة الله ، أو يحجر على أفكارهم وعقولهم حتى لا يروا إلا ما يرى ، ولا يفعلوا إلا ما يهوى طاغوت

يقول الشوكانى فى تفسير الآية الكريمة ﴿ **فمن يكفر بالطاغوت** ﴾[1] : الطاغوت الأصنام أو الشيطان أو كل رأس فى الضلال[2]

ويقول البيضاوى : الطاغوت كل ما يعبد من دون الله أو يصد عن عبادة الله[3] .

---

(١) سورة البقرة ٢٥٦

(٢) فتح القدير .

(٣) تفسير البيضاوى .

فالطاغوت إذن هو كل ما يصرف الناس عن الله عز وجل أو عن الحق الذى دعاهم إليه سبحانه على لسان رسوله ﷺ وإذا كان الأمر كذلك ، كان من أوجب واجبات القيادة الإسلامية القضاء على هذه الطواغيت لتذلل للناس الطرق الموصلة إلى الله ليهتدوا إلى الحق الذى دعاهم إليه ، ولتحقيق هذه الغاية السامية ، حذرنا سبحانه وتعالى من الشيطان ﴿ **إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا** ﴾[1] وخوفنا من مصادقة إخوان السوء ﴿ **الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين** ﴾[2] كذلك حذرنا من الزوجة غير الصالحة ﴿ **يأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم** ﴾[3] ونبهنا إلى خطورة فتنة الأولاد والمال ﴿ **إنما أموالكم وأولادكم فتنة** ﴾[4]

ثم أعلن الحرب على الحكام الطغاة الذين يشرعون للناس ويصدونهم عن الطاعة ، ويحولون بينهم وبين الحرية التى ينشدونها ، ليبحثوا بعقولهم عن الحق الذى فقدوه ﴿ **فقاتلوا أئمة الكفر ، إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون** ﴾[5]

إن مهمة الحكومة الإسلامية هى تبليغ الحق للناس ، وتمهيد الطريق للعقول كى تفكر وتقتنع بهذا الحق ، فإذا كانت هناك عقبة وجب عليها إزالة هذه العقبة ، والقضاء عليها ، حتى تتهيأ للعقول فرصة التفكير الحر فى ظل هذه الظروف ، وعندئذ تتاح لها فرصة الاختيار بعيدة عن الضغط والتهديد ، فإن عرفت الحق واهتدت إليه كان بها ، وإن ضلت الطريق ، عرضت بين يديها الأدلة المقنعة ، والبراهين القاطعة ، فإن أصرت على الباطل فإما الجزية وإما الحرب

ولا يختلف اثنان فى أن الطغاة عقبة كأداء فى سبيل الحرية — حرية الفكر الإنسانى — ذلك لأن حرصهم على دست الحكم يدفعهم إلى تكميم الأفواه حتى لا تتكلم ، وتعطيل العقول حتى لا تفكر ، والحجر عليها لكى تعيش فى الظلام ، والحيلولة بينها وبين الحق لتظل هائمة فى الباطل

---

(١) سورة فاطر ٦

(٢) سورة الزخرف ٧٦

(٣) التغابن ١٤

(٤) سورة التغابن ١٥

(٥) التــوبة ١٢

وكثيراً ما يلبس هؤلاء الطغاة لشعوبهم مسوح الرهبان ، ويبكون بدموع التماسيح ، مدعين أن الرسل والدعاة إلى الحق قوم مخربون يريدون القضاء على ما ينعم به الناس من الحرية والعدالة ليحلوا محلها المبادىء الزائفة الهدامة .

هكذا يوسوس الطغاة لشعوبهم الضحية حتى يصرفوهم عن الحق الذى يدعوهم إليه المصلحون ، والآية الكريمة تصور لنا مشهداً طريفاً من هذا النوع من الخداع والتضليل .

هذا فرعون يقف فى قومه الذين غلبهم على عقولهم ، وأقنعهم بسخافته ــ ربوبيته ــ يناشدهم أن يتركوه ليقتل موسى ، لأنه جاءهم بيدع لم يعرفوه ، وفرعون يخشى أن يبدل موسى دين القوم ، ويظهر فى الأرض الفساد ﴿ **وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه ، إنى أخاف أن يبدل دينكم ، أو أن يظهر فى الأرض الفساد** ﴾(١)

إن هؤلاء الطغاة يرمون غيرهم بأدوائهم ، ويتهمون المصلحين بما فعلوه هم فى شعوبهم ، هؤلاء الطغاة يقفون فى وجه الحق دائماً لأنهم يعلمون أنه السلاح الذى يقضى على باطلهم ، ويحطم طغيانهم ، ويحرر المستعبدين من جبروتهم ويضىء الطريق للناس ، ليروا الحق ، ويعيشوا فى النور ، وينعموا بالحرية ــ حرية العقيدة والقول والعمل ــ ويتمتعوا بالعدالة ــ عدالة السماء ــ ومن أجل هذا كان الطغاة فى كل زمان ومكان أعداء للحق ، وكان الحق حيثما كان خصماً للطغاة .

لهذا كان لزاماً على القيادة الإسلامية القضاء على الطغاة المتجبرين ، الذين يصدون عن سبيل الله ، ويمنعون الناس من الدخول فى دين الله ، ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله ، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين** ﴾(٢)

ولا شك أن الناس ــ إلا القليل ــ يرهبون السلطة أكثر مما يرهبون الحق ، ويخافون من السلطان أشد مما يخافون من الله ، ولهذا كان لا بد من وجود سلطة تحرس الحق من عدوان الطغاة ، وكان لا بد من وجود سلطان

(١) سورة غافر ٢٦

(٢) سورة البقرة ١٩٣

يحمل الناس على الخوف من الله عز وجل وبذلك تستقيم أمور الناس ، وتستقر الأوضاع فى الأرض على وجهها القويم

والحق عندنا هو الإسلام ، ﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال ﴾[1] والسلطة هى الحكومة الرشيدة القائمة على أمر الله ، والسلطان هو الحاكم المسلم المنفذ لأحكام الله ، القائم بالعدل والقسط بين الناس جميعاً على السواء .

ولا يمكن أن يكون ذلك وفى الأرض حكام طغاة ظالمون يعبدون الناس لجبروتهم ، ويرهبونهم بظلمهم وطغيانهم فلا بد إذن من إقامة العدل والقضاء على الطغيان ، وتلك مهمة القيادة الرشيدة .

رابعاً :- إعداد الجيش

إن إعداد الجيوش للقيام بالمهام الخطيرة الملقاة على عاتقها أمر حيوى بالنسبة لكل دولة أياً كانت تلك الدولة ، لأنه يحتاج إلى الاهتمام بالنواحى المختلفة المكونة لكل فرد من الجنود ، ولأن الإهمال فى أى جانب منها يؤدى إلى خلل فى أكبر ركن تعتمد عليه الدول فى حماية مبادئها ومقدساتها

ولما كان الجيش هو الحصن الذى تتقى به الأمم أعداءها والسهم الذى ترمى به نحر من يعتدى عليها ، كان لا بد من تدعيم الحصن بكل ما يحتاج إليه ، وكان لا بد كذلك من إراشة السهم حتى يصيب حيث يسدد .

وإعداد الجيوش يحتاج إلى العناية الفائقة بكل معنويات الجيش ، كما يحتاج إلى العناية بتقوية أجسام الجنود وعقولهم وهذا يقتضى وضع برنامج تربوى للجيش الإسلامى ، يعتنى فيه بالجانب الروحى بقدر عنايته بالجانب الجسمى ، ويهتم فيه بالجانب الأخلاقى بقدر اهتمامه بالتدريب العسكرى .

ولقد اضطلعت القيادة الإسلامية بهذه المهمة الخطيرة ووصلت فيها إلى الغاية التى تتطلع إليها القيادات المثالية فكان لها جيش لم تعرف الدنيا له نظيراً فى الشجاعة والتضحية والبسالة والإقدام .

ولقد كان للظروف التى نشأ فيها الجيش الإسلامى أثر كبير فى تكوين

---

(١) سورة يونس ٣٢

هذا الجيش ، كما كان للعناية الفائقة ، والتربية النادرة التي حرصت القيادة الإسلامية على توفيرها له ، دخل كبير في تفوق هذا الجيش على أقرانه من جيوش الأمم التي عاصرته مع تفوقها عليه في العدد والعدد ، وتوفر الإمكانيات وفرص التدريب .

إن الإسلام الذي أرسل الله عز وجل به رسله ،وختمهم بمحمد صلى الله وسلم عليه وعليهم أجمعين حرص على نشر الحق بين الناس كما حرص على هدايتهم ، وتوصيل الخير لهم ، ولما كانت الدنيا ميدان تنافس بين قوى الحق والباطل وحلبة صراع بين الخير والشر كان لا بد من وجود قوة تحمي الحق وتنشره بين الناس ، وتقدم الخير لبني الإنسان ، وتحميهم من اعتداء المعتدين ، وكانت هذه القوة هي الجيش

من أجل هذا فرض الله الجهاد على القادرين من المسلمين فريضة ماضية إلى يوم القيامة ، وكان فرض الجهاد على المسلمين هو المرسوم الأول بتكوين الجيش الإسلامي في ظل القيادة الإسلامية الرشيدة .

عاش المسلمون في مكة المكرمة ثلاثة عشر عاماً ، وهم عاكفون على دينهم يتلقونه من رسول الله ﷺ غضاً جديداً ، يزكون به أنفسهم ، ويحيون بنوره قلوبهم ، فكانوا يجتمعون حول رسول الله ، في دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي ، يعون كل كلمة تخرج من فم الرسول ، وينفذون كل أمر يصدر منه

ولم يكد ﷺ يصدع بدعوته تنفيذاً لأمر الله ﴿ **فاصدع بما تؤمر ، وأعرض عن المشركين** ﴾[1] حتى عمت مكة موجة من السخط المتصاعد ، تفتقت عنه قلوب ضاقت بالرسالة ، فلم تستطع كتمانه ، وزاحت تصب جام غضبها على المسلمين ، وبخاصة المستضعفين منهم .

وسجل المسلمون صوراً من البطولة تضيق عن حصرها صفحات الكتب ، وتعجز عن توضيحها بلاغة الأدباء ، وأقلام الفصحاء .

وأخذ المسلمون يستبسلون في الموقف من جانبين هامين :

---

(١) سورة الحجر ٩٤

الأول : الصمود فى وجه الطغيان ، والترفع عن الانحناء أمام الطواغيت

والثانى : الثبات على العقيدة ، وعدم الحيدة عنها مهما اشتدت قسوة العذاب ، وزادت مرارته

فهذا بلال بن رباح رضى الله عنه يعرى من ثيابه ، ويسحب فى حر الظهيرة على بطحاء مكة ، وتحمل الحجارة الضخمة وتوضع على صدره ليرجع عن دينه ، فلم يزده ذلك إلا إيماناً وتثبيتا ، ويردد قولته المشهورة : أحد أحد .

وهذا ياسر أبو عمار رضى الله عنه يكوى بالنار ، وتغرز أسياخ الحديد فى لحمه حتى تنطفىء ، ويصب على رأسه الماء الحار فلا يصرفه ذلك عن دينه

ثم يأتى دور سمية أول شهيدة فى الاسلام ، تعذب مع زوجها وابنها ، ثم تشد إلى فرسين ، يوجه أحدهما إلى جهة والآخر إلى جهة مختلفة ، فتشطر شطرين ، وتودع الحياة ثابتة على عقيدتها مستعلية على الكفر ، ساخرة من الكافرين .

وصبر المسلمون على هذا الأذى صبراً تجاوز الطاقة البشرية وتحملوا من العذاب ما لا تتحمله الرواس ، والمشركون يتمادون فى غيهم ، ولا يقلعون عن طغيانهم .

وذهب الصحابة إلى رسول الله ﷺ يستأذنونه فى مواجهة الكفار ، فيرد عليهم بقوله : « اصبروا فإنى لم أؤمر بقتال »[1]

أحس المسلمون بكفاءتهم لصد العدوان ، وهم وإن كانوا لا يزالون قلة فى عددهم إلا أنهم يجدون فى إيمانهم ما يعوضهم عن كثرة أعدائهم ، وقلة عددهم .

ودخل أسد الله حمزة بن عبد المطلب فى الإسلام ، وأعقبه عمر بن الخطاب رضى الله عنهما وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون حوله من بيت الأرقم يمشون فى صفين متجهين إلى المسجد الشريف بين تكبير وتهليل ، ومنذئذ بدأ التحدى بين أولياء الله وأولياء الشيطان .

---

(١) فتح القدير جـ ٣ ص ٤٥٦

مشـروعية الجهـاد

لم يكن القتال شيئاً جديداً على العرب ، فقد كانوا غارقين فيه إلى آذانهم ، وكانوا يشنونه لأتفه الأسباب وأحقرها ، وكانت غارات السلب والنهب لا تنقطع إلا بالقدر الذى يستجم فيه المتقاتلون ليستأنفوا القتال .

استغل الإسلام هذا الميل الذى طبع عليه العرب ولكنه لم يتركه لأهوائهم ، بل تناوله بالتهذيب والتنظيم ، شأنه فى ذلك شأنه فى العادات التى أقرها عند العرب

لقد وضع الإسلام للقتال قواعد ثابتة لا يجوز لمسلم مهما كان أن يتعداها ، فحرم الحرب من أجل السلب والنهب ، واعتبرها اعتداء لا يليق بقوم ذوى عقيدة صحيحة ، ومبادىء سامية ، قال تعالى : ﴿ **ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين** ﴾[1]

ومنع الحرب من أجل العداوات الشخصية ، والمثارات والعصبية والقومية ، واعتبرها قرينة للكفر ، قال ــ ﷺ ــ : « لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض »[2]

ثم شرع الحرب من أجل دفع الظلم وصد العدوان ، قال ــ تعالى ــ : ﴿ **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير** ﴾[3]

وشرعها لتحطيم الطاغوت الذى يحول بين الناس وبين اعتناق مايريدون من العقائد الصحيحة ، والدخول فى الاسلام ، قال ــ تعالى ــ ﴿ **وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ، واعلموا أن الله مع المتقين** ﴾[4]

وبهذا يتقرر أن الجهاد فى الاسلام له خطة واضحة ، ومنهاج قويم ، كما يتضح أن الجهاد ليس دفاعيا فقط ، كما يزعم كثير من الناس ، بل هو هجومى

---

(١) سورة البقرة ١٩٠
(٢) رواه مسلم جـ ١ ص ٥٨
(٣) سورة الحج ٣٩
(٤) سورة التوبة ٣٦

أيضا ، يبدأ به المسلمون من ظلمهم أو اعتدى عليهم ، كما يبدأون به من صد الناس عن دين الله ، ومنعهم من الدخول فيه .

ولقد قام المسلمون بالجهاد ، وأدوا هذه الفريضة على كل حال سواء كانت في حالة الدفاع كما في غزوتى أحد والخندق أو في حالة الهجوم كما في غزوة بدر وغزو الفرس والروم حيث اعتدى أهل مكة ، على المسلمين فعذبوهم واستحلوا أموالهم وتجاراتهم ، ووقف الأكاسرة — ملوك الفرس — والقياصرة — ملوك الروم — يرهبون الناس بسلطانهم ، ويصدونهم عن الدخول فى الاسلام ، أو حتى عن التفكير فيه .

وعندئذ جرد المسلمون الجيوش ، وسيروها إلى هؤلاء الطواغيت ليحطموا كبرياءهم ، ويزيلوا هذه العقبة من طريق الناس ، واستطاعت الجيوش الإسلامية أن تحقق للناس الأمن ، وتزيل عنهم هذا الكابوس ، فانساب الإسلام إلى قلوبهم ، كما ينساب الماء إلى الأرض الميتة فأعاد إليهم إنسانيتهم التى فقدوها تحت وطأة الطغيان وحقق لهم حريتهم التى حرموها تحت نير الظلم ، وقد كانوا — لولا الإسلام — دمى لا عقول لهم ، وعبيداً لا يتحركون إلا حيث يشير سيدهم ، ولا يؤمنون إلا بما يؤمن به رؤساؤهم .

لهذا شرع الله عز وجل الجهاد ، وجعله فريضة ماضية إلى يوم القيامة ، قام بها الجيش الإسلامى خير قيام فحرر الناس من عبودية الناس ، وأطلقهم من طغيان الجبابرة ، فرأوا النور بعد أن حرموه ، فهرعوا إلى الإسلام تحت حراسة الجيش الإسلامى ، وعاشوا آمنين على عقيدتهم فى رعايته .

كيف نكون الجيش الإسلامى ؟

لقد فرض الله الجهاد على هذه الأمة ، ولم يخص به قوماً دون قوم ، ولا فئة دون فئة ، وحتى الذين استثناهم من وجوب الجهاد عليهم ، لم يمنع من جواز اشتراكهم فى القتال إذا هم رغبوا فى ذلك ، وإنما منحهم حق القعود بلا إثم ولا جريرة .

أخرج البخارى عن يزيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ أملى عليه :

لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله ، فجاء ابن أم مكتوم وهو يمليها علىَّ فقال يا رسول الله ، لو أستطيع الجهاد لجاهدت — وكان أعمى — فأنزل الله على رسوله ﷺ وفخذه على فخذى ﴿ غير أولى الضرر ﴾[1]

فكان نسق الآية بعد ذلك ﴿ **لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله** ﴾[2]

ثم نزلت الآية الأخرى فبينت أولى الضرر المعذورين فى الجهاد فقال تعالى : ﴿ **ليس على الأعمى حرج ، ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج** ﴾[3] وبهذا أصبح المعذورون هم : الأعمى والأعرج والمريض ، فإذا قعد هؤلاء عن الجهاد فلا إثم عليهم .

ومن مضمون الآية نفهم أن كل أفراد الأمة غير المعذورين جنود فى الجيش الإسلامى ، مكلفون بالخروج معه إذا غزا أو خرج لصد العدو

وإذا أراد أحد المعذورين الاشتراك فى الجهاد فللقائد أن يقبل منه أو يرده ، مقدراً فى ذلك ظروف المسلمين ، ومصلحة الجيش ففى غزوة أحد جاء عمرو بن الجموح رضى الله عنه وكان رجلاً كبير السن شديد العرج ، وله أربعة أولاد كلهم يجاهدون فى سبيل الله ، فلما أراد الخروج منعه أولاده ، وقالوا : نحن نكفيك ، فذهب عمرو إلى رسول الله وأخبره الخبر ، وقال : ائذن لى يا رسول الله ، فإنى أرجو أن أطأ بعرجتى هذه الجنة ، فأذن له ﷺ واستشهد رضى الله عنه فى تلك الغزوة ، وقال ﷺ : « رحم الله عمرو ابن الجموح ، لقد رأيته يطأ بعرجته الجنة »[4]

وعلى هذا يكون الجهاد فريضة على الأمة الإسلامية كلها بالقدر الذى يطيقه كل فرد منهم ، ما عدا هؤلاء المعذورين فالجهاد مباح فى حقهم وليس فرضاً عليهم .

---

(١) صحيح البخارى جـ ٦ ص ٤٥

(٢) سورة النساء ٩٥ .

(٣) سورة الفتح ١٧

(٤) السيرة الحلبية جـ ٢ ص ٢٥٥ بتصرف .

أ ـ دور الشباب

لقد كان للشباب دور مهم وفعال فى تكوين الجيش الإسلامى ، والشباب هم عمد الجيوش ودعائمها ، وعلى أكتافهم يقوم العمل الجاد المثمر فى الحرب والسلم ، فلا غرو أن يتكون الجيش الإسلامى من الشباب فى الدرجة الأولى ، وكان من الطبيعى أن يكون الشباب هم الأغلبية الساحقة فى هذا الجيش الفتى

فمصعب بن عمير رضى الله عنه كان لا يزال فتى يوم صرع فى غزوة أحد ، وسعد بن أبى وقاص كان يناهز الثلاثين يوم قال له رسول الله ﷺ ارم فداك أبى وأمى ، وعلى بن أبى طالب ، كان لا يتخطى ذلك إلا قليلا يوم تحدى مرحباً فى خيبر ، وغيرهم وغيرهم من الشباب الذين حملوا العبء الأعظم فى الجيش

وهذان ابنا عفراء ــ معاذ ومعوذ ــ شابان حدثان يثبتان جدارة فى الحرب ، وشجاعة نادرة يوم النزال ، وكانا يوم بدر من ألمع المحاربين روى البخارى عن عبد الرحمن بن عوف قال « إنى لفي الصف يوم بدر إذا التفت فإذا عن يمينى وعن يسارى فتيان حديثا السن ، فكأنى لم آمن بمكانهما ، إذ قال لى أحدهما سرا من صاحبه يا عم أرنى أبا جهل ، فقلت : يا ابن أخى ، وما تصنع به ؟ قال : عاهدت الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه ، فقال لى الآخر سرا من صاحبه مثله قال فما سرنى أنى بين رجلين مكانهما ، فأشرت لهما إليه ، فشدا عليه مثل الصقرين حتى ضرباه ، وهما ابنا عفراء »[1]

هكذا جيش الإسلام الشباب ، وخلق منهم رجالاً أكفاء لكل ما ينتدبهم له ، وهكذا كان الشباب فى الجيش الإسلامى لا تهولهم المعارك ، ولا تخيفهم الدماء ، يتنافسون الخيرات ويتسابقون إلى جنة عرضها الأرض والسماوات ، وميادين الجهاد فى سبيل الله أفسح مجالاً لإدراك ما عند الله من النعيم

---

(١) صحيح البخارى جـ ٧ ص ٣٠٧

ب ــ دور الصبيــان

لم يكن التنافس على الموت مقتصراً على الشباب ، ولعل للشباب حين يتنافس على الموت تبريراً قوياً فالشباب ممتلىء حماسة وقوة ، يتدفق فى عروقه أمل يغريه بالإقدام ليجد أمامه ما أعده الله له من عظيم الأجر وكريم المثوبة .

أما الصبيان الصغار الذين لم يتجاوزوا الحلم ، فإنهم عادة يخافون من الدماء ، ويفزعون من سماع القتال والقتل فما بالنا نراهم هنا ، وفى ميدان المعركة الملتهبة تتوق نفوسهم لرؤية الدماء ، وتتحرق قلوبهم شوقاً إلى الموت .

لم يكن إذن حماس الشباب هو الدافع إلى المغامرة ، ولم يكن الطيش وعدم التقدير هما السبب فى خوض الشباب لهذه المعارك بل كان هناك سبب أهم من هذا كله ، ذلكم هو الإيمان العميق الذى استقر فى قلوب المسلمين ــ صغيرهم وكبيرهم ــ فدعاهم إلى الحرص على إدراك وعد الله لمن يقاتل فى سبيله ثم يقتل ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، ألا خوف عليهم ولاهم يحزنون ، يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين** ﴾[1]

لهذا رأينا الصغار الذين لم يبلغوا بعد سن التجنيد يسمعون أن رسول الله ﷺ يعد جيشاً لملاقاة أعداء الله ، فيسرعون إلى الميدان ، وينتظرون دورهم فى التجنيد .

وهناك فى الميدان نرى عبد الله بن عمر ، وأسامة بن زيد ، وزيد بن ثابت ، وأبا سعيد الخدرى ، والبراء بن عازب ، وزيد بن أرقم وعرابة بن أوس ، وعمرو بن حزم ، وسمرة بن جندب ، ورافع بن خديج ، وقف الجميع ينتظرون رأى القائد فيهم ، ويتطلعون أن يكونوا جنوداً فى هذه المعركة .

وأشرف القائد العظيم على الجيش المتطلع لملاقاة عدوه ورأى الصغار ينتظرون أوامره ليكونوا فى عداد المقاتلين فرد جماعة منهم لصغرهم ، وأقر من

---

(١) سورة آل عمران الآيات ١٦٩ ــ ١٧١

كان منهم مطيقاً

وكان ممن أقرهم رسول الله ﷺ البراء بر عازب وسمرة بن جندب ، ورافع بن خديج[1]

والمشهد الرائع هنا الذى يستولى على العقول ، ويأخذ بالقلوب ويثبت الرجولة المبكرة فى هؤلاء الصبيان الذين رباهم الإسلام مشهد سمرة بن جندب ورافع بن خديج .

سمع رسول الله ﷺ أن رافع بن خديج رام ماهر فى الرمى فأجازه ، فغضب سمرة بن جندب ، وقال أيجيز رسول الله رافعاً ويردنى ؟ أنا والله أقوى من رافع ، أنا أصرعه

وعلم بذلك رسول الله ﷺ فقال : تصارعا فصرع سمرة رافعاً ، فأجازه ﷺ واشتركا فى القتال[2]

هكذا كان شباب الإسلام ، وهكذا كان صبيانه يتنافسون على الموت ، ويبكون لحرمانهم من الجهاد ، ويتصارعون ليثبت كل منهم قوته ليجيزه القائد فى عداد المقاتلين

لم يكن تنافسهم على المناصب والدرجات ، ولم يكن بكاؤهم وغضبهم لتجنيدهم فى الجيش ، وأخذهم إلى ميادين القتال ، ولكن ليكتبوا بدمائهم صفحات التاريخ الإسلامى المجيد الذى نتطاول به على الدنيا ، ونفخر به على الأجيال .

جـ ـ دور الشيوخ :

لم يتقاعس الشيوخ من المسلمين عن الاشتراك فى القتال طلباً للراحة ، ولم يقنعوا بما أباحه الله لهم من القعود رغبة فى الحياة ، ولكنهم بذلوا شيخوختهم ، وضحوا براحتهم وانطلقوا من معاقلهم لينضموا إلى الجيش المحارب

(1) مختصرة سيرة الرسول ص ٢٤٤

(2) السيرة الحلبية جـ ٢ ص٢٣٣

روى الحلبى أن رسول الله ﷺ خلف اليمان ــ والد حذيفة ــ وثابت ابن وقش فى الآطام من النساء والصبيان لأنهما كانا شيخين كبيرين ، فقال أحدهما لصاحبه لا أبالك ما ننتظر ؟ فوالله إن بقى لواحد منا فى عمره إلا ظمء حمار ــ أى شيء يسير من العمر ــ أفلا نأخذ أسيافنا ، ثم نلحق برسول الله ﷺ لعل الله يرزقنا الشهادة

فأخذا سيفيهما ، ثم خرجا حتى دخلا فى الناس من جهة المشركين ، ولم يعلم المسلمون بهما ، فأما ثابت فقتله المشركون وأما اليمان فاختلفت عليه أسياف المسلمين ، فقتلوه ولم يعرفوه[1]

هذه صورة رائعة ونادرة فى التاريخ ، قوم عذرهم الله تعالى ورفع عنهم فريضة الجهاد والتضحية بالنفس ، وتركهم رسول الله ﷺ فى بيوتهم ، فلم ينكر عليهم قعودهم ، ولم يستنفرهم ليقاتلوا معه ، ومع ذلك أبت نفوسهم أن تخلد إلى الراحة واشمأزت قلوبهم أن يتركوا مع النساء والصبيان

فقال أحدهما لصاحبه أفلا نأخذ أسيافنا ، ونلحق برسول الله ﷺ لعل الله يرزقنا الشهادة ؟ ؟

ثم لا يقف الرجلان عند حد الكلام ، بل يحمل كل منهما سيفه ويمضى إلى عزمه ، مستقبلاً الموت بصدره ، فيرزقهما الله الشهادة وهكذا صدقا الله فصدقهما الله

د ــ وحتى النســاء

لم تكن المرأة بمعزل عن الأحداث التى تهم المسلمين ، وتتعلق بمصالح الدولة العامة ، ولكنها أسهمت فى كل ميدان تستطيع أن تؤدى فيه دوراً بنصيب كبير .

ولم يكن الإسلام قط عقبة فى وجه النساء المسلمات تحول بينهن وبين الإسهام فيما يقدرن عليه من الواجبات ولقد أسهمت المرأة المسلمة فى بناء الدولة فى السلم كما أسهمت فى بنائها فى الحرب ، ولقد اهتمت بمداواة الجرحى

---

(١) السيرة الحلبية ص ٢٥٦

والإشراف على المرضى بقدر اهتمامها بتربية أبنائها وحقوق زوجها ، وكانت تحمل الماء على ظهرها إلى ميدان القتال لتسقى المحاربين كما كانت تحمله إلى بيتها لتقوم بشئونه من طبخ ورى وتنظيف.

ولم يبخسها الإسلام حقاً ، ولم يهضمها شيئاً ، بل أعطاها جزاءها كاملاً غير منقوص مقابل كل عمل صالح تقدمه فى البيت أم فى الميدان قال تعالى : ﴿ ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ﴾[1]

وقال : ﴿ ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا ﴾[2]

ولم تكن مهمة المرأة المسلمة فى الميدان قاصرة على مداواة الجرحى ، ومعالجة المرضى ، وسقى الظماء ، بل تعدت إلى حمل السلاح والقتال مع المقاتلين .

هذه أم أيمن رضى الله عنها تواجه فى المدينة رجالاً من الذين تولوا يوم اللقاء ، فأخذت تحثو التراب فى وجوههم ، وتقول لبعضهم : « هاك المغزل فاغزل به ، وهلم سيفك »[3]

ولم تقف أم أيمن عند هذا الحد بل ذهبت بنفسها إلى ميدان القتال ، وشوهدت وهى تتجول بين الصفوف تتفقد الجرحى وتسقيهم .

يقول الحلبى : « إن أم أيمن كانت فى الجيش تسقى الجرحى وإن حباب ابن العرقة رمى بسهم ، فأصاب أم أيمن ، فوقعت وتكشفت ، فأغرق عدو الله فى الضحك ، فشق ذلك على رسول الله ﷺ فدفع إلى سعد سهماً لا نصل له وقال : ارم به ، فوقع السهم فى نحر حباب ، فوقع مستلقياً حتى بدت عورته ، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجزه ، ثم قال : « استقاد لها سعد ، أجاب الله دعوته »[4] .

---

(١) سورة غافر الآية ٤٠

(٢) سورة النساء الآية ١٢٤

(٣) السيرة الحلبية جـ ٢ ص ٢٤٠

(٤) نفس المرجع والصفحة .

وهذه أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية تشهد المعركة يوم أحد ، فتسقى الناس فى أول النهار ، وتقاتل آخره ، يقول ابن هشام : « وقاتلت أم عمارة ، نسيبة بنت كعب المازنية يوم أحد »[1]

وذكر سعيد بن أبى زيد الأنصارى : أن أم سعد بنت سعد بن الربيع كانت تقول دخلت على أم عمارة ، فقلت لها : يا خالة ، أخبرينى خبرك ، فقالت : خرجت أول النهار وأنا أنظر ما يصنع الناس ، ومعى سقاء فيه ماء فانتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو فى أصحابه ، والدولة والربح للمسلمين ، فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله ﷺ فقمت أباشر القتال ، وأذب عنه بالسيف ، وأرمى عن القوس ، حتى خلصت الجراح إلى

قالت أم سعد فرأيت على عاتقها جرحاً أجوف له غور ، فقلت من أصابك بهذا ؟ قالت ابن قمئة ، أقمأه الله !

لما ولى الناس عن رسول الله ﷺ أقبل يقول دلونى على محمد ، فلا نجوت إن نجا ، فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير ، وأناس ممن ثبت مع رسول الله ﷺ فضربنى هذه الضربة ، ولكن فلقد ضربته على ذلك ضربات ، ولكن عدو الله كان عليه درعان[2]

وقد جرحت رضى الله عنها اثنى عشر جرحاً بين طعنة برمح ، وضربة بسيف[3]

وروى مسلم أن عائشة وأم سليم رضى الله عنهما كانا يسقيان الناس يفرغان من القرب فى أفواه القوم[4]

وروى الحلبى أن عائشة رضى الله عنها خرجت فى نسوة يستروحن خبر الجيش ، فقابلت هند بنت حرام رضى الله عنها فقالت لها عائشة : جاء خبر الجيش ؟

---

(١) سيرة بن هشام جـ ٣ ص ٨١ .

(٢) سيرة بن هشام جـ ٣ ص ٨١ــ ٨٢ .

(٣) السيرة الحلبية جـ ٢ ص ٢٢

(٤) مختصر صحيح مسلم جـ ٢ ص ٦٠

فقالت : أما رسول الله ﷺ فصالح ، وكل مصيبة بعده جلل ، واتخذ الله من المؤمنين شهداء .

ثم قالت لها عائشة فمن هؤلاء ؟؟

قالت : أخى عبد الله ، وابنى خلاد ، وزوجى عمرو بن الجموح ، وكانت قد حملتهم على بعير بعد استشهادهم تريد أن تدفنهم فى المدينة ، فبرك بهم البعير ، وصار كلما توجه إلى المدينة يبرك ، وان وجه إلى أرض أحد نزع ، فرجعت إلى النبى ــ ﷺ ــ وأخبرته ، فقال ان الجمل مأمور ، فقبرهم بأحد ، وقال ــ ﷺ ــ : ياهند مازالت الملائكة مظلة على أخيك من لدن قتل إلى الساعة ينظرون أين يدفن [1]

ولم تكن أم سليم ــ رضى الله عنها ــ بأقل حماسا من أم عمارة ، وأم أيمن وغيرهما من نساء المسلمين فكانت تخرج مع زوجها أبى طلحة حاملة سلاحها لتدافع به عن نفسها

روى ابن هشام قال : قال ابن اسحاق : وحدثنى عبد الله بن أبى بكر ، أن رسول الله ﷺ التفت فرأى أم سليم بنت ملحان ، وكانت مع زوجها أبى طلحة ، وهى حازمة وسطها ببردها ، وانها لحامل بعبد الله بن أبى طلحة ، ومعها جمل أبى طلحة وقد خشيت أن يعزها الجمل ، فأدنت رأسه منها ، فأدخلت يدها فى خزامته مع الخطام ، فقال لها رسول الله ﷺ : أم سليم ؟ قلت : نعم ، بأبى أنت وأمى يارسول الله ، أقتل هؤلاء الذين ينهزمون عنك ، كما تقتل الذين يقاتلونك ، فإنهم لذلك أهل .

فقال رسول الله ــ ﷺ ــ أو يكفى الله ياأم سليم . قال : ومعها خنجر ، فقال لها أبو طلحة : ماهذا الخنجر معك ياأم سليم ؟ قالت : خنجر أخذته ، ان دنا منى أحد من المشركين بعجته به ، قال : يقول أبو طلحة : ألا تسمع يارسول الله ماتقول أم سليم الغميصاء ــ أى التى بعينها رمص ــ [2]

---

(١) السيرة الحلبية جـ ٢ ص ٢٥٦

(٢) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٤٤٦

ولم تكتف أم عمارة نسيبة — رضى الله عنها — بالقتال مع رسول الله — ﷺ — بل خرجت فى حروب الردة تقاتل مع جيش المسلمين ضد مسليمة الكذاب ، ولم تهدأ حتى تيقنت من قتله .

يقول الحلبى : فعنها — أم عمارة — رضى الله عنها قالت يوم اليمامة : تقطعت يداى وأنا أريد قتل مسيلمة ، وما كان لى ناهية — أى مانعة — حتى رأيت الخبيث مقتولاً ، وإذا ابني عبد الله بن زيد يمسح سيفه بثيابه ، فقلت : أقتلته ؟ قال : نعم ، فسجدت لله شكراً(١) .

ومن هذا العرض السريع لهذه المقتطفات من السيرة النبوية العطرة ، نتبين أن الأمة الإسلامية كلها كانت معبأة للجهاد فى سبيل الله ، وأن كل فرد كان جندياً فى الجيش الإسلامى متأهباً للقتال فى أية لحظة من ليل أو نهار .

فلم يكد المسلمون يسمعون الصيحة ، ولم يكد منادى الجهاد ينادى : يا خيل الله اركبى ، حتى يهب المسلمون من كل مكان ميممين صوب المعركة ، ولو كانوا بين أحضان نسائهم .

وليس أدل على ذلك مما حدث من حنظلة الغسيل رضى الله عنه وهو حنظلة بن عامر ، وكان قد تزوج من جميلة بنت عبد الله بن أبى بن سلول ، واستأذن رسول الله أن يدخل بها فى ليلة غزوة أحد ، فأذن له ﷺ فلما صلى الصبح وعاد تعلقت به ، فأجنب منها ، ثم نادى منادى الجهاد ، فخرج مع المجاهدين ملبياً الصيحة دون أن يغتسل ، وقاتل قتالاً شديداً حتى استشهد رضى الله عنه .

وفيه يقول ﷺ : « رأيت الملائكة تغسل حنظلة بين السماء والأرض بماء المزن فى صحاف الفضة »(٢) .

ولما سئلت زوجه جميلة قالت : خرج جنباً ، فقال ﷺ : لذلك غسلته الملائكة(٣) .

---

(١) السيرة الحلبية جـ ٢ ص ٢٤٣

(٢ ، ٣) السيرة الحلبية جـ ٢ ص ٢٥٤ .

تدريب الجيش

لم يكن لهذا الجيش المتأهب للقتال فى أية لحظة أن يعيش هملاً ، ولم يكن لهذه الأمة التى جيشت نفسها للدفاع عن هذا الدين أن تحيا حياة العبث والخمول ، ولم يكن للقائد العظيم ﷺ أن يركن إلى الدعة والراحة ، وقد أراحه الله بالهجرة إلى المدينة المنورة بعد عناء طويل صبر عليه هو وأصحابه بمكة المكرمة .

بل كان على الجيش أن يظل على ثقة بقيادته ، وأن يكون وثيق الصلة بالحياة العسكرية الجادة التى وهب لها نفسه وكان على الأمة أن تحيا حياة الجد لتواجه المشكلات العويصة التى تنتظرها ، وكان على القيادة أن تستمر فى تدريب الجيش والأخذ بيده إلى ميادين الكفاح والجهاد ليظل على علاقة وطيدة بالغاية التى خلق من أجلها

كان على الجيش أن يظل يقظاً حريصاً حتى لا يباغت بأمر لا يحبه ، أو يفاجأ بحرب لم يكن يتوقعها ، وكان على الأمة كلها أن ترعى هذا الجيش بقلوبها ، وتحيطه بعنايتها ، وتمده بأفلاذ أكبادها وثمرات أفئدتها ، وكان على القيادة أن تستغل يقظة الجيش وحرصه ، فلا تتركه يتهاون أو يتبلد ، كما يستغل رعاية الأمة له ، وعنايتها به ، وتقيم صرح التعاون بين الجيش والأمة

كان على الجيش أن يحدد غايته ، ويدرس الوسائل المؤدية إليها ، وعلى الأمة أن تعرف المكاسب التى تجنيها من تقوية الجيش وإمداده بالجند والمال ، وكان على القيادة أن توضح كل ذلك بدقة وعناية .

ولقد فعل رسول الله ﷺ فحدد الغاية « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله »[1] وبين الثمرة « لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة »[2] ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً ، بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من**

(١) مختصر صحيح مسلم جـ ٢ ص ٤٨

(٢) السيرة لابن هشام جـ ٢ ص ٦٢٧

فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، يستبشرون بنعمة من الله وفضل ، وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ﴾(١) وبين الوسائل المؤدية إلى ذلك بقوله : « رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد فى سبيل الله » (٢)

كذلك بين ﷺ واجب الأمة نحو الجيش وحثها على إمداده بالجند والمال بقوله تعالى **﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾**(٣) **﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ؟ تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾**(٤)

وبين أن الأمة إنما تكون قوية بجيشها عزيزة بقدرته على الدفاع عنها ، ذليلة بتقاعسه وعجزه « وما ترك قوم الجهاد فى سبيل الله إلا سلط الله عليهم ذلاً لا ينتزعه عنهم حتى يرجعوا إلى دينهم »(٥)

هكذا كانت القيادة فى الإسلام حريصة على تدريب الجيش وقوته ، وهكذا وقفت الأمة الإسلامية من خلف قيادتها تشد أزرها ، وتمدها بتأييدها ، وهكذا كان الجيش الإسلامى خاضعاً لقيادته مؤتمراً بأوامرها ، واثقاً من إخلاصها وحسن تدبيرها

وليس المراد بالتدريب صف الجنود لتعليمهم التشكيلات العسكرية ، وأخذهم بالتوجيهات الإدارية ، وتعويدهم المشية النظامية ، ليس المراد هذا ، لأنه لم يكن من مقتضيات الحياة العسكرية فى ذلك لوقت ، وإنما المقصود هو العناية بتقوية الجند جسمياً ليتحملوا الشدائد ، وعقلياً ليجيدوا التخطيط ، وروحياً لتحسن صلتهم بالله ، وليعظم توكلهم عليه ، ولنغرس فى قلوبهم أن النصر من عند الله ، وأن العدد والعتاد ، والتدريب والاستعداد كلها وسائل فقط توصل إلى النصر بمشيئة الله عز جل

(١) سورة آل عمران الآيات ١٦٩ — ١٧١

(٢) رواه الترمذى وابن ماجة .

(٣) سورة التوبة الآية ١١١

(٤) سورة الصف الآيتان ١٠ — ١١

(٥) رواه ابن حبان ، والطبرانى والحديث هنا مروى بالمعنى

ولقد تولت القيادة الإسلامية تدريب الجيش على هذا النحو ، فحققت الغاية المنشودة ، فكان الجيش الإسلامى أقوى الجيوش فى حينه ، كما كان أعظمها صبراً ، وأشدها تحملاً وأدقها تخطيطاً ، وأكثرها ثقة بالله جل شأنه .

والمقصود بالجانب الجسمى هو اللياقة البدنية كما تعرف الآن ، إذ بغير اللياقة البدنية لا يستطيع الجندى القيام بالمهام التى يكلف بها ، ولهذا أعفى الله عز وجل أولى الضر من التجنيد فقال تعالى : ﴿ **ليس على الأعمى حرج ، ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج** ﴾[1]

والمقصود بالجانب العقلى هو تنمية المواهب العقلية فى الجنود حتى لا يخدع من عدوه أولاً ، وحتى تتكون لديه القدرة على إحباط مخططات أعدائه ثانياً ، ووضع الخطط اللازمة لكسب المعركة ثالثاً ، وإلى هذا يشير ﷺ بقوله الكريم : « الحرب خدعة »[2]

والمقصود بالجانب الروحى هو ربط الجنود بالله تعالى وتقوية الصلة به سبحانه وتوثيق الاعتقاد بنصره لعباده المؤمنين ، وإمداده لهم بالعون والتأييد ، وبذلك ترتفع معنويات الجنود ، ويستبسلون فى الجهاد ، ويظلون على صلتهم بربهم حتى فى أثناء المعركة ، وعندئذ يستحقون نصر الله ، وإلى هذا تشير الآية الكريمة : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون** ﴾[3]

وبتربية هذه الجوانب الثلاثة فى الجنود نكون حقاً قد أعددناهم إعداداً ممتازاً يستطيعون به ــ بعد توفيق الله ــ عز وجل أن يحرزوا النصر ، ويقهروا العدو ، ويتغلبوا على العقبات .

أ ــ التدريب الجسمى :

لقد اهتمت القيادة الإسلامية بتدريب الجيش تدريباً جسمياً ، لأنها تعرف أن اللياقة البدنية ، والقوة الجسمية ذات أهمية كبيرة فى حياة الجيوش ،

---

(١) سورة الفتح الآية ١٧

(٢) صحيح مسلم .

(٣) سورة الأنفال الآية ٤٥ .

لهذا أبرزت معالمها ، ورسمت الخطط المؤدية إلى تحصيلها ، فأمرت بتعليم الرمى ، وحذرت من إهماله أو نسيانه وحثت على ركوب الخيل وتعلم السباحة ، وأقامت مباريات السباق بين الجنود مشاة وركبانا ، وأقرت المصارعة كمبدأ عام لإظهار القوة وتحصيلها

أما الرمى فيقول فيه ﷺ : « من علم الرمى ثم تركه ، فليس منا »(١)

ومر ﷺ على نفر ينتضلون فقال : « ارموا بنى إسماعيل فإن أباكم كان راميا ، ارموا وأنا مع بنى فلان فأمسك الآخرون عن الرمى ، فقال رسول الله : ما لكم لا ترمون ؟ فقالوا : كيف نرمى وأنت معهم ؟ فقال ﷺ : ارموا وأنا معكم كلكم »(٢)

ولما نزلت الآية الكريمة ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم** ﴾ صعد ﷺ المنبر ، وتلا الآية ، ثم قال : ألا إن القوة الرمى ، ألا إن القوة الرمى ، ألا إن القوة الرمى(٣) .

ولا شك أن الرمى يقتضى من الرامى أن يكون حاد البصر حتى يستطيع تحديد هدفه ، قوى الساعد ، حتى يمكنه تسديد رميه ، شجاعاً حتى يستطيع مواجهة أعدائه وبهذا يكون تعلم الرمى تدريباً لجميع أعضاء الجسم وتقوية لعضلاته .

ولقد كان ﷺ حريصاً على أن يظهر المسلمون بالقوة التى ترهب أعداءهم ، حتى إنه فى عمرة القضاء لما قال المشركون : إن أصحاب محمد أنهكتهم حمى يثرب ، وسمع ﷺ مقالتهم ، خشى إن هو طاف مع أصحابه فى خشوع واطمئنان أن يستقر هذا المعنى فى نفوسهم ، ويجرئهم على المسلمين ، فأمر أصحابه أن يخرجوا أذرعتهم اليمنى من الأردية ، ويجمعوا طرفى الرداء على أكتافهم اليسرى ، ويرملوا أى يقاربوا بين الخطى مع هزة عنيفة فى الجسم ، وقال ﷺ : « رحم الله امرأ أرى القوم قوة من نفسه »(٤) .

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه البخارى .

(٣) تفسير البيضاوى للآية وكذلك الشوكانى وكذلك جاء فى صحيح مسلم .

(٤) الحديث مروى بالمعنى وأصله فى سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٣٧١

وأما ركوب الخيل فإنه فروسية ومهارة يكسب صاحبه قوة ورهبة ، وتمكن الفارس من توجيه المعركة إلى صفه بنجاح ، فيحرز النصر ، وينزل الهزائم بأعدائه ، لهذا كان ﷺ يأمر به ، حيث يقول : « فارموا واركبوا »[1] .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : « علموا أولادكم السباحة والرماية ، ومروهم فليثبوا على الخيل وثبا » .

وكان ﷺ ينهى عن اللهو ، ويحذر منه ، ويستثنى ثلاثاً : « تأديب الرجل فرسه ، وملاعبته لزوجته ولهوه بأسهمه »[2]

والسباحة عامل مهم من عوامل تقوية الجيش ، وبخاصة فى المعارك البحرية ، ولقد خاضها المسلمون كثيراً وبنجاح باهر ، وكان لهم أسطول قوي فى عهد بنى أمية ، هزموا به الروم فى معركة ذات الصوارى ، وفتحوا به قبرص ، وحاصروا القسطنطينية ، واستولوا على جزر الروم .

وفى عهد الأغالبة فتحوا أقريطش « كريت » واستولوا على صقلية ، وهاجموا أوستيا ميناء روما حتى إن البابا يوحنا الثامن رأى إنقاذ روما بدفع الجزية لمدة عامين للأغالبة كما احتل الأسطول العربى فى الأندلس ساحل بروفانس جنوب فرنسا وجعلها قاعدة هامة لمهاجمة مدن نهر الراين .

وبهذا أثبت الجيش الإسلامى مهارة فائقة ومبكرة فى خوض المعارك البحرية مما أرهب أعداءهم ، واضطر ملوك وأمراء الدول الأوربية إلى الاتصال بالخلفاء يطلبون المهادنة وكف الغارات عن بلادهم[3] .

ولقد أصبحت السباحة من أهم التدريبات التى تعنى بها الجيوش فى العصر الحديث ، وجعلوا لها فرقاً خاصة تعرف باسم « الضفادع البشرية » وهذه الفرق تقوم بدور هام وخطير فى إحراز النصر وإنزال الهزائم بالأعداء .

---

(١) رواه أبو داود والنسائى .

(٢) رواه أصحاب السنن .

(٣) الأساطيل العربية فى البحر الأبيض المتوسط للدكتور العدوى .

وعندما يأمر الإسلام بتعلم الرمى وإجادته ، وركوب الخيل والمهارة فيه لا يقصد الوقوف عند حد الرمى بالسهم ، والاكتفاء بتعلم ركوب الخيل ، بل يقصد تعلم الرمى مطلقاً بالمسدس أو البندقية وبالمدفع والصاروخ ، وأن نتطور مع الزمان ، ولا نقف لنتفرج وعدونا يخترع كل يوم الجديد ، ويتفوق علينا بالنار والحديد .

كما أن المقصود بركوب الخيل ركوب كل ما من شأنه أن يحقق التفوق على الأعداء كركوب السيارات والمصفحات والدبابات والطائرات إلى غير ذلك ، والوثب على الخيل ومن فوقها رمز واضح لفرق المظليين ، ومهمتهم العظيمة التى يضطلعون بها

ولقد كان ﷺ يقيم مباريات للسباق بين أصحابه ، تارة على الخيل والجمال ، وتارة على الأقدام .

ففى الصحيحين من حديث ابن عمر رضى الله عنهما قال : « سابق رسول الله ﷺ بين الخيل فأرسلت التى أضمرت منها ، وأمدها الحفياء إلى ثنية الوداع ، والتى لم تضمر أمدها ثنية الوداع إلى مسجد بنى رزيق »(١) .

قال البخارى : قال سفيان : من الحفياء إلى ثنية الوداع خمسة أميال أو ستة ، ومن ثنية الوداع إلى مسجد بنى رزيق ميل .

وفى البخارى أيضاً : كانت العضباء ناقة رسول الله ﷺ لا تسبق فجاء أعرابى على قعود له فسابقها فسبقها الأعرابى ، وكأن ذلك شق على أصحاب النبى ﷺ فقال : « حق على الله ألا يرتفع شىء إلا وضعه »(٢)

وأما المسابقة على الأقدام فقد فعلها ﷺ بنفسه فعن عائشة رضى الله عنها قالت : « سابقنى النبى ﷺ فسبقته ، فلبثنا حتى إذا أرهقنى اللحم سابقنى فسبقنى ، فقال : « هذه بتلك »(٣) .

---

(١) متفق عليه .
(٢) صحيح البخارى .
(٣) مسند الإمام أحمد .

كذلك تسابق الصحابة رضوان الله عليهم بين يديه ، فعن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه قال :(بينما نحن نسير وكان رجل من الأنصار لا يسبق أبدا ، فجعل يقول ألا مسابق إلى المدينة ، هل من مسابق ؟ فقلت أما تكرم كريماً ، وتهاب شريفاً ؟ قال لا ، إلا أن يكون رسول الله ﷺ قال قلت يا رسول الله ، بأبى أنت وأمى ذرنى أسابق الرجل ، فقال : إن شئت ، فسبقته إلى المدينة »(١)

وأقر الإسلام المصارعة ، وباشرها ﷺ بنفسه أيضاً ، فقد صارع ركانة ، وكان رجلاً قوياً شديداً فصرعه النبى ﷺ وقيل إن ذلك كان سبب إسلامه(٢)

قال أبو داود : حدثنا موسى بن إسماعيل ، عن حماد بن سلمة ، عن عمرو بن دينار ، عن سعيد بن جبير أن رسول الله ﷺ كان بالبطحاء فأتى عليه يزيد بن ركانة بن يزيد ومعه أعنز له ، فقال يا محمد هل لك أن تصارعنى ؟ فقال ما تسبقنى ؟ فقال شاة من غنم

فصارعه فصرعه ، فأخذ شاة ، فقال ركانة فهل لك فى العودة ؟ فقال ما تسبقنى ؟ قال أخرى ذكر ذلك مراراً

فقال يا محمد ، والله ما وضع أحد جنبى إلى الأرض ، وما أنت بالذى تصرعنى ، فأسلم ، ورد عليه رسول الله غنمه(٣)

وقال ابن القيم قال أبو الشيخ الأصبهانى : حدثنا عبد الله ابن محمد بن زكريا أسنده إلى عبد الله بن الحارث ، قال : صارع النبى ﷺ أبا ركانة فى الجاهلية وكان شديداً فقال : شاة بشاة ، فصرعه النبى ﷺ فقال أبو ركانة عاودنى فى أخرى ، فصرعه النبى ﷺ فقال : عاودنى فى أخرى ، فعاوده فصرعه النبى ﷺ فقال أبو ركانة ماذا أقول لأهلى ؟ شاة أكلها الذئب ، وشاة نشزت ، فما أقول للثالثة ؟ فقال النبى ﷺ : « ما كنا لنجمع عليك أن نصرعك ونغرمك ، خذ غنمك »(٤)

---

(١) صحيح مسلم .

(٢) رسالة الفروسية الشرعية لابن القيم ص ٣

(٣) سنن أبى داود كتاب المراسيل .

(٤) رسالة الفروسية الشرعية ص ٣٣

ومن هذ نعلم أن الإسلام حرص على تربية الجنود تربية جسمية ، تضمن لهم أسباب القوة التى تردع أعداءهم ، وترهب من تحدثه نفسه بالوقوف فى طريقهم ، تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾[1]

ب ـ التدريب العقلى

قال تعالى : ﴿ ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾[2] أجمع المفسرون على أن أعظم خصال التكريم إنما هو العقل ، وبينوا سبب ذلك فى إسهاب ، والحقيقة أن العقل هو أثمن نعم الله على الإنسان ، وهو الميزة التى يستحق بها هذا التكريم وتلك المكانة الرفيعة ، لهذا اهتم الإسلام به ، ووضع له كل وسائل النمو والتزكية ، وحث الناس على ذلك وأمرهم به ، واستعمل فى ذلك وسائل متنوعة ، ليرتقى الإنسان إلى أعلى درجات الرقى الحضارى ومن أهم الوسائل التى استعملها الإسلام لتنمية المواهب العقلية ما يلى :

١ ـ التأمل فى الكون .
٢ ـ التأمل فى النفس .
٣ ـ ضرب الأمثلة الحسية للمعقولات .

التأمل فى الكون :

الكون هو الكتاب المفتوح لكل متأمل يريد أن يستطلع أسرار الحقائق التى خفيت على الغافلين ، وهو الوسيلة التى يجد فيها العقل البشرى مسرحاً ومراحاً لجولاته التى لا تنتهى ، ولا تقف عند حد .

لهذا أمر الله عز وجل بالنظر والتأمل فى الآيات الكونية قال تعالى : ﴿ قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ﴾[3] وهذا النظر يفتح للعقل آفاقاً رحبة تشبع نهمه ، حيث يجد دقة الإتقان فى تنظيم النجوم ومداراتها ، والكواكب

---

(١) سورة الأنفال الآية ٦٠
(٢) سورة الإسراء الآية ٧٠ .
(٣) يونس ١٠١

وأفلاكها ، والأجواء المترامية وما تضمه بين جوانحها من السحب والطيور على اختلاف أشكالها وغرائب طبائعها ، وهنا يقف العقل وقفة المتأمل الفاحص والمدقق الباحث ، كيف يتجمع السحاب ويتراكم ، فيسقط المطر ؟ كيف تسبح هذه الطيور فى الجو صافات ويقبضن ؟ وكيف تخفض أجنحتها التى تريد الدوران إلى جهتها ؟ بل كيف تطأطىء ذيلها ، لتهدىء من سرعتها ، فتتمكن من الدوران ؟

إن هذا الإبداع فى تنظيم هذا الكون الرحب الممتد إلى ما وراء العقل ، الذى تشير إليه الآية الكريمة : ﴿ **والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون** ﴾[1] وهذا التشييد والتنسيق الذى أحكمته قدرة الله عز وجل ووضحته الآيات البينات : ﴿ الذى خلق سبع سماوات طباقا ، ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر هل ترى من فطور؟ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ، ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح ، وجعلناها رجوماً للشياطين ﴾[2]

وهذه الدقة المتناهية فى تقدير الأفلاك ودورانها ، وتدبير منازلها وأبراجها الذى أبدعته حكمة الله تبارك وتعالى وبينته الآية المباركة ﴿ **هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً ، وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلّا بالحق ، يفصل الآيات لقوم يعلمون** ﴾[3] .

ولقد أدهشت هذه الدقة علماء الفلك فى العصر الحديث حتى عبر عنها أحدهم بقوله « إننا لو أطلقنا ثلاث ذبابات : واحدة فى أمريكا والثانية فى أفريقيا والثالثة فى آسيا يكون احتمال اصطدام الذبابات الثلاث أقرب إلى العقل من احتمال اصطدام كوكبين فى الفضاء »

ثم ينتقل النظر من السماء إلى الأرض ، فيتأمل ما فيها ومن عليها فينظر إلى الجبال كيف نصبت ؟ ووزعت هذا التوزيع المتكافىء على جهات الأرض المختلفة ، وفى هذا النسق العجيب ، وهذه الفجاج كيف شقت ؟ وكيف

---

(١) الذاريات ٤٧

(٢) الملك ٣ ــ ٥

(٣) يونس ٥

أصبحت سبلاً ممهدة يسلكها الناس فى ترحالهم وأسفارهم ؟ وهذه المياه كيف انسابت ، فأحيت موات الأرض ، وأخصبت النبات وسقت البهائم ، وأفادت الناس ، وهذه المزروعات كيف نمت واخضرت ؟ وكيف تلونت كل ثمرة منها بلونها الرائع الأخاذ ؟ وكيف حصلت كل ثمرة منها على طعمها الخاص بها ؟

وهذه الحيوانات ، وما توحى به أشكالها وأحجامها وطبائعها وغرائزها وكيفية تكاثرها ، وطرق تعاملها ، والصورة التى خلقت عليها ، كل هذا التأمل تلزمنا به الآيات الكريمات ويحثنا عليه الإسلام الحنيف ، يقول تعالى : **﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت ﴾**[1]

إن هذا التأمل فى أسرار الكون وعجائبه ، ليطبع النفس على الابتكار ويفتق العقل عن كل عجيب وغريب ، ويوحى للإنسان بالإبداع والاختراع

ولقد حقق المسلمون الأولون بهذا التأمل وذلك النظر ، وفى وقت مبكر من حياة الدولة الإسلامية ما لم تستطع العقول إدراكه فى حينه ، وما استطاعت أن تصل إليه إلا فى وقت متأخر فى هذا العصر الذى نعيش فيه ، وتاريخ العلوم يثبت ذلك للمسلمين بكل اعتزاز وفخار[2]

ولقد بلغ اهتمام الإسلام بالعقل البشرى ، وحرصه على تنميته وتطويره ، وحثه على أعماله وعدم تعطيله ، أن هدد رسول الله ﷺ كل من يمر بآيات الكون ، ولم يحاول الاستفادة منها والنظر إليها والتفكير فيها ، ولما نزل قوله تعالى : **﴿ إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار ﴾**[3] عندئذ قال ﷺ : « ويل لمن يقرأ هذه الآيات ولم يتفكر فيها »[4]..

---

(١) الغاشية ١٧ — ٢٠

(٢) راجع كتاب العلم عند العرب للكاتب الإيطالى الدوميلى.

(٣) آل عمران ١٩٠ — ١٩١

(٤) فتح القدير جـ ١ ص ٤١٢

التأمل فى النفس

والنفس البشرية هى المجال الطبيعى للتفكير الإنسانى ، ولقد وهبنا الله العقل لنفكر به وندرك وإذا كنا نفكر به فيما حولنا فأولى بنا أن نفكر به فى أنفسنا ، فى خلقنا ، فيما تنطوى عليه طبائعنا وغرائزنا ، وفيما يحتويه هذا الجسم من عجائب وأسرار ، إن الإنسان المتأمل ليندهش ويحار ، وهو يرى بعينه هذه الأعضاء التى تكون منها جسمه ، كيف توزعت هذا التوزيع الدقيق ، بحيث لو وضع عضو مكان عضو فقد وظيفته وقيمته ، فالعين لا يمكن أن تحل محل الأذن ، والأنف يستحيل أن يكون يداً أو رجلاً

ثم هذه الأجهزة الداخلية الجهاز العصبى ، والجهاز الهضمى ، والجهاز التناسلى وغيرها من الأجهزة التى تسير بدقة تدل على عظمة الخالق المبدع سبحانه وتعالى كيف تؤدى هذه الأجهزة وظائفها ؟ .وكيف رتبت هذا الترتيب فى هذا الحيز من جسم الإنسان مع كثرتها وتعدد مهماتها ؟ ومن الذى أوحى إلى الجهاز العصبى أن يترأس كل هذه الأجهزة ويسيطر عليها ، فلا تعمل عملاً إلا بإشارة منه

ثم هذه الروح تلك العجيبة التى لا يزال العالم رغم هذا التقدم العلمى مبهور الأنفاس يلهث دائباً ليقف على كنهها ، فأعجزته الحيلة وعاد حتى دون أن يجد خفى حنين يوارى بهما إفلاسه

يقول المرحوم سيد قطب « كل فرد من هذا الجنس عالم وحده ومرآة ينعكس من خلالها هذا الوجود كله فى صورة خاصة لا تتكرر أبداً على مدار الدهور ، ولا نظير له بين أبناء جنسه جميعاً لا فى شكله وملامحه ، ولا فى عقله ومداركه ،ولا فى روحه ومشاعره ولا فى صورة الكون كما هى فى حسه وتصوره ، ففى هذا المتحف الإلهى العجيب الذى يضم ملايين الملايين ، كل فرد نموذج خاص ، وطبعة فريدة لا تتكرر ، يمر من خلالها الوجود كله فى صورة كذلك لا تتكرر كما لا توجد بصمة أصابع مماثلة لبصمة أصابع أخرى فى هذه الأرض فى جميع العصور !

وكثير من عجائب الجنس البشرى مكشوفة البصر ، تراه العيون

﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ؟ ﴾ وما تراه العين من عجائبه يشير إلى المغيب المكنون »[1]

إن الإنسان ليندهش فعلاً وهو يقف أمام هذه الأسرار يحسها فى نفسه ، ويلمس دقتها فى تصرفاته ، ويشعر بها ماثلة أمام بصره فى كل نفس من أنفاسه ، فلا يملك حينئذ إلا أن يخر ساجداً لعظمة المبدع ، ويتوصل عن طريق هذا التأمل إلى التوحيد الخالص لله جل علاه فيمحض طاعته له ، ويخلص له فى كل أموره ، ويوجه وجهه إليه ، ويسلم أمره له ، فيرضى بقضائه وقدره ويقف عند أمره ونهيه ، وتلك هى العبودية المخلصة ، وتلك هى الغاية التى من أجلها خلق الله الإنسان

ولهذا حثنا سبحانه على التأمل فى النفس لإدراك تلك الأسرار أو بعضها ، فقال عز من قائل ﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾[2]

ضرب الأمثلة الحسية للمعقولات

من المعلوم أن هناك أموراً عقلية لا يستطيع الإنسان إدراكها لأول وهلة ، قد يكون ذلك لقصور فى العقل البشرى ، وقد يكون ذلك ، لأن الأمور المتحدث عنها أمور لا تدخل تحت إدراك الحواس وهى المعروفة بالأمور الغيبية .

إن عدم إدراك هذه الأمور لأحد السببين السابقين لا يبرر مطلقاً تجاهلها ، وعدم التكلم عنها ، بل يجب على المربى تقريب هذه الأمور إلى عقل الإنسان حتى يتمكن من تصورها ، وذلك إنما يكون بضرب المثل المحسوسة المشاهدة لهذه الأمور العقلية الصرف

ولا شك أن العقل عندما يدرك هذه المحسوسات ويتأملها يدرك إمكانية تصور هذه الأمور المغيبة ، كما يدرك أنها أمور جائزة الحصول ، ولا مانع من وقوعها ، عندئذ يتفتق الذهن لإدراك معقولات لم يكن له أن يتصورها ،

---

(١) فى ظلال القرآن تفسير الآية .
(٢) الذاريات ٢١

لولا ضرب هذه الأمثلة الحسية وبذلك يحصل العقل معلومات جديدة تزيد فى نموه ، وتؤهله للوظيفة التى خلق من أجلها

أمثـــلة :

من ذلك بيان مكانة الرسول ﷺ ومنزلته من الرسل السابقين له صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين

لو أردنا أن نوضح ذلك بقولنا إنها مكانة رفيعة ، ومرتبة سامقة ، ومنزلة لا تتم الرسالات إلا بها لما أوضحنا المقصود ولم نبلغ بقولنا المراد ، ولذلك أضرب رسول الله ﷺ عن ذلك كله ـــ وهو الذى أوتى جوامع الكلم ـــ وضرب لنا مثلاً أدركنا عن طريقه تلك المكانة من غير معاناة ولا كد فكر فقال : « مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله ، إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ، ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ قال : فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين »[1]

عندئذ يدرك العقل مكانته ﷺ من الأنبياء قبله من غير عناء ، ولا تعب ، حيث يرى أمامه قصراً شامخاً رائعاً جميلاً ، تنقصه لبنة ليتم ويبهر ، فإذا وضعت هذه اللبنة فى مكانها لا شك أنه يزداد حسناً وبهاء ، ويتم رونقه ، وتظهر أبهته .

ومن ذلك البعث والنشور ، وإخراج الناس أحياء من القبور بعد موت طال أمده ، وبعد زمنه ، فالعقل البشرى يعجز عن تصور هذه الحقيقة حيث لم تدركها العقول فيسرع إلى التكذيب

ولقد حكى القرآن هذا الموقف من المشركين الذين عجزت عقولهم عن تصور البعث والنشور ، فقال تعالى : ﴿ **وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما يهلكنا إلا الدهر** ﴾[2] .

---

(١) صحيح مسلم .

(٢) الجاثية ٢٤

ثم يمعنون فى الإنكار ، ويتحدون تحدياً معجزاً فى تصورهم الفاسد فيقولون : ﴿ **ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين** ﴾[1]

ولقد عرض القرآن هذا الإمعان فى الإنكار بأسلوب يدل بوضوح على عدم تصورهم للبعث وتصديقهم به حيث يقول جل شأنه : ﴿ **وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد ؟ أفترى على الله كذباً أم به جنة ؟** ﴾[2]

إن تصور إحياء الناس بعد أن صاروا رماداً تذروه الرياح ، وتطؤه الأقدام ، صعب وعسير ، وإن العقل البشرى قاصر عن إدراك هذا الهول الخطير ، فهو لا يصدق إن الناس بعد مضى آلاف السنين ، وبعد أن طال عليهم الأمد ، وبعد أن صاروا تراباً ، بعد كل هذا يبعثون ، ويخرجون من قبورهم أحياء كما كانوا ، ثم يحاسبون على كل ما قدمت أيديهم ، ذلك رجع بعيد

إن القرآن الكريم قد ناقش هذا الموضوع مع أصحاب هذه العقول التى لم تدرك تلك الحقيقة بأساليب شتى : فمرة عرضها بطريق القياس المنطقى ﴿ **قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم** ﴾[3] .

ومرة يعرضها بطريق القياس الأولوى ﴿ **أولم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى** ﴾[4] .

فالله عز وجل فى الآية الأولى يقول لهم : إن الذى أوجدكم من العدم ، قادر على أن يعيدكم بعد موتكم ، وهو جواب مقنع لذوى العقول الفطنة والحواس المرهفة .

ويقول لهم فى الآية الثانية : إن الذى خلق السماوات والأرض مع عظمها وضخامتها قادر على إحياء الموتى الذين هم أقل شأناً من هذه المخلوقات الهائلة ، وهو جواب مقنع لمن يحاول الفهم ويتكلف الإدراك .

---

(١) الجاثية ٢٥

(٢) سبأ ٧ ــ ٨ .

(٣) سورة يس ٧٩

(٤) سورة الأحقاف الآية ٣٣

ولكن العقول لا زالت متبلدة ، والقلوب مغلقة موصدة فلا حيلة إذن إلا أن يضرب الله الأمثال ، فتتحرك العقول نحو إدراك الأمر المستبعد ، فيقول جلا علاه ﴿ **الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً ، فإذا أنتم منه توقدون** ﴾[1]

ويقول فى آية أخرى : ﴿ **وهو الذى يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته ، حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت ، فأنزلنا به الماء ، فأخرجنا به من كل الثمرات ، كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون** ﴾[2]

هكذا يحرك الله القلوب لإدراك الغيبيات ، ويلفت الأنظار إلى المحسوسات المشاهدة ، التى لا تستطيع العين إنكارها ، ولا تطيق العقول جحودها

إن الشجر الأخضر غير قابل للاحتراق ، ولهذا لا يستعمله الناس فى الوقود إلا بعد أن يجف وييبس ، ولكن الله عزت قدرته قد خالف مألوف الناس فى ذلك ليبرهن على قدرته فجعل بين أيدى الناس نوعين من الشجر يقدحان الشرر وهما أخضران ، وهما الشجر المعروف بالمرخ والشجر المعروف بالعفار ، هذان النوعان إذا أخذ من كل منهما عود أخضر ، وضرب بالآخر ، انقدحت منهما النار وهما نديان رطبان[3]

وهنا تقوم الحجة على القوم ، فإن الذى يخرج النار من الشجر الذى لا يشتعل قادر على إخراج الموتى أحياء من قبورهم .

وهذه الأرض الميتة التى يراها الناس بأعينهم قاحلة ماحلة لا زرع ولا ضرع ، ينزل عليها المطر فإذا هى تربو وتهتز ، ثم تنشق عن نبات أخضر يانع

إن الناس جميعاً العالم والجاهل والصغير والكبير والرجل والمرأة الجميع يشاهدون هذا المنظر ، وليس البعث وإحياء الناس إلا نوعاً من هذا الإخراج ﴿ **كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون** ﴾[4]

---

(١) سورة يس ٨٠ .
(٢) سورة الأعراف ٥٧
(٣) فتح القدير جـ ٤ ص ٣٨٣ (٤) سورة الأعراف ٥٧

كذلك يربى الإسلام العقول فى البحث والمناظرة الحرة ، فتنمو نمواً طبيعيا دون تعسف أو قسر ، فيعرض عليها الايات الكونية ، ويوجهها إلى التبصر فى النفس الإنسانية ، ثم يخاطبها بالمشاهد الملموس حتى إذا بلغت رشدها ، واستوت على أمدها ، ناقشها مناقشة الحصيف الأريب ، وعرض عليها الفكرة فى ثوب ، ناصع قشيب ، فيقول جل من قائل : ﴿ **يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ، لنبين لكم ، ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ، وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيى الموتى ، وأنه على كل شىء قدير وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور** ﴾(١)

تلك هى قصة البشرية برمتها ، ملايين السنين طوتها هذه الآيات البينات فى كلمات ، دون أن تهمل شيئاً منها أو تقصر فى تفصيل حادث من أحداثها

إن هذا النداء الذى افتتحت به الآيات إيذان بإعلان هام تلفت إليه الأنظار ﴿ **يأأيها الناس** ﴾ إنه نداء للبشرية كلها ودعوة لها أن تصغى إلى قصتها . وتستمع إلى حكايتها

وهنا تستبعد ما أنكروه من عدم البعث ، وتسرد الأدلة على صحة الدعوى التى طلبت منهم الإيمان بها ، فتقول : إذا كنتم فى شك من قدرتنا على إحيائكم بعد الموت ، فتعالوا واسمعوا ما تلى عليكم لعلكم تقتنعون بحقيقة ما تنكرون

إننا خلقناكم ـــ خلقنا أباكم آدم ـــ من تراب ، وها أنتم أولاء أبناؤه أحياء تدبون على وجه الأرض ، وتتخاصمون ، وتمترون ، هل فى ذلك شك ؟ فلماذا تستبعدون أن نعيد خلقكم من تراب مرة أخرى ، والعود أهون من البدء؟؟ ﴿ **وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه** ﴾(٢)

---

(١) سـورة الحج ٥ ـــ ٧

(٢) سـورة الروم ٢٧

ثم تروى لنا الآية قصة الجنين فى بطن أمه ، والأطوار التى يمر بها ، وهو بعد ذلك كله موكول أمره إلى الله ، إن شاء أقره فى الرحم حتى يخرج إلى الحياة طفلاً ، ثم يبلغ أشده ، وعندئذ يشارك فى بناء مجتمع فاضل ، أو يعمل على إفساد الحياة ويكون عقبة فى بلوغها أمدها ، وإن شاء أمر الرحم أن يلفظه ، فينزل سقطاً ، وتنتهى قصته عند هذا الحد

وهنا تنتقل بنا الآية فى سلاسة تعجز البشر متظاهرين وسهولة يدركها كل من له عقل ، وروعة تسلب لب الأديب الحاذق حيث تنقلنا من أطوار البشر إلى أطوار النبات ، دون أن يختل النسق أو يختلف الموضوع ﴿ **وترى الأرض هامدة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج** ﴾

إنها تذكر الدليل الثانى على أحقية البعث وكينونته ، وهو دليل حسى ملموس ، العين تشاهد ، والقلب يتفتح ، والعقل يتدبر ويعى ، وعندئذ يطرح النتائج البديهية التى يجب التصديق بها بعد ذكر تلك الأدلة

﴿ **ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيى الموتى ، وأنه على كل شىء قدير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور** ﴾

الله هو الحق فلا يقول إلا حقا ، وهو يحيى الموتى كما أحيا الأرض بعد موتها ، وهو على كل شىء قدير ، لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، فكيف يعجزه إخراجكم من بطن الأرض بعد أن صرتم ترابا ، وقد أخرجكم من بطون أمهاتكم بشراً سويا بعد أن كنتم نطفة من ماء مهين ؟

والساعة آتية لاريب فيها لتتحقق عدالة الله فى خلقه ، ويأخذ كل إنسان حقه ، إذ ليس من العدل أن يسوى الموت بين صالح وطالح ، وبار وفاجر ، فلابد أذن من فرصة ينال فيها كل إنسان جزاء ماقدمت يداه ، وتلك هى الساعة التى لاريب فيها

وإذا كان لابد من الفرصة ، وكانت الفرصة هى الساعة ، والمقصود منها هو تحقيق العدالة بين الناس ، كان لابد من بعث هؤلاء الناس من قبورهم ، لتجد كل نفس ماعملت محضرا : ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن**

يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾[1]

جـ ـ التدريب الروحى

وهذا الجانب من التربية مهم جدا بالنسبة للجيش الإسلامى وان كان لاتهتم به الدول التى تعتمد على الاسلحة والتدريب وعدد الجنود ، لان ذلك هو الغاية التى تجتهد فى تحصيلها ، وتسعى دائبة لتوفيرها ، وهى لهذا تعتبر هذا الجانب ملهاة لادخل له فى إعداد الجيوش وتدريبها ، وانتصارها على أعدائها

ولكننا نعتقد أن هذا الجانب هو سر قوتنا ، ووسيلة تفوقنا وأن ماعداه وسائل لاتدفع ضرا ، ولا تجلب نصرا ، وأن النصر من عند الله **﴿ وما النصر إلا من عند الله ان الله عزيز حكيم ﴾**[2] .

وهذا الجانب من التربية هو الفارق الأساسى بين الجيش الإسلامى وغيره من الجيوش ، بل هو العامل الذى حقق به الجيش الإسلامى تلك الانتصارات التى بهرت العالم ، وأدهشت المفكرين ، وتركت القادة العسكريين فى حيرة ، لايدرون بماذا يعللون هزيمة القوة أمام الضعف وفشل الكثرة وهى تواجه القلة ، واندحار التدريب والعتاد أمام الوسائل البدائية ؟؟؟

تلك هى الخصيصة التى تميز بها الجيش الإسلامى ، وتلك هى أهم وسائله لتحقيق انتصاراته ، ولأجل هذا حث القرآن الكريم والسنة المطهرة على الاهتمام بهذا الجانب من التربية ، قال تعالى : **﴿ يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا ، واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ﴾**[3]

وهذه التربية الروحية تتحقق بأمور بينها الله ــ سبحانه وتعالى ــ فى القرآن الكريم ، كما حث عليها رسول الله ــ ﷺ ــ فى السنة الشريفة وأول هذه الأمور وأهمها الفرائض التى فرضها الله على عباده ، من صلاة وصيام وزكاة وحج [4] .

---

(١) سورة الزلزلة ٧ــ ٨ .

(٢) سورة الأنفال ١٠

(٣) سورة الأنفال ٤٥ .

(٤) راجع كتابنا التربية الإسلامية وأثرها فى تكوين الشخصية .

ولا شك أن أداء هذه الفرائض على الوجه الذى شرعه الله — عز وجل — وبالطريقة التى علمنا إياها رسول الله — ﷺ — يحقق الصلة بين العبد وربه ، ويديم العلاقة بين الناس وخالقهم ، وذلك هو سر التربية وروحها

ثم يأتى دور النوافل ، وهى من أهم القربات إلى الله — عز وجل — ومن النوافل قيام الليل ، وصلاة الضحى ، والسنن الراتبة للصلوات ، وصيام التطوع كصيام يوم عرفه وعاشوراء والإثنين والخميس أو ثلاثة أيام من كل شهر ، ومنها تلاوة القرآن وتدبره ، وذكر الله على كل حال .

والآية الكريمة جمعت ذلك كله ﴿ **اتل ما أوحى إليك من الكتاب ، وأقم الصلاة ، إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله أكبر** ﴾[1]

وفى الحديث القدسى : « ما تقرب إلىّ عبدى بشىء أحب إلىّ مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها »[2]

وأهم هذه النوافل للجنود ، وبخاصة أثناء المعارك ذكر الله تبارك وتعالى لأن الله أمر به جنده حين اللقاء ، قال تعالى ﴿ **ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا ، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون** ﴾[3]

ذكر الله

وذكر الله تعالى من أهم وسائل التربية الروحية ، وهو الصلة التي يجب ألا تنقطع بين العبد وربه ، فالمؤمن يجب أن يكون لسانه دائماً رطباً بذكر الله ، ولهذا وضع رسول الله ﷺ برنامجاً يشغل به وقت المسلم كله ، يبدأ من استيقاظه وينتهى بنومه ، وهو بهذا يملأ فراغ المسلم ، بحيث لا تمر به لحظة

---

(١) سورة العنكبوت ٤٥

(٢) رواه البخارى

(٣) سورة الأنفال ٤٥

إلا وهو مشغول بذكر الله عز وجل وهذا هو معنى الحديث الشريف ، « ليكن لسانك رطباً بذكر الله »[1] .

وهذا الذكر من السنن العملية التى ينبغى للمسلم ألا يفرط فيها ، وأن يأخذ نفسه بها ، ويتدبرها عند القيام بها ، حتى يظل على ثقة بربه موصول القلب بحبه ، مستمداً منه عونه ورشده .

وهاك البرنامج الذى وضعه رسول الله ﷺ :

دعاء الاستيقاظ ، الحمد لله الذى أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور[2]

دعاء دخول الخلاء : اللهم إنى أعوذ بك من الخبث والخبائث[3]

وعند الخروج منه : الحمد لله الذى أذاقنى لذته ، وأبقى فىَّ قوته ، ودفع عنى أذاه[4]

وعند ابتداء الوضوء يقول : اللهم اغفر لى ذنبى ، ووسع لى فى دارى وبارك لى فى رزقى[5]

وعند الانتهاء منه يقول أشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، اللهم اجعلنى من التوابين ، واجعلنى من المتطهرين[6]

وعند لبس الثياب يقول اللهم إنى أسألك من خيره وخير ما هو له ، وأعوذ بك من شره ، وشر ما هو له[7] .

فإذا خرج من بيته يقول : بسم الله ، توكلت على الله ، لا حول ولا قوة إلا بالله[8]

---

(١) مسلم .

(٢) رواه الطبرانى .

(٣) رواه الشيخان .

(٤) رواه الطبرانى .

(٥) رواه النسائى .

(٦) رواه مسلم والترمذى

(٧) رواه ابن السنى .

(٨) رواه النسائى .

وإذا توجه إلى المسجد يقول اللهم اجعل فى قلبى نورا ، وفى بصرى نورا وفى سمعى نورا ، وعن يمينى نورا ، وعن يسارى نورا ، وفوق نورا وتحتى نورا ، وأمامى نورا وخلفى نورا ، واجعل لى نورا[١]

فإذا دخل المسجد يقول : أعوذ بالله العظيم ، وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم ، بسم الله اللهم صل على محمد وعلى آله وسلم ، اللهم اغفر لى ذنوبى ، وافتح لى أبواب رحمتك[٢]

وعندما يسمع المؤذن يقول مثلما يقول ، حتى إذا انتهى قال اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاماً محموداً الذى وعدته[٣]

فإذا انتهى من صلاته يسبح الله ثلاثاً وثلاثين ، ويحمده كذلك ويكبره كذلك ، ثم يقول لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير[٤] ويقول : اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك[٥] .

فإذا انتهى من مجلسه ، وأراد القيام ، يقول : سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك[٦]

وعند خروجه من المسجد يقول بسم الله ، اللهم صل على محمد وعلى آله وسلم ، اللهم اغفر لى ذنوبى ، وافتح لى أبواب فضلك[٧]

فإذا أراد العودة إلى البيت يقول عند دخوله اللهم إنى أسألك خير المولج ، وخير المخرج ، باسم الله ولجنا ، وباسم الله خرجنا ، وعلى الله ربنا توكلنا ، ثم يسلم على أهله[٨] .

---

(١) رواه البخارى .
(٢) رواه أبو داود .
(٣) رواه البخارى .
(٤) رواه مسلم .
(٥) رواه أبو داود .
(٦) رواه أبو داود .
(٧) رواه مسلم .
(٨) رواه أبو داود .

فإذا جلس ليأكل يقول : اللهم بارك فيما رزقتنا ، وقنا عذاب النار ، بسم الله(١) فإذا نسى أن يذكر الله فى أول الطعام فليقل بسم الله أوله وآخره(٢)

وعندما يفرغ من الطعام يقول : الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين(٣) وإذا قدم له أحد طعاماً يدعو له بعد انتهاء الطعام ويقول: أفطر عندكم الصائمون ، وأكل طعامكم الأبرار وصلت عليكم الملائكة(٤)

وهكذا يظل المسلم على صلة وثيقة بربه فى جميع أحواله لا ينفك لسانه رطباً بذكر الله ، يردد اسمه دائماً ، ويبتهل إليه دائماً ، وبهذا يشعر المسلم أنه يأوى إلى ركن مكين ، يمده بعونه ، وينزل عليه نصره ، ويأخذ بيده إلى صراط مستقيم .

والمسلم فوق ذلك كله يذكر الله عز وجل فى كل أوقاته ، لا يختص بذلك وقت دون وقت ، بل هو على كل حال فى ذكر وتكبير وتسبيح وتهليل .

فهو عند البيع والشراء يذكر الله ﴿ **فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض ، وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون** ﴾(٥)

وهو فى قيامه وقعوده يذكر الله ﴿ **فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم** ﴾(٦)

وهو بين أمواله وأولاده يذكر الله ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله** ﴾(٧).

وهو فى المسجد والسوق يذكر الله ﴿ **فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر**

---

(١) رواه ابن السنى .
(٢) رواه أبو داود .
(٣) رواه النسائى .
(٤) رواه أبو داود .
(٥) سورة الجمعة / ١٠
(٦) سورة النساء / ١٠٣
(٧) سورة المنافقون / ٩

فيها اسمه ، يسبح له فيها بالغدو والآصال ، رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾[1]

وهو فى السلم والحرب يذكر الله ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾**[2]

وهو فى أضيق المواقف وأحرجها يذكر الله ﴿ **اذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى ﴾**[3]

وهو فى كل أحواله يذكر الله ﴿ **يأيهاالذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيرا ، وسبحوه بكرة وأصيلا ﴾**[4]

وهكذا يظل المسلم طول نهاره لا يفتر عن ذكر الله ، حتى إذا عاد إلى أهله وأراد أن يأوى إلى فراشه ما كان له أن يكف عن ذكر الله ، فإذا أراد خلع ثيابه قال : بسم الله الذى لا إله إلا هو[5]

فإذا أراد أن يباشر زوجه قال : بسم الله ، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا[6]

فإذا قضى حاجته من أهله ، وأراد أن ينام فعليه أن يختم يومه بذكر الله ، كما بدأه بذكر الله ، حينئذ ينفض فراشه بطرف ثوبه ثلاثاً ثم يقول : باسمك ربى وضعت جنبى ، وبك أرفعه إن أمسكت نفسى فاغفر لها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين[7] .

فإذا أصابه أرق ، ولم يستطع النوم يقول : اللهم رب السموات السبع وما أظلت : ورب الأرضين وما أقلت ، ورب الشياطين وما أضلت كن لى جاراً من شر خلقك أجمعين ، أن يفرط على أحد منهم أو أن يطغى ،

---

(١) سورة النور / ٣٦ ، ٣٧ .
(٢) سورة الأنفال / ٤٥
(٣) سورة طه / ٤٢
(٤) سورة الأحزاب / ٤١ ، ٤٢
(٥) رواه ابن السنى .
(٦) رواه البخارى .
(٧) رواه الشيخان .

عز جارك ، وتبارك اسمك[1]

فإذا استيقظ ليقوم الليل وهى سنة محمودة ينبغى للمسلم أن يحافظ عليها ، ولا يخلى ليله من ركعات يصل قلبه فيها بالله عزوجل . عندئذ يقول اللهم لك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت ملك السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد أنت الحق ، ووعدك حق ، ولقاؤك حق وقولك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد ﷺ حق ، والساعة حق ، اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أنت أعلم به منى ، أنت المقدم ، وأنت المؤخر ، لا إله إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بالله[2]

هكذا يكون المسلم مربوطاً بذكر الله ، وثيق الصلة بمولاه مشدوداً قلبه إلى السماء ، عندئذ يكون أهلاً لنصر الله ، ﴿ **ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء ، وهو العزيز الرحيم** ﴾[3]

وهكذا يتعهد الإسلام جنوده ، وهكذا يربيهم بتلك التربية المتكاملة التى تنهض بهم جسمياً وعقلياً وروحياً حتى يصبح كل منهم ذلك الجندى الذى يرفع رأس وطنه ، ويحمى بلاده ، ويحقق لها المنعة ، ويجلب لها المجد والعزة

وهكذا تؤدى القيادة واجبها نحو جنودها : تؤديه كاملاً غير منقوص لأنها تعلم أنها مسئولة عنه أمام الله تعالى وأنها ستقف بين يدى الله جل شأنه وقفة طويلة ، وستحاسب يومئذ عن كل صغيرة وكبيرة

إن القيادة فى الإسلام تكليف لا تشريف ، وقائد المسلمين أكثرهم تبعة ، فهو مسئول عن نفسه وأهله ، ثم هو مسئول عن كل فرد من رعيته ، مسئول عن إطعام الجائع ، وكسوة العارى ، ومعالجة المريض كما هو مسئول عن تمهيد الطريق ، وإقامة الجسور ، وبناء المشافى

---

(١) رواه الطبرانى

(٢) رواه البخـارى .

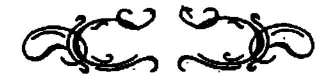
(٣) سورة الروم ٣ — ٤

وليست هذه المسئولية أمام مجلس الوزراء ، ولا أمام مجلس الشورى ولا أمام الشعب ، وإلا لكان الأمر هيناً ، يمكن فيه استدراك الخطأ ، وتغيير القوانين لرفع المسئولية ، ولكنها مسئولية أمام الله الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .

ولقد كان هذا المعنى مستقراً تماماً فى نفوس المسئولين من المسلمين ، وعبر عنه الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه بقوله : « لو عثرت بغلة بالعراق لسألنى الله عنها لم لم أسو لها الطريق » ؟

كذلك كان الخليفة الزاهد — عمر بن عبد العزيز رحمه الله — يرسل مناديه إلى الأسواق ينشد طلبة العلم المحتاجين والفقراء المعوزين ليعطيهم حقوقهم ، حتى كان يزوج غير المتأهلين .

دخل عليه مرة أحد أبنائه ، فرأى فى أصبعه خاتماً ثميناً فسأله ، كم قيمته ؟ فقال : سبعة آلاف درهم ، فقال : أى بنى ، بعه ، واطعم بثمنه سبعة آلاف مسكين ، واشتر لك خاتماً من حديد ، واكتب عليه : « رحم الله امرأ عرف قدر نفسه »



حقوق القيادة

وللقيادة حقوق جزاء ما قدمت من الواجبات ، وهذه الحقوق وضحتها السنة الشريفة ، وحدد معالمها رسول الله ﷺ فكان لزاماً على المسلمين أداؤها ، وكان الإهمال فيها والتقصير فى القيام بها ، إهمالاً لواجب شرعى ، وتقصيراً فى أمر من أمور الدين .

وكما أن القيادة أدت واجبها ، فعلى المسلمين أن يوفوها حقوقها جزاء وفاقا ، وتلك الحقوق تتلخص فيما يأتى

١ ـ السمع والطاعة
٢ ـ المناصرة والتأييد
٣ ـ النصح والتسديد ولنتناولها بالتوضيح سائلين الله جل علاه العون والتوفيق

١ ـ السمع والطاعة

وهما من أهم حقوق القيادة فى كل زمان ومكان ، إذ بغير السمع والطاعة لا يمكن الضبط والربط ، كما لا يمكن تكوين جيش رادع لعدوه ، يدافع عن وطنه ، وبغير السمع والطاعة تكون الفوضى التى لا نظام فيها ، والاضطراب الذى لا استقرار معه ، ولهذا قال ﷺ « اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة »[١]

والمسلمون منذ نشأتهم تربوا على السمع والطاعة فى المنشط والمكره ، والعسر واليسر ، وعلى كل حال ، فليس لمسلم قط أن يتردد فى أمر صدر إليه

---

(١) رواه البخارى .

من الله ورسوله ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم** ﴾[1]

وكان مجرد التردد نفاقاً يفضح صاحبه ، ولهذا لما نزل قوله تعالى ﴿ **ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم ، أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم** ﴾ قال المؤمنون « لو فعل الله لفعلنا » وقال أحدهم : « لو أمرنا الله لفعلنا ، والحمد لله الذى عافانا » فلما بلغ ذلك النبى ﷺ قال « إن من أمتى لرجالاً الإيمان أثبت فى قلوبهم من الجبال الرواسى[2]

المسلم الحق هو الذى أسلم نفسه لله عز وجل وليس من حقه أن يتردد فى أمر يصدر إليه من أميره ، ذلك لأنه من أطاع أميره فقد أطاع رسول الله ﷺ ومن أطاع الرسول فقد أطاع الله « من أطاعنى فقد أطاع الله ، ومن يعصنى فقد عصا الله ، ومن يطع أميرى فقد أطاعنى ومن يعصى أميرى فقد عصانى »[3]

وهكذا يجب أن يكون المؤمن ، يصدع بما يؤمر ، وينفذ ما يطلب منه ﴿ **إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا ، وأولئك هم المفلحون** ﴾[4]

ولا يكون السمع والطاعة فيما تحبه النفس وترغب فيه فقط ، ولكن السمع والطاعة المطلقة فى كل ما يحب الإنسان أو يكره ، وفيما هو سهل ميسر أو شاق عسير ، يقول عبادة بن الصامت رضى الله عنه « دعانا رسول الله ﷺ فبايعناه ، فكان فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة فى منشطنا ومكرهنا ، وعسرنا ويسرنا ، وأثرة علينا »[5]

---

(١) سورة الأحزاب ٣٦
(٢) تفسير الطبرى جـ ٨ ص ٥٢٦
(٣) مسلم جـ ٦ ص ١٣
(٤) سورة النور ٥١
(٥) مسلم جـ ٦ ص ١٧

ويروى ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : « على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره »(١) .

والسمع والطاعة ، لا يكونان لوجاهة الأمير ، أو الخوف منه ، وإنما السمع والطاعة لكل أمير يلى أمر المسلمين ما دام يقودهم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ففى حديث أم الحصين تقول سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أمر عليكم عبد مجدع أسود ، يقودكم بكتاب الله تعالى فاسمعوا وأطيعوا »(٢) .

وليست الطاعة إلا فى المعروف ، فأيما أمير أمر بمعصية فهو غيرمطاع ففى حديث على كرم الله وجهه « إنما الطاعة فى المعروف »(٣)

وفى حديث ابن عمر رضى الله عنهما « إلا أن يؤمر بمعصية ، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة »(٤)

وليست الطاعة عندنا عمياء ، بل هى طاعة مبصرة رشيدة تصدر عن اقتناع وبصيرة ، فأيما أمير حاول زج جماعة فى أمر لا يتفق مع قواعد الشرع والعقل ، فأمره مردود عليه ،عن على رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ بعث جيشاً وأمر عليه رجلاً ، فأوقد ناراً ، وقال ادخلوها ، فأراد ناس أن يدخلوها ، وقال آخرون : إنما فررنا منها ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال للذين أرادوا أن يدخلوها « لو دخلتموها لم تزالوا فيها إلى يوم القيامة » وقال للآخرين قولاً حسنا ، وقال : « لا طاعة فى معصية الله ، وإنما الطاعة فى المعروف »(٥)

هكذا يربى الإسلام جنوده تربية رشيدة حكيمة ، تؤدى فيها القيادة

---

(١) مسلم جـ ٦ ص ١٥

(٢) مسلم جـ ٦ ص ١٥

(٣) نفس المصدر والصفحة .

(٤) نفس المصدر والصفحة .

(٥) مسلم جـ ص ١٥

واجبها وتمارس حقوقها ، فليس قائد المسلمين بالمستبد المتغطرس ، ولا هو بالجائر المتكبر ، ولكنه العادل الشفيق المتواضع الرفيق ، يحنو على جنوده ويعطف عليهم ، يدفعه إلى ذلك شعور بالواجب ، وعاطفة نبيلة تجعله يشعر أنه أب لصغيرهم ، وأخ لكبيرهم

وليس الجنود عاقين متمردين ، ولا منتهزين متربصين ، ولكنهم أبرار مطيعون ، بواسل مضحون ، يدفعهم إلى ذلك إيمان عميق وعقيدة راسخة ، وشعور دفاق بحدب القيادة عليهم ، وحرصها على مصالحهم .

وإذا كانت القيادة من هذا الطراز الفذ ، وكان الجنود على هذه الشاكلة الفريدة ، تم التجاوب ، وساد الوفاق ، وعندئذ تأمر القيادة فيطيع الجنود ، وتهتف فيلبون ، وتخطط وهم ينفذون .

٢ ــ المناصرة والتأييد :

وهما حق من حقوق القيادة ما دامت تقود المسلمين بأوامر الله ، وتحكمهم بكتاب الله ، وتأخذ بأيديهم إلى الخير ، وتهديهم إلى الرشد ، فحينئذ يجب مناصرتها وتأييدها ، وبذل أقصى الجهد فى مؤازرتها ، لأن فى تأييدها ومؤازرتها تأييداً للحق ، ومؤازرة للخير ، وتلك هى مهمة المسلمين وغايتهم فى هذه الحياة .

ولقد أخذت المناصرة صوراً شتى حسبما يقتضيه الموقف وتدعو إليه الضرورة ، فكانت تارة بالوقوف إلى جانب القيادة وهو ما نسميه المشاركة الوجدانية ، وتارة بالدفاع عنها باللسان مرة وبالسنان مرة ، وتارة أخرى ببذل الأموال والأنفس في سبيل الحفاظ عليها ،والجنود فى كل هذا يؤدون واجباً عليهم معتقدين أنه حق للقيادة الرشيدة ، لا بد من تقديمه لها ، وفاء لما قدمته من جهد ، وما بذلته من تضحيات .

المشاركة الوجدانية :

والوقوف إلى جانب الحق نوع من المؤازرة يعز أحياناً الحصول عليه ،

وهو مع كونه يبدو سلبياً إلا أنه فى حينه ، وحين لا يستطيع الإنسان غيره موقف رائع لا ينساه المنصفون لذويه ، والإنسان فى محنته يتفقد أنصاره ، ويلتمس العون من أحبابه ، فإن وجد منهم التألم لما يصيبه ـــ وهو أقل ما يقدمه نصير ومعين ـــ وهم لا يقدرون على غيره ، سلت نفسه ، وخفت عليه آلامه .

وإنك لترى نبل الإنسانية ـــ أحياناً ـــ فى دمعة طفل أكثر مما تراها فى ضربة سيف من رجل قوى ، وإن الكلمة الطيبة يقولها إنسان لا يملك غيرها أثلج للصدر من طعنة رمح من يدى شجاع فتى ، وكلمة الحق فى وجه الظالم من رجل لا يستطيع سواها أروع فى واقع الأمر من خوض معركة دامية من فارس مغوار

وإنك لتلمس هذا الموقف ، وتهزك روعته حينما تكون ضعيفاً فى يد ظالم قوى، وحينما يتخلى عنك أشقاؤك وذووك وزوجك وبنوك، وأمك وأبوك، ثم تتلفت حولك فلا تجد إلا إنساناً يشاطرك محنتك ، يتألم لألمك ، وتتقطع نياط قلبه حسرة على ما ينزل بك من العذاب ، ثم يقدم نفسه طائعاً مختاراً ليتحمل عنك قسطاً من هذا العذاب أو يشاركك فيه ، حقاً ما أروع المؤازرة ولو بكلمة فى وقت تكمم فيه الأفواه ، ويعز فيه المتكلمون .

حدث ذلك فى مكة يوم كانت الدعوة الإسلامية فى مقتبل عمرها ، ويوم كانت القيادة الإسلامية عزلاء إلا من إيمانها ، يوم كان رسول الله ﷺ يتلفت حوله فلا يرى إلا بلالاً مكبلاً فى أصفاده ، وعماراً يصب الحميم على رأسه وينصت فلا يسمع إلا أنات سمية ، وتوجعات ياسر وصرخات صهيب .

إن هؤلاء لا يملكون من مناصرة القيادة وتأييدها إلا أن يقفوا هذا الموقف الصامد الرائع ، وكان باستطاعتهم أن ينجوا من هذا العذاب لو تخلوا عن القيادة ، وفروا من الميدان ، وحينئذ يكون على القيادة أن تتحمل وحدها هذا العبء الثقيل ، ولكن ذلك لم يكن من الجنود ، وكانت هذه المناصرة ـــ التى يراها كثير من البسطاء سلبية ـــ كانت أروع ما حمله إلينا التاريخ من مواقف هؤلاء المستضعفين .

وحدث ذلك فى العصر الحديث حين امتدت يد الظلم والإرهاب إلى الفئة المؤمنة ، تتخطفهم من كل درب ، وتطارِدهم فى كل صوب ، وترمى بهم — دون مبالاة — فى غيابات السجون ، وأمعنت فى تعذيبهم حتى استولى الرعب على القلوب ، وسيطر الفزع على النفوس ، وحتى أصبح الرجل يتبرأ من ابنه وأخيه مخافة أن يشاركه محنته ، ويعيش معه آلامه ، وحتى كانت الزوجة تطلب من زوجها الطلاق وترمى بأولاده فى قارعة الطريق مخافة أن تتهم بمساعدته والوقوف إلى جانبه .

وكان المؤمن الممتحن يلتفت حوله ، فلا يجد أباً يسليه ولا أخاً يواسيه ، ولا زوجة تصافيه ، ثم يلتفت فلا يجد إلا إناساً شاطروه محنته ، وقاسموه آلامه ، وينصت فلا يسمع إلا آهات المعذبين ، وزفرات المكلومين

إن أقسى ما يصاب به المرء فى حياته تخلى إخوانه وأحبابه عنه فى وقت عصيب ، تؤدى فيها الكلمة الطيبة دورها ، وتعمل فيه المشاركة الوجدانية عملها فى تخفيف الآلام وتعزية المصاب وتهدئة الخواطر

وإن أقسى من هذا التخلى وأمر أن يضن الإنسان حتى بكلمة الحق ، فلا يقولها ، وأن ينعزل وجدانياً عن أهل الحق ، فلا يشاركهم آلامهم — وذلك أضعف الإيمان — وكان باستطاعة هؤلاء المعذبين أن ينجوا من هذا العذاب لو تخلوا عن الحق ، وأعلنوا تأييدهم للباطل ، ولكن ذلك لم يحدث من الجنود ، بل كان منهم المناصرة والتأييد للقيادة المؤمنة التى شاركتهم هذا العذاب ، وأبت أن تنخدع بوعود معسولة ، وأمانى جميلة ، وأصرت على البقاء مع الجنود حتى تنكشف الغمة ، وتزول المحنة ، ويرتفع البلاء .

وزالت المحنة ، وباء الطغاة بما كسبت أيديهم ، وخرج المؤمنون منها أشد ثقة بالله ، وأصلب عوداً ، وأصفى معدناً وقلوباً ، وأكثر تمسكاً بإيمانهم وقيادتهم .

والحقيقة أنه ليس للجنود الحرية فى تحديد موقفهم من القيادة فى هذه المشاركة الوجدانية ، لأنها واجبة على كل مسلم ، بل هى أضعف الإيمان كما قلت من قبل ، وإن تخلى الجنود عن هذا الموقف لهو بعينه الهروب من الميدان ،

وخذلان للحق ، وفرار من الواجب وليس بعد التخلى عن الحق ، والفرار من الواجب إيمان يرتجى ، ومن أجل هذا أخبر الله سبحانه بأن الذين آزروا رسول الله ونصروه ، وأيدوه وعزروه هم المفلحون حقاً ، قال تعالى ﴿ **فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه ، واتبعوا النور ، الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون** ﴾(١)

المشـــاركة الفعلية :

لم تزل الفئة المؤمنة تلتف حول قيادتها ، وتحوطها باهتمامها ، وتتحمل ألوان العذاب ولا تتخلى عنها ، حتى آنست من نفسها قوة ورأت أنها تستطيع الدفاع عن نفسها ، وتحمى قيادتها ، فلم تبخل حينئذ بجهد ، ولم تضن بعزيز ، حتى أسلم عمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب رضى الله عنهما قال عمر : يا رسول الله ، ألسنا على الحق ؟ قال ﷺ بلى ، فقال عمر ففيم الاختفاء ؟ ؟

وخرج المسلمون فى صفين : عمر فى أحدهما ، وحمزة فى الآخر حتى دخلوا المسجد ، يقول عمر رضى الله عنه فنظرت قريش إلى وإلى حمزة فأصابتهم كآبة شديدة ، فسمانى رسول الله ﷺ الفاروق يومئذ(٢)

فكان إسلام حمزة رضى الله عنه ومن بعده عمر منعة لهم حتى قال ابن مسعود رضى الله عنه : ما كنا نقدر على أن نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر(٣)

وفى البخارى عن ابن مسعود : ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر ومنذ ذلك بدأ المسلمون يدرأون عن أنفسهم اعتداء المشركين ، ويدفعون عدوانهم بمثله ، روى عامر بن سعد بن أبى وقاص ، عن أبيه سعد قال : خرجت أنا وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وخباب بن الأرت وعمار بن ياسر ، وابن مسعود فى شعب أبى دب نتوضأ ونصلى ، ونحن مستخفون ، إلى أن ظهر علينا نفر من

---

(١) سورة الأعراف ١٥٧

(٢) مختصر سيرة الرسول ص ١٠٢

(٣) نفس المصدر ص ١٠٣

المشركين فقد كانوا يرصدوننا ، واتبعوا أثرنا ، أبو سفيان بن حرب والأخنس ابن شريق وغيرهما فعابوا علينا ذلك وأنكروا حتى بطشوا بنا ، فتضاربنا واقتتلنا ، فأخذ سعد لحى جمل فضرب به رجلاً من المشركين فأشجه شجة أوضحت ، فأنكر المشركون وقوى أصحابى ، وطردناهم حتى خرجوا من الشعب ، فكنت أول من هراق دماً فى الإسلام[1]

وكانت تلك بداية المعارك للدفاع عن العقيدة ، ومناصرة القيادة

المناصرة باللسان

لم يضن المسلمون بجهد يستطيعونه فى مناصرة القيادة ، فكانت باللسان تارة ، وبالسنان تارة أخرى ، كانوا يدافعون بألسنتهم حين لا يملكون الدفاع بغيرها ، من ذلك ما حدث لزيد بن الدثنة رضى الله عنه بعد أن تمكن منه المشركون وعلقوه ليقتلوه ، يقول القسطلانى : نادى أبو سفيان بن حرب زيداً ، يا زيد أتحب أن تكون فى أهلك وولدك ومحمد فى مكانك هذا ؟ فيرد زيد عليه ، لا والله ، لا أحب أن أكون فى أهلى وولدى ورسول الله ﷺ يفدينى بشوكة فى قدمه .

قال أبو سفيان : ما رأيت أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمدا[2]

وفى مختصر السيرة عن خباب رضى الله عنه قال : كنت قينا — حداداً — بمكة ، فعملت للعاصى بن وائل السهمى ، فجئت أتقاضاه ، فقال : لا أعطيك حتى تكفر بمحمد ، فقلت لا.لا أكفر بمحمد ﷺ حتى يميتك الله ثم يحييك[3] .

وفى رواية أنس رضى الله عنه عند البيهقى قال خرج عمر متقلداً بالسيف ، فلقيه رجل من بنى زهرة ، فقال : أين تعمد يا عمر ؟ فقال له أريد أن أقتل محمداً ، قال : وكيف تأمن بنى هاشم وبنى زهرة وقد قتلت محمداً ؟

---

(١) الأوائل للعسكرى ص ١٧٢

(٢) المواهب اللدنية جـ ١ ص ١٠٢

(٣) مختصر السيرة ص ١٢٦

قال : ما أراك إلا صبوت ، قال : أفلا أدلك على العجب ؟ إن أختك وختنك ـــ زوج أختك ـــ قد صبوا وتركا دينك .

فمشى عمر فأتاهما وعندهما خباب ، فلما سمع عمر توارى فى البيت ، فدخل فقال : ما هذه الهينمة ؟ ـــ وكانوا يقرأون طه ـــ قالا : ما عدا حديثاً تحدثناه بيننا ، قال : فلعلكما قد صبوتما فقال ختنه ، يا عمر إن كان الحق فى غير دينك ؟ .فوثب عليه عمر فوطئه وطأً شديداً ، فجاءت أخته لتدفعه عن زوجها ، فنفحها بيده ، فدمى وجهها ، فقالت وهى غضبى : إن كان الحق فى غير دينك ؟ إنى أشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، فقال عمر أعطونى الكتاب الذى عندكم فأقرأه ـــ وكان عمر يقرأ الكتاب ـــ فقالت أخته : إنك رجس ولا يمسه إلا المطهرون ، فقم واغتسل وتوضأ ، فقام وتوضأ ثم أخذ الكتاب فقرأ « طه » حتى بلغ قوله تعالى : ﴿ **إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى** ﴾[1]

تلك مواقف مشهودة يسطرها التاريخ بكثير من الاعتزاز والفخر لهؤلاء المستضعفين الذين لا يملكون إلا قلوبهم وألسنتهم ، ولم تكن قلوبهم إلا أوعية لإيمانهم ، وليست ألسنتهم إلا سيوفاً ينافحون بها عن إيمانهم وقيادتهم .

فزيد بن الدثنة أسير لا يملك إلا لسانه ، ولم يهب القوم ودافع به « لا أحب أن أكون معافى فى أهلى ، ومحمد مكانى يفدينى بشوكة فى قدمه »

وخباب غريب ضعيف لا يملك إلا الإصرار على الحق ، وقد فعل دون تقصير « لا أكفر بمحمد حتى يميتك الله ثم يحييك » وأما أخت عمر فهى امرأة فى بيتها ، ولم يكن زوجها يتوقع قدوم عمر ، فلم يكونا على استعداد لمواجهته ، ولما يفتهما ، لم يكونا يملكان إلى الحجة التى تدمغه ، وتدله على الحق ، ولم يكتماها « إن كان الحق فى غير دينك » ؟ فلما أراد أخذ الصحيفة قالت أخته: « إنك رجس ولا يمسه إلا المطهرون »

ومناصـــرة بالســـلاح :

كما دافع المسلمون عن عقيدتهم وقيادتهم بألسنتهم حين كانوا لا يملكون

---

(١) رواه الحاكم والبيهقى .

غيرها ، دافعوا عن عقيدتهم وقيادتهم بأسلحتهم حين أذن لهم فى ذلك ، فخاضوا أعنف المعارك ، واقتحموا أصعب الأهوال ، دفاعاً عن الحق الذى اعتنقوه ، ودرءاً عن القيادة التى تمثل تلك العقيدة

لما خلص المشركون إلى رسول الله فى غزوة أحد ، وكادوا يلتهمونه بسيوفهم ورماحهم ، تترس حوله رجال من المسلمين ، حتى لا ينال المشركون منه مأربهم

فأبو دجانة رضى الله عنه تترس عنه بظهره ، وكان النبل يقع فيه ، ولا يتحرك عنه[1] ، وعلى كرم الله وجهه أخذ بيده ، وأخرجه من الحفرة التى وقع فيها[2] ودافع بين يديه دفاعاً عظيماً ، وطلحة بن عبيد الله وقاه بنفسه ، وحارب عن يمينه وشماله ، حتى روى البخارى عن قيس قال : رأيت يد طلحة ابن عبيد الله شلاء ، وقى بها النبى ﷺ يوم أحد

وفى صحيح ابن حبان عن عائشة رضى الله عنها قالت قال أبو بكر الصديق : لما كان يوم أحد انصرف الناس عن النبى ﷺ فكنت أول من فاء إليه ، فرأيت بين يديه رجلاً يدافع عنه ويحميه فقلت : كن طلحة فداك أبى وأمى فلم أنشب أن أدركنى أبو عبيدة بن الجراح ، وإذا هو يشتد كالطير حتى لحقنى ، فدفعنا إلى النبى ﷺ فإذا طلحة بين يديه صريعاً ، فقال النبى ﷺ « دونكم أخاكم فقد أوجب » قال : فأقبلنا على طلحة نعالجه ، وقد أصابه بضع عشرة ضربه

وعن عائشة رضى الله عنها قالت كان أبو بكر إذا ذكر يوم أحد قال ذلك يوم كله لطلحة[3]

وكان لسعد بن أبى وقاص دور مهم وعظيم ، فكان رسول الله ﷺ كنا كنانته وقال : « ارم فداك أبى وأمى » وروى عن سعد رضى الله عنه قال : سل لى رسول الله ﷺ كنا منه وقال : « ارم فداك أبى وأمى »[4]

(١) المواهب اللدنية جـ ١ ص ٩٦
(٢) نفس المصدر ص ٩٥
(٣) مختصر سيرة الرسول ص ٢٤٨
(٤) نفس المصدر والصفحة .

وقاتل مصعب بن عمير رضى الله عنه دون رسول الله حتى قتل قتله ابن قمئة يظنه رسول الله ﷺ(١)

وفى البخارى رحمه الله « مر أنس بن النضر بقوم قد ألقوا بأيديهم فقال : يا قوم ، ما تنتظرون ؟ فقالوا : قتل رسول الله ، فقال ما تصنعون بالحياة بعده ؟ فقوموا فموتوا على ما مات عليه . ثم استقبل الناس ولقى سعد بن معاذ فقال : يا سعد إنى لأجد ريح الجنة من دون أحد ، ثم استقبل المشركين وقال : اللهم إنى أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء ـــ يعنى المشركين ـــ وأعتذر إليك مما صنع هؤلاء ـــ يعنى المسلمين ، ثم قاتل حتى قتل ، فما عرفه إلا أخته ببنانه ، ووجدوا به سبعين ضربة » .

وكذلك قاتل عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه حتى أثخنته الجراح ووجدوا به عشرين جراحة ، بعضها فى رجله ، ظل يعرج منها حتى مات(٢) .

تلك فدائية نادرة لم تعرفها الدنيا من قبل أصحاب رسول الله ﷺ ورضى الله عنهم أجمعين جادوا بأنفسهم وأرواحهم لحماية عقيدتهم وقيادتهم ـــ والجود بالنفس أقصى غاية الجود ـــ .

لقد علم الجنود أن اللسان لا يغنى فى هذا الموقف شيئاً ، فامتشقوا السلاح ، وأيقنوا أن الكلمة لا مجال لها هنا ، فجردوا الحسام ، وتأكدوا أن الأمر جد خطير لا يحسمه إلا البذل والكفاح فبذلوا المهج والأرواح

ثم مناصرة بالأموال

والمال شقيق الروح وقد يحرص عليه الإنسان أكثر مما يحرص على نفسه ، علم الله ذلك من عباده فانتدبهم لبذله وحثهم على الخروج من شح أنفسهم بإنفاقه ، فى سبيل الله ، ولعل تقديم الأموال على الأنفس فى آيات الجهاد توضيح لمكانة المال من نفوس الرجال ، وتحريض لهم على التبرع به لينالوا منازل الأبرار .

---

(١) نفس المصدر ص ٢٤٩

(٢) مختصر سيرة الرسول ص ٢٤٩

قال تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض ﴾[1]

﴿ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله ، وأولئك هم الفائزون ﴾[2]

﴿ انفروا خفافاً وثقالاً ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ﴾[3] ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون ﴾[4]

﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ؟ تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾[5]

هذا الحرص على تقديم الأموال على الأنفس فى معظم آيات الجهاد يفيد تذكيرنا بقيمة بذل الأموال لمناصرة العقيدة والقيادة ويبين منزلة الأموال حين تبذل ولا تكنز ، ويضحى بها ولا يضحى لأجلها

إن الجنود وهم ينصرون الحق بألسنتهم ، ويبذلون فى سبيله أرواحهم ، ويخرجون من أجله عن أموالهم يكونون قد أدوا واجبهم نحو عقيدتهم ، وقيادتهم ، وبدون ذلك يكون هناك نوع من التقصير يجب أن يسعى المسلم للتخلص منه

إن المناصرة بالكلمة والروح ، دون بذل الأموال مع وجودها ثلمة فى عقيدة المسلم ، ووهن فى إيمانه ، وإن إمساك الأموال وعدم بذلها مع الحاجة إليها سبيل للشيطان ، يدخل منه إلى قلب المؤمن ، فيبغض إليه الموت ، ولو كان فى سبيل الله ، ويتمنى الحياة ليستمتع بأمواله ، ويخوفه من قول كلمة الحق ، حتى لا يتعرض لسخط الناس ، فلا يسعد بما اكتنز من أموال ،

---

(١) سورة الأنفال ٧٢

(٢) سورة التوبة ٢٠

(٣) سورة التوبة ٤٠

(٤) سورة الحجرات/ ١٥

(٥) سورة الصف ١٠ــ ١١

وهكذا يكون إمساك المال مضيعة لجميع أنواع المناصرة .

فهم هذا المعنى عبد الله بن رواحة رضى الله عنه أحد القواد الثلاثة فى غزوة مؤتة ، فإنه بعد استشهاد صاحبيه ، أخذ الراية ، وتردد بعض التردد ، أيقدم أم يحجم ؟ والرسول مفزع والخطب جسيم ، فإن المسلمين خمسة آلاف ، يواجهون مائتى ألف من الروم وحلفائهم العرب .

ولكنه رضى الله عنه استجمع إيمانه ، واستعرض أسباب تردده ، فخشى أن يكون حب الدنيا ، والركون إلى ما فيها من أزواج وأموال ، وخاف أن يكون حب الحياة وتعلقها بنفسه هو سبب هذا التردد ، فعزم على نفسه لتردن موردصاحبيه ، وكأنه خاطب نفسه قائلاً :

يا نفس مالك تترددين فيما أقدم عليه صاحباى ؟ أتحبين العودة إلى النساء ؟ نسائى كلهن طوالق ، أترغبين فى الاستمتاع بالأموال ؟ ؟ أموالى كلها حبس فى سبيل الله ، أتتعلقين العودة إلى العبيد والإماء ؟؟ ؟ عبيدى كلهم أحرار ، ثم أنشد

أقسمت يا نفس لتنزلنه لتنزلـــن أو لتكرهنـــــه
إن أجلب الناس وشدوا الرنه ما لى أراكى تكرهين الجنة
هل أنت إلا نطفة فى شنة ؟

وعاتب نفسه على ترددها ، ولامها إذ لم تقتد بهديهما فقال :

يا نفس إن لم تقتلى تموتى هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقـد أعطيت إن تفعلى فعلهمـا هديت

وبهذا يتخلص ابن رواحة رضى الله عنه من كل ما يشده إلى الدنيا ويربطه بالأرض ، فيطلق نساءه حتى لا تتشوق نفسه إليهن ويحبس أمواله حتى لا تتعلق نفسه بها ، ويعتق عبيده حتى لا ترغب نفسه عن الجهاد بسببهم ، ثم يقدم فيموت كما مات صاحباه .

ونحن نرى أبا بكر الصديق رضى الله عنه فى يوم الهجرة يأخذ ماله كله ويسأله رسول الله ﷺ وماذا أبقيت لعيالك ؟ فيقول : أبقيت لهم الله

ورسوله ، وكان ماله خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف »[1] .

وفى يوم غزوة العسرة يكون المسلمون فى حاجة ملحة إلى المال ، ورسول الله ﷺ يحرض الناس على الإنفاق ، فيسرع عمر رضى الله عنه ويحضر نصف ماله ، فيجد أبا بكر رضى الله عنه سبقه بماله كله ، وكان أربعة آلاف درهم[2] فيقول عمر والله لا أباريه بعدها أبدا

ويقدم عبد الرحمن بن عوف مائتى أوقية من فضة ، فيجد عثمان بن عفان رضى الله عنهما قد جهز مائتى بعير بأقتابها وأحلاسها ، ومائتى أوقية من الذهب[3] ، وترسل النساء كل ما قدرن عليه من مسك ومعاضد وخلاخل وقرط وخواتم[4]

ويرى رسول الله ﷺ ذلك فتقر عينه ، ويثلج صدره ، وينظر إلى صدقة عثمان ، ويقول : اللهم ارض عن عثمان فإنى راض عنه[5] ، ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم[6]

هكذا كان المسلمون يتنافسون فى الخيرات ، ويتسابقون إلى الطاعات .ويخرجون عن أموالهم طائعين ، ينصرون بها قيادتهم ، ويدافعون عن عقيدتهم ، ملبين قول الله تعالى

﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون فى سبيل الله ، بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، يغفر لكم ذنوبكم ، ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم ، وأخرى تحبونها ، نصر من الله وفتح قريب ، وبشر المؤمنين ﴾[7] .

---

(١) سيرة ابن هشام م ١ ص ٤٨٨ .

(٢) مختصر سيرة الرسول ص ٣٩١ ، ٣٩٢

(٣) المواهب اللدنية جـ ١ ص.١٧٢

(٤) مختصر السيرة ص ٣٩٢

(٥) ابن هشام م ٢ ص ٥١٨

(٦) رواه الترمذى .

(٧) سورة الصف ١٠ ــ ١٣

٣ـ النصح والتسديد

والنصيحة واجبة على كل مسلم ، قادر عليها عارف بطرق تأديتها ، ولقد عظم رسول الله ﷺ شأن النصيحة التى جعلها هى الدين ، ذلك لأن إهمال النصيحة يؤدى إلى تفكك الأمة وتفرقها ، وانتشار الفوضى فى أنحائها ، وتأدية النصيحة يقيم الأمة ويوحدها ، ويشد أزرها ويدعمها ، ويقضى على الفوضى ، ويدمرها ، ولهذا قال ﷺ « الدين النصيحة ، قلنا لمن ؟ قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم »[١]

والنصيحة بهذا المعنى أعم من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لأن النصيحة تشمل ذلك وزيادة ، وهى بهذا المعنى أيضاً تكون فرض كفاية على الأمة ، إذا قام به البعض ، سقط الإثم عن الجميع وإلا أثموا جميعاً

والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ــ كما قلت ــ من النصيحة التى يستقيم بها أمر الأمة ، وتكون بها خير الأمم جميعاً ، قال تعالى : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله** ﴾[٢]

ومراتبه ثلاث أعلاها التغيير العملى ، وأدناها إنكار القلب ، وتأمله للمنكرات ، ورضاه واغتباطه بالمعروف ، وأوسطها التوجيه المخلص بالكلمة الطيبة وعلى أن يكون ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة كما أمر الله سبحانه

واتفق العلماء على أن التغيير باليد لا يكون إلا عند القدرة عليه ومن القادر عليه كأولى الأمر بمعناها العام ، حتى تشمل الوالد فى بيته والرئيس فى عمله ، بحيث يكون كل واحد من هؤلاء مسئولاً عن كل من تحت يده ، وعندئذ يغير المنكر بيده ، ويقيم المعروف بنفسه ذلك لأنه بهذه المثابة راع على من هم تحت يده ، وهو مسئول عن هذه الرعية مسئولية تامة ، وعليه ليرفع عن نفسه تبعة تلك المسئولية أن يراعى حقوق الله ، فإن رأى خللاً فى عمله أو فى بيته قومه وعدله ، وإن رأى حسناً أقره وحث عليه فيعاقب على التقصير

---

(١) رواه مسلم م ١ ص ٥٣ .

(٢) سورة آل عمران ١١٠

بعد أن يبذل جهده فى الإصلاح والتوجيه ، ويثيب ويكافىء على الإحسان والمحافظة على فعل الخير

والله تبارك وتعالى قد أمرنا بضرب النساء بعد وعظهن وهجرهن إذا أصررن على النشوز ، وذلك تغيير باليد ، والرسول ﷺ أمرنا بضرب أبنائنا إذا بلغوا عشر سنين ولم يصلوا ، وذلك تغيير باليد

قال تعالى ﴿ **واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن ، واهجروهن فى المضاجع ، واضربوهن** ﴾[1]

ويقول ﷺ « مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين ، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين »[2]

وأما الإنكار بالقلب ، والتألم لرؤية المعاصى ، فلا يجوز الاكتفاء به إلا ممن كان عاجزاً عن التغيير باليد واللسان ، لأنه أدنى مراتب الإيمان ، والحالة التى تليه مخيفة ومزعجة ، إذ ليس وراء ذلك من الإيمان مثقال حبة من خردل ، فمن رأى المنكر وسر به ، أو رأى المنكر ولم يتغير قلبه ويتألم لما رأى ، فهو على خطر عظيم ، لأنه بذلك يكون قد انحدر إلى ما دون أضعف الإيمان وفقد مثقال الحبة التى تتحقق بتألم القلب واشمئزازه من المعصية ، لهذا يقول ﷺ « فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل »[3]

وأما التوجيه والإصلاح بالكلمة الطيبة ، فذلك أوسط الأمور الثلاثة ، وهو مقدور لكثير من الناس

واشترطوا فيه شروطاً فى الناصح ، وشروطاً فى النصيحة

شروط الناصح

أولاً : أن يكون عالماً بالحكم الشرعى لما يأمر به أو ينهى عنه ، لأنه إذا لم

---

(١) سورة النساء ٣٤

(٢) من حديث لأحمد فى مسنده .

(٣) رواه مسلم م ١ ص ٥٠ — ٥١ من حديث طويل .

يكن عالماً بالحكم الشرعى يتعرض للخلط والخطأ فيحسب السنة واجباً والمكروه حراماً ، ولا يفرق بين البدعة والسنة وبالعكس ، وحينئذ قد يقع فى المحذور فيأمر بالمنكر وينهى عن المعروف ، ويترتب على ذلك من المفاسد ما لا تحمد عقباه ، ويكون الناصح عرضة للسخرية والاستخفاف مما يصرف الناس عنه فلا يفيد ولا يستفاد منه .

ثانياً أن يتحرى الطريقة المناسبة عند أمره ونهيه مراعياً الظروف والأحوال التى يعيش فيها الناس لأنه إذا لم يتحر الطريقة المناسبة ، ولم يراع ظروف المنصوحين وأحوالهم عند الأمر والنهى يترتب على ذلك من الأضرار ما كان المسلمون فى غنى عن الوقوع فيه ، فقد يشتد فى موضع اللين فينفر منه الناس ولا يستمعون إليه ، أو يغلظ فى موطن الرفق ، أو يتهاون فى موقف لا يصلح فيه إلا الحزم ، وعندئذ تضيع الفرصة وتنعدم الفائدة ، فلا يستفيد المنصوح ، ولا يثاب الناصح

ثالثاً : أن يكون عاملاً بما ينصح به الناس مطبقاً له على نفسه وأهله ومن يعول ، لأنه إذا لم يعمل هو بما يأمر به الناس لا يصل نصحه إلى القلوب ، ولا تتجاوب مع كلامه النفوس ، فيظل كلامه جافاً لا يتجاوز آذان الناس ، ونصحه هزيلاً ، لا يقوى على اقتحام قلوبهم ، ويضع نفسه بذلك موضع الهمزواللمز ، وقديماً قال الشاعر

وغير تقى يأمر الناس بالتقى طبيب يداوى والطبيب مريض

وقال آخـر

ياأيها الرجل المعلم غيـره هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذى السقام وذى الضنى كيمـا يصح به وأنت سقيم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها فإذا انتهت عنه فأنت حكيـم

ولقد نعى الله عز وجل على قوم يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم ، واعتبر ذلك ضلالاً فى الرأى ، وقلة فى العقل ، فقال تعالى ﴿ **أتأمرون الناس بالبر ، وتنسون أنفسكم ، وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ؟** ﴾[1]

(١) سورة البقرة ٤٤

واعتبر سبحانه وتعالى الكلام وعدم الفعل مقتاً كبيرا لا يليق بالمؤمنين فقال : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ؟ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون** ﴾(١)

والآيتان الكريمتان مصدر الاستدلال على الشرط الثالث .

وأما الشرطان الأولان فمصدرهما قوله تعالى ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة** ﴾(٢)

فالحكمة هنا هى الحجج القطعية الصحيحة كما قال صاحب فتح القدير ، أو هى الأدلة اليقينية الموضحة للحق ، المزيحة للشبه كما صرح بذلك البيضاوى .

المعنيان متحدان فى وجوب معرفة حكم الشرع وأدلته عند دعوة الناس إلى الخير ونهيهم عن الشر .

والموعظة الحسنة هى المواعظ المفيدة المستحسنة التى يستحسنها السامع لأنها تعود عليه بالنفع والفائدة .

وهذا هو ما قاله صاحبا التفسيرين السابقين وجمهور من المفسرين ، وهى تحتم ضرورة تحرى الطرق المناسبة المفيدة للمنصوح ، واتباعها عند تقديم النصيحة حتى تقع موقعها

ولقد علمنا رسول الله ﷺ كيف نقوم بهذا الواجب فى أمثلة عملية مع أصحابه رضوان الله عليهم حين جاءه أعرابى فجذبه بردائه فحمر رقبته ـــ وكان رداء خشناً ـــ فالتفت إليه ، فقال الأعرابى : احملنى على بعيرى هذين ، فإنك لا تحملنى من مالك ، ولا من مال أبيك ، فقال له ﷺ : لا وأستغفر الله ، لا وأستغفر الله ، لا وأستغفر الله ، لا أحملك حتى تقيدنى من جذبتك التى جذبتنى ، فقال الأعرابى : والله لا أقيدكها ، عندئذ دعا رسول الله رجلاً ، وقال له : احمل له على بعيريه هذين ، على بعير تمراً ، وعلى الآخر شعيراً(٣) .

---

(١) سورة الصف ٢ ـــ ٣

(٢) سورة النحل ١٢٥

(٣) المواهب اللدنية جـ ١ ص ٢٩١

وعن زيد بن سعنة قال : ابتعت من رسول الله ﷺ تمراً إلى أجل ، فأعطيته الثمن فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاثة ، أتيت فأخذت بمجامع قميصه وردائه ، ونظرت إليه بوجه غليظ ، ثم قلت ، ألا تقضيني يا محمد حقي ؟ فوالله إنكم يا بنى عبد المطلب مطل ، فقال عمر : أى عدو الله ، أتقول لرسول الله ﷺ ما أسمع ؟ فو الله لولا ما أحاذر فوته لضربت بسيفي رأسك ، ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر فى سكون وتؤدة وتبسم ، ثم قال : أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا منك يا عمر ، أن تأمرني بحسن الأداء ، وتأمره بحسن التباعة ، اذهب به يا عمر ، فاقضه حقه ، وزده عشرين صاعاً مكان ما رعته ، ففعل .

فقال زيد : يا عمر ، كل علامات النبوة عرفتها فى وجه رسول الله ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما : يسبق حلمه جهله ، ولا تزيده شدة الجهل إلا حلما ، فقد خبرتهما ، فأشهدك أن قد رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا ، وبمحمد نبيا(١) .

شــروط النصيحة

وليس المراد بالشـرط هنا ما تعارف عليه الفقهاء ، وعرفوه بأنه « ما لا يوجد المشروط مع عدمه ، ولا يلزم أن يوجد عند وجوده »(٢) ولكن المراد بالشرط الأمور التى يستحسن وجودها عند القيام بالأمر حتى ترجى الفائدة منه ، وقد تكلم العلماء فى ذلك ، وأكدوا على ما يأتى :

١ ــ الســرية .
٢ ــ ألا تؤدى النصيحة إلى ضرر أكبر
٣ ــ غلبة الظن باستجابة المنصوح .
٤ ــ تقديم النصيحة بصورة تؤدى إلى قبولها

وقالوا : إن وجود هذه الشروط يجعل النصيحة مفيدة ويدعو المنصوح

---

(١) المواهب اللدنية جـ ١ ص ٢٩٠ ــ ٢٩١

(٢) مطالب أدلى النهر ص ٣٠٥

إلى تقبل النصح ، وبذلك يكون عمل الدعاة إلى الله مثمراً ، وجهدهم مشكورا

أولاً السرية فى النصح ، وذلك مطلوب ومهم إذا كان المنصوح شخصاً بعينه ، والخطأ غير متكرر من الناس ، ففى هذه الحالة تكون السرية هى أفضل السبل إلى تأثير النصيحة فى المنصوح ، ولهذا قالوا « من نصح أخاه سراً فقد زانه ، ومن نصحه جهراً فقد أهانه وشانه »

أما إذا كان الخطأ متكرراً شائعاً ، أو كان المقصود تحذير الناس من الوقوع فيه ، أو تعليم الناس أمراً هاماً ما يحتمل التباسه عليهم ، فعندئذ يكون الجهر بالنصيحة أفضل من الإسرار

وحين يجهر بالنصح لا يذكر اسماً بعينه ، ولا يخص شخصاً بذاته ، بل يفعل كما فعل رسول الله ﷺ حين وقف ينبه على بعض الأخطاء التى وقعت من أناس معلومين له ﷺ ومع ذلك لم يذكر أسماءهم ، ولم يعين شخصاً منهم ، بل قال ما بال أقوام يقولون كذا وكذا

فالسرية إذن ليست شرطاً لازماً لكل نصيحة ، كما أن الجهر ليس بغيضاً فى كل نصيحة ، بل لكل منهما مناسبته وظروفه التى تحدد نوع النصيحة ، وطريقة أدائها

ثانياً ألا تؤدى النصيحة إلى وقوع ضرر أكبر ، وذلك شرط حتمى فى كل نصيحة ، ذلك لأننا نريد بالنصيحة رفع ضرر محظور فإذا ترتب على فعلها وقوع ضرر أكبر يكون السكوت أفضل من تأديتها ، فالعاقل لا ينهى عن السيجارة لتشرب الخمر ، ولا ينهى عن شرب الخمر ليقتل نفساً ، ولا يستنكر النظرة ليتسبب فى هتك عرض ، ولا يأمر باستعمال السواك حين يغلب على ظنه أن المأمور قد يترك الصلاة ، ولا يحض على تقصير الثوب وهو يظن أن ذلك قد يؤدى إلى إسباله وجره خيلاء

فدفع أعظم الخطرين حتى إذا لم يكن بد من دفع أحدهما ، وتحمل أخف الضررين ، واجب إذا كان لا بد من تحمل أحدهما

تلك قاعدة أصولية استقر عليها أمر العلماء ، ونحن ملزمون بتطبيقها والسير على هديها ، فأيما أمر بمعروف أدى إلى فعل محرم أعظم من المتروك فالمعروف هنا هو ترك الأمر بالمعروف ، وأيما نهى عن منكر أدى إلى ارتكاب منكر أكبر منه فالمنكر هنا هو النهى عن المنكر والإرشاد أن يعرف هذه الحقيقة ، وأن يتدبر عاقبة أمره عند الأمر والنهى .

وليس معنى هذا أن نقف أمام المنكر متفرجين ، وأن نسكت عن الأمر بالمعروف حتى تظهر نتائج البحث والدراسة بل يكفى فى ذلك غلبة الظن ، وتجربة المرشد ، وحسن النية .

فالحسن بن على رضى الله عنهما قد بايعه الناس بالخلافة بعد أبيه ، واجتمع عليه أربعون ألفاً من المسلمين ، كلهم كان الحسن أحب إليه من أبيه ، وكانوا أطوع له من بناته ، وسار بهم فعلاً إلى معاوية ، واضطر معاوية أن يخرج بجيش الشام لصدهم .

وتقارب الجمعان ، وكانت الحرب وشيكة الوقوع ، فرأى الحسن رضى الله عنه أن خلع معاوية لن يتم إلا بعد هلاك المسلمين ، وأن الأمر لن يخلص لأحدهما حتى يذهب أكثر الفئتين ، عندئذ أقر معاوية على وضعه — مع ما فى ذلك من مخالفة خطيرة لقاعدة اختيار الخليفة فى الإسلام — وتنازل عن حقه ، ليحقن دماء المسلمين وليخمد فتنة كادت تقضى عليهم

لا شك أن اقتناص الحكم ، والوثوب عليه من غير طريقه المشروع أخف ضرراً من إزهاق أرواح المؤمنين ، وإشعال نار الفتنة بينهم لهذا رضى الحسن بتحمل أخف الضررين ، ودفع أفدح الخطرين .

وخطبة الحسن رضى الله عنه بعد تنازله لمعاوية تثبت تلك الحقيقة ، فقد روى الشعبى قال : لما جرى الصلح بين الحسن ومعاوية قال له معاوية : قم فاخطب بالناس ، واذكر ما كنت فيه ، فقام الحسن ، فخطب فقال : الحمد لله الذى هدى بنا أولكم ، وحقن بنا دماء آخركم ، إلا أن أكيس الكيس التقى ، وأعجز العجز الفجور ، وإن هذا الأمر الذى اختلفت فيه أنا ومعاوية إما أن يكون كان أحق به منى ، أو يكون حقى تركته لله ، وإصلاح أمة محمد ﷺ وحقن دمائهم ، ثم التفت إلى معاوية فقال : « وإن أدرى لعله فتنة لكم

ومتاع إلى حين »[1]

وأما خروج الحسين رضى الله عنه على يزيد بن معاوية فلأنه كان يعتقد أن له شيعة فى الكوفة سيؤيدونه وينصرونه ، فلما تبين له الأمر ، ووقف على حقيقته ، عزم على الرجوع ، وطلب من جيش يزيد السماح له بالعودة ولكن الجيش لم يسمح له واضطر إلى خوض المعركة

روى الدينورى أن عمر بن سعد أرسل إلى الحسين وهو بكربلاء يسأله ، ما أقدمك ؟ فقال الحسين لرسول عمر « أبلغه عنى أن أهل هذا المصر كتبوا إلى يذكرون ألا إمام لهم ، ويسألوننى القدوم عليهم ، فوثقت بهم ، فغدروا بى ، بعد أن بايعنى منهم ثمانية عشر ألف رجل ، فلما دنوت فعلمت غرور ما كتبوا به إلى أردت الانصراف إلى حيث منه أقبلت ، فمنعنى الحر بن يزيد ، وسار حتى جعجع بى فى هذا المكان ، ولى بك قرابة ، قريبة ، ورحم ماسة ، فأطلقنى حتى انصرف »[2]

فلولا اضطرار الحسين رضى الله عنه لعاد إلى حيث أتى لتأكده أن الخسائر ستكون أفدح وأعظم من المكاسب ، ولهذا طلب العودة وعدم القتال

ثالثاً غلبة الظن باستجابة المنصوح ، وهذا الشرط ليس حتمياً ، واختلف فيه العلماء ، فقال به بعضهم وأكده ، وحجته فى ذلك أنه إذا لم يغلب على الظن أن المنصوح سيستجيب لا تكون هناك فائدة مرجوة من النصيحة والنصيحة إنما تبذل للاستفادة بها ، والعمل بمضمونها ، لا لمجرد القول فإذا لم يتغلب رجحان الظن بعمل المنصوح بها فلا حاجةإلى بذلها

وأما الذين لا يرون اشتراط ذلك ، فحجتهم أن المسلم مأمور بتأدية النصيحة ، وبذلها لمن هو بحاجة إليها ، وليس هناك دليل شرعى يستند عليه ممسك النصيحة إذا لم يغلب عليه الظن باستجابة المنصوح ، فعلى المسلم أن يبذل النصيحة ، ولا يضن بها ، سواء استجاب المنصوح . أم لم يستجب ، ذلك لأنه مسئول عن النصيحة ، وسيحاسب على تركها ، ولكن ليس مسئولاً عن عدم استجابة المنصوح ، فعليه أن يسقط مسئوليته ببذل النصيحة ، وليس

(١) مختصر سيرة الرسول ص ٥٠٣ — ٥٠٤ والآية من سورة الأنبياء ١١١

(٢) الأخبار الطوال ص ٢٥٣ — ٢٥٤

عليه أن يبوء المنصوح بإثم عدم الاستجابة .

وهذا هو أعدل الرأيين فى المسألة ، وأوفقهما لأحكام الشرع وأنسبهما لمهمة الدعاة والمصلحين ، وقديماً قال الشاعر :

على المرء أن يسعى إلى الخير جهده ولـيس عليـه أن تتم المقـاصد

رابعاً : وتقديم النصيحة فى صورة مشرفة ، لا لوم فيها ولا تعنيف ، خالية من جرح شعور المنصوح ، أو إظهاره فى صورة المخالف الجاهل شرط فى قبول النصيحة والاستفادة منها .

دخل أحد الوعاظ على هارون الرشيد فأغلظ فى نصحه ، وأغلظ فى نكيره ، فقال هارون : ما هكذا تكون النصيحة ، إن الله عز وجل قد أرسل من هو خير منك إلى من هو شر منى ، وأمرهما أن يلينا القول ويحسنا العرض ، فقال عز من قائل ﴿ **اذهبا إلى فرعون إنه طغى ، فقولا له قولاً لينا لعله يتذكر أو يخشى** ﴾[1] .

والآية الكريمة هى دليل من اشترط هذا الشرط ، ومفهوم الآية ، أن لين القول ، وحسن العرض يثمر التذكر والخشية بإرادة الله عز وجل وعدم استفادة فرعون من النصيحة مع استكمال شروطها يؤكد أن بذل النصيحة واجب وإن لم يستجب المنصوح .

والغالب المشاهد أن النصيحة إذا استكملت شروطها ، وأديت على وجهها تؤتى ثمرتها ، والنموذج العملى الرائع لتأدية النصيحة مستكملة شروطها ، مستوفية حقوقها ما حدث من شابين كانا يسيران فرأيا رجلاً شيخاً كبيراً يتوضأ ولا يحسن الوضوء ، فعزما على نصحه وإرشاده ، ولكنهما خشيا أن يرفض الشيخ ، فدبرا أمرهما ، وانتظرا حتى انتهى من وضوئه ، وتقدما إليه .

قال أحدهما : يا عماه إن أخى يتهمنى بأنى لا أحسن الوضوء ، ويزعم أنه يتوضأ خيراً من وضوئى ، وقد رأيناك تتوضأ فرضيناك حكماً ، فهل تقضى بيننا ؟

وأجاب الشيخ ، لا بأس يا بنى ، وتقدم الأصغر فتوضأ وضوءاً حسنا ، ثم تقدم الأكبر فأحسن وأسبغ ، عندئذ تنبه الشيخ لخطئه ، وقال : كلاكما أحسن

---

(1) سورة طه ٤٣ — ٤٤

وأسبغ ، وأنا الذى بحاجة لأن أتقن وضوئى وشكر لهما وانصرف الشابان .

تلك نصيحة استوفت شروطها ، فالناصح عالم بالحكم الشرعى ، وتحرى الطريقة المناسبة ، وعمل بما ينصح به

والنصيحة لم تؤد إلى ضرر قط ، وأديت فى صورة مشرفة جيدة قبلها المنصوح ، لهذا أثمرت وآتت أكلها ، فانتفع بها المنصوح ، ورفعت الحرج عن الناصح ، وعم خيرها ، فكانت درساً للذين يلون هذا الأمر من المسلمين ، يتأسون به ، ويسيرون على نهجه وهديه .

وليست النصيحة محصورة فى دائرة ضيقةلا تتعدى محيط العامة فى الشارع والدكان ، والمكتب والسوق ، والمسجد والمدرسة ولكنها تخترق هذا النطاق ، فتطرق دواوين الرؤساء ومكاتب الحكام ، وتصل إلى قلب كل إنسان ، وجعل الإسلام هذا النوع من النصح فى درجة عالية ، كما جعل مثوبتها قمة تقتصر دونها كل مثوبة ، حيث جعل أجرها الجنة ، وسماها أفضل الجهاد والناصح إذا قتل من أجل نصيحته فهو من سادة الشهداء يقول ﷺ : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر »[1]

ويقول : « سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله »[2]

وقد يستشكل بهذا الحديث على الشرط الثانى للنصيحة ، لأن القتل أعظم جرماً من مجرد الظلم ، فكيف نزيل هذا الإشكال ؟

الحقيقة أن القتل أشد من الظلم ، إذا كان الظلم واقعاً من فرد عادى من أفراد الأمة ، لأن ظلم الفرد العادى لا يتعدى اغتصاب حق إنسان ، أو الاعتداء على حرمة من الحرمات ، فإذا كانت النصيحة حينئذ ستؤدى إلى القتل ، فعدم أدائها أولى

أما ظلم الحكام ، واعتداء الإمام فإنه هلاك للأمة بأسرها ، وانحراف عن جادة الحق التى ما قامت الدولة الإسلامية إلا لتثبيتها ، كما أن فيه إذلالاً

---

(١) رواه أحمد فى مسنده .

(٢) رواه الحاكم .

للشعب ، وتحطيماً لمعنوياته ، وفى ذلك ضياع الأمة وتعريض لها لخطر الغزو من أعدائها

والسكوت على ظلم الإمام تشجيع له على التمادى فى الباطل ، ويهون عليه تعطيل الشريعة ، حتى ينتهى الأمر بإزالة معالم الدولة الإسلامية

وليس المقصود بظلم الحاكم ، ما يقع منه من ظلم على أفراد الرعية فإن الحاكم غالباً عنده ما يغنيه عن الاعتداء على حقوق رعيته وإنما المقصود انحرافهم عن الدين ، ومجاهرتهم بعداوته ، وتفضيل النظم المستوردة على نظمه من حيث التشريعات والسياسة والاقتصاد والأحوال الاجتماعية والأوضاع العسكرية إلى غير ذلك من النظم التى جاء بها الإسلام .

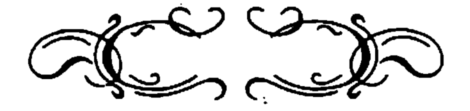
فإذا حصل من الحكام ذلك تحتم الوقوف فى وجوههم لإنقاذ الأمة من هذا الهلاك المحقق ، والتضحية بالنفس لنصرة الدين وتثبيت قواعده أمر مقرر فى الشريعة ، ولهذا أخبر ﷺ أن الرجل الذى يقف فى وجه السلطان الجائر ليرده عن جوره ويحمى الدين من شره ، إذا قتله الإمام لذلك ، كان سيد الشهداء .

ولقد أدت الرعية هذا الحق للإمام فى عهد رسول الله ﷺ وفى عهد الخلفاء الراشدين من بعده ، واستمر الأمر على ذلك حتى فسد الناس ، وسايروا الظالمين ، وخافوا الحكام ، ولم يخافوا الله فسكتوا على الظلم ، وبخلوا بالنصح ، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، ونسوا موقفهم بين يدى الله وتناسوا سؤاله سبحانه عن علمهم ماذا عملوا فيه ؟

وكان الخلفاء يشجعون الناس على قول الحق بتقبله منهم ، حتى قال قائلهم : « لا خير فيكم إذا لم تقولوها ــ كلمة الحق ــ ولا خير فينا إذا لم نسمعها » وفى الحديث الشريف « إذا هابت أمتى أن تقول للظالم يا ظالم ، فقد تودع منهم ، وباطن الأرض خير لهم من ظاهرها »

علم المسلمون أن النصيحة حق من حقوق القيادة فبذلوها تسديداً للحكام ، وإحقاقاً للحق ، وإنصافاً للناس ، ورفعاً للحرج عن أنفسهم ، وأخذاً بيد الأئمة إلى مثالية رفيعة ، عزلها نظير في تاريخ الحكومات قبل الإسلام .

وفتحت القيادة صدرها للجنود ليبدوا في سياسة الدولة ، ويشاركوا في توجيهها ، ويتحملوا نصيبهم من تبعاتها ، ولم لا ؟ وكل واحد منهم مرشح لأن يكون خليفة في دولة بنت سياستها على أن الأكفأ — ولو كان من الأدنين — هو الأجدر بقيادتها ، وتسيير دفتها ، وفي هذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « لو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً لاستخلفته »



أمثلة عمليـــة

من عهد الرســول

في غزوة بدر نزل رسول الله ﷺ أدنى ماء من مياه بدر ، ونظر الحباب ابن المنذر ، فوجد المكان غير مناسب ورأى أن المعركة تستلزم تخطيطاً غير ذلك ، فوقف في أدب الجندي أمام القائد وقال : يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ، ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟

قال : بل هو الرأى والحرب والمكيدة ، فقال : يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم ، فننزله ، ثم تغور ما وراءه من القلب ، ثم نبنى عليه حوضاً فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون .

فقال رسول الله ﷺ لقد أشرت بالرأى[1] وينهض القائد بجنده ، وينزل حيث أشار الحباب رضى الله عنه

لا شك أن الجندى إذا كتم هذه النصيحة ، وهو يعلم قيمتها يكون خائناً لقيادته ، لأنه قد يترتب على كتمانها من المفاسد ما يمكن أن تتجنبه لو فطنت لذلك ، ولا شك أن القيادة إذا رفضت تلك النصيحة بعدما تبين لها وجه الحق فيها ، والمصلحة التى تعود على المسلمين من اتباعها تكون مسئولة أمام الله عز وجل عن إهمال العمل بها مسئولية تعرضها للوم العنيف والوعيد الشديد ، وبالتالى تكون غير جديرة بقيادة أمة فيها أمثال هؤلاء الجنود ، ولكن الجندى أثبت إخلاصه بتقديم النصح ، وأثبتت القيادة جدارتها بقبوله .

وفى هذا الموقف الرائع آداب يجب استعراضها لنتأسى بها فى حياتنا ، ونستفيد منها فى توجيه جنودنا .

أولاً : الشجاعة الأدبية التى يتحلى بها الجندى المسلم ، والتى ربى

---

(١) سيرة ابن هشام م ١ ص ٦٢٠

الإسلام جنوده عليها ، وهى صفة يتحلى بها الرجال فتعلى من قدرهم وترفع من شأنهم ، وقد تجلت فى الحباب فى هذا الموقف الجرىء .

ثانياً : التقيد بأمر الله تعالى بحيث لا يجوز مخالفته فى صغيرة ولا كبيرة ، « يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل ، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ، ولا نتأخر عنه ؟ » .

ثالثاً : بذل النصيحة للقيادة إذا كان هناك مجال للرأى « قال الرسول بل هو الرأى والحرب والمكيدة » عندئذ يقول الحباب : « يا رسول الله ، هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم » .

رابعاً : احترام آراء الجند والاستماع إليهم ، وتنفيذ الصالح منها ، ويظهر ذلك فى احترام الرسول ﷺ لرأى الحباب حيث قال : « لقد أشرت بالرأى »

من عهد أبى بكر

وفى أول يوم يتولى فيه أبو بكر رضى الله عنه أمر المسلمين ، يرسم سياسته ، ويعلنها فى خطبة على المنبر ، فيقول « أيها الناس ،إنى قد وليت عليكم ، ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى عندى حتى أربح عليه حقه إن شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمهم الله بالبلاء ، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم[1]

وبهذه الكلمات القصيرة ذات اللمحات الكثيرة ، تفتح القيادة صدرها للجنود ، وتطلب منهم العون والتسديد ، وتؤهلهم لممارسة واجبهم فى بذل النصح ، وتسديد القيادة ، ومساندة الحق .

---

(١) الصديق أبو بكر ص ٧٢

ومن عهد عمر

ويأتى دور عمر بن الخطاب رضى الله عنه فيتولى أمر المسلمين بعد أبى بكر رضى الله عنه ويخطب الناس فيقول « اتقوا الله عباد الله ، وأعينونى على أنفسكم بكفها عنى ، وأعينونى على نفسى بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإحضارى النصيحة فيما ولانى الله من أمركم »[1]

وبين للناس أن عليهم الطاعة فى المعروف ، وأنه مستعد ليتلقى منه النصح والتقويم فقال : « أيها الناس من رأى فى اعوجاجاً فليقومه » فأجابه رجل منهم « والله لو علمنا فيك اعواجاجاً لقومناه بسيوفنا »

لم ينزعج عمر لما سمع ، ولم يبطش بالقائل المجترىء ، ولم يفرض الرقابة على الأفواه ، ولكن عمر رضى الله عنه سر لذلك وعبر عن هذا السرور بقوله : « الحمد لله الذى جعل فى عمر من لو رأى فيه اعوجاجاً قومه بسيفه »[2]

لم تكن تلك كلمة مجاملة ،ولم تكن كذلك لوناً من النفاق السياسى الذى يلجأ إليه الضعفاء من الحكام يخدعون به الشعوب ليستميلوا قلوبهم البلهاء ، بل كانت كلمة حق خرجت من قلب الخليفة لتستقر فى قلوب رعيته ، وقد أثبتت الأحداث صدق هذا الخليفة فيما دعا الناس إليه ، فلم يتبرم بنصح ، ولم يضق طول مدة خلافته بنقد

هم يوماً بتحديد قيمة الصداق ، فعارضته امرأة من الحاضرين على ملأ من الناس ، وقالت : « إن الله عز وجل يعطينا بالقنطار ، وأنت تريد أن تحدد ذلك يا عمر » والمرأة تشير إلى قوله تعالى : ﴿ **وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئا** ﴾ عندئذ يرجع عمر إلى الحق ، ويقول : « كلهم أعلم منك حتى النساء يا عمر » .

ووقف يوماً يخطب فقال : « أيها الناس اسمعوا وأطيعوا فأجابه رجل ،

---

(١) عبقرية عمر ص ١٠٨

(٢) نفس المصدر ص ١٠٩

لا سمع اليوم ولا طاعة يا ابن الخطاب .

قال عمر   ولم ؟

قال الرجل   لأنك أعطيت كلا منا ثوباً ونرى عليك ثوبين

قال عمر   يجيبك عن ذلك عبد الله بن عمر

فقام ابن عمر وقال : إن الثوب الثانى هو ثوبى ، وقد أعطيته أبى ليكمل به ثوبه ، حيث كان ثوب أبى قصيراً

قال الرجل : أما الآن فقل ، نسمع ونطيع .

لم يضق صدر عمر بهذا النقد ، ولم يبطش بالناقد لأنه يعلم أن الرجل يمارس حقه فى توجيه الحكام ، والأخذ بأيديهم إلى طريق الخير الذى يجعل المودة دائمة بينهم وبين شعوبهم ، ولأن عمر يحرص على أن الخليفة يجب أن يكون واحداً من المسلمين لا يتميز عليهم ، ولا يستأثر دونهم بشىء .

وكان عمر يرى أن الخليفة إذا ميز نفسه بشىء دون رعيته ولم يجد من يحاسبه ، ويذكره فإنه يستمرىء ذلك ، ويستفحل الأمر ، وتحدث الفتنة التى تفرق بين الحاكم وزعيته ، وذلك أول فساد يدب فى المجتمع ، ويقوض العلاقات الودية بين الحاكم وبين المحكومين

وهو أول خطوة فى طريق الاستبداد ، وبسببه تسير الأمم نحو حكم دكتاتورى بغيض ، فتنتكب الطريق ، وتضل السبيل ، وتطيح فى هوة سحيقة تفرق بين الحكام والمحكومين ، فلا يلتقيان بعدها أبدا

إن عمر فى نظر الأعرابى أخطأ الطريق ، فأحس بأنه مسئول عن تقويمه ، وإعادته إليه ، فقدم له النصيحة ، وإنما عمر رجل من المسلمين كما علمهم غير مرة ، فبأى حق يأخذ ثوبين ، ويأخذ الناس ثوباً ثوباً ، نعم إن عمر أثقل المسلمين حملاً ، وأكثرهم تبعة ، ولكن ذلك لا يمنحه حق التميز عن رعيته ، لهذا رأى الأعرابى أن ينصحه بالعدول عن هذا الخطأ ، أو ليس هو القائل : « وأعينونى على نفسى بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإحضار النصيحة ؟ »

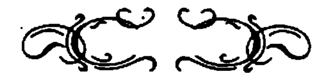
وجه الأعرابى النصيحة إلى عمر ، وقد جاءت فى صورة جافة خشنة ، ولكن عمر لم يغضب منها ، لأنه خبير بطبائع البدو وعاداتهم ومعاملاتهم ، لذلك تلقاها بصدر رحب ، وبين له الحقيقة .

ولم يكد الأعرابى يقف على حقيقة الأمر ، ويتبين له خطأ اعتقاده ، وظهرت له براءة الخليفة ، حتى بادر إلى السمع والطاعة « أما الآن فقل نسمع ونطيع » .

والله نسأل التوفيق والسداد والحمد لله رب العالمين .

وإلى اللقاء مع القسم الثانى

وهو الذى يبحث موضوع الجندية فى الإسلام



ثبت المراجـع

اسم الكتاب **اسم المؤلف**

أولاً القـرآن الكريم

ثانياً كتب الحديث

البخارى ــ محمد بن إسماعيل البخارى .
التاريخ الكبير ــ محمد بن إسماعيل البخارى .
الترمذى ــ محمد بن عيسى الترمذى .
أبو داود ــ سليمان بن الأشعث السجستانى
شعب الإيمان ــ أحمد بن الحسين البيهقى
فتح البارى ــ أحمد بن على العسقلانى
مسـلم ــ مسلم بن الحجاج القشيرى .
مختصر صحيح مسلم ــ عبد العظيم بن عبد القوى المنذرى
المسـند ــ أحمد بن محمد بن حنبل الشيبانى .
مشكاة المصابيح ــ محمد بن عبد الله الخطيب
المطالب العالية ــ أحمد بن على العسقلانى
النسـائى ــ أحمد بن شعيب النسـائى

ثالثاً كتب التفسير

أنوار التنزيل ــ عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوى .
جامع البيان ــ محمد بن جرير الطبرى .
فتح القدير ــ محمد بن على الشوكانى .

رابعاً كتب السيرة

حياة محمد ــ محمد حسين هيكل .
السيرة النبوية ــ عبد الملك بن هشام المعافرى .
السيرة الحلبية ــ نور الدين بن برهان الحلبى .
مختصر سيرة الرسول ــ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب

اسم الكتاب اسم المؤلف

المواهب اللدنية ــ أحمد بن محمد بن أبى بكر العسقلانى .

خامساً كتب عامة

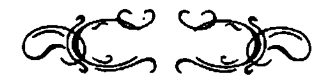
إتمام الوفاء ــ محمد الخضرى .
الأخبار الطوال ــ أحمد بن داود الديثورى .
الإرشــاد ــ عبد الملك بن عبد الله الجوينى .
الإسلام عقيدة وشريعة ــ محمود شلتوت
الأساطيل العربية ــ الدكتور إبراهيم العدوى
الإسلام وأوضاعنا السياسية ــ عبد القار عودة .
تاريخ الإسلام ــ الدكتور حسن إبراهيم حسن .
التربية الإسلامية ــ المؤلف
الخراج ــ لأبى يوسف يعقوب بن إبراهيم .
الخلافة والإمامة ــ عبد الكريم الخطيب .
الديمقراطية فى الإسلام ــ عباس محمود العقاد
رسالة الفروسية ــ محمد بن أبى بكر المشهور بابن القيم .
سمط النجوم العوالى ــ عبد الملك بن حسين العصامى
السياسة الشرعية ــ أحمد بن عبد الحليم بن تيمية .
الشورى فى الإسلام ــ الدكتور بابللى .
الصديق أبو بكر ــ محمد حسين هيكل .
عبقرية عمر ــ عباس محمود العقاد
العلم عند العرب ــ اليدوميلى .
فجر الإسلام ــ أحمد أمين .
الكامل ــ على بن محمد بن محمد الشهير بابن الأثير
مقدمة ابن خلدون ــ عبد الرحمن بن خلدون .
مقومات الاقتصاد الإسلامى ــ عبد السميع المصرى .
مطالب أولى النهى ــ مصطفى السيوطى الرحيبانى .

الفهرس

الموضوع	الصفحة

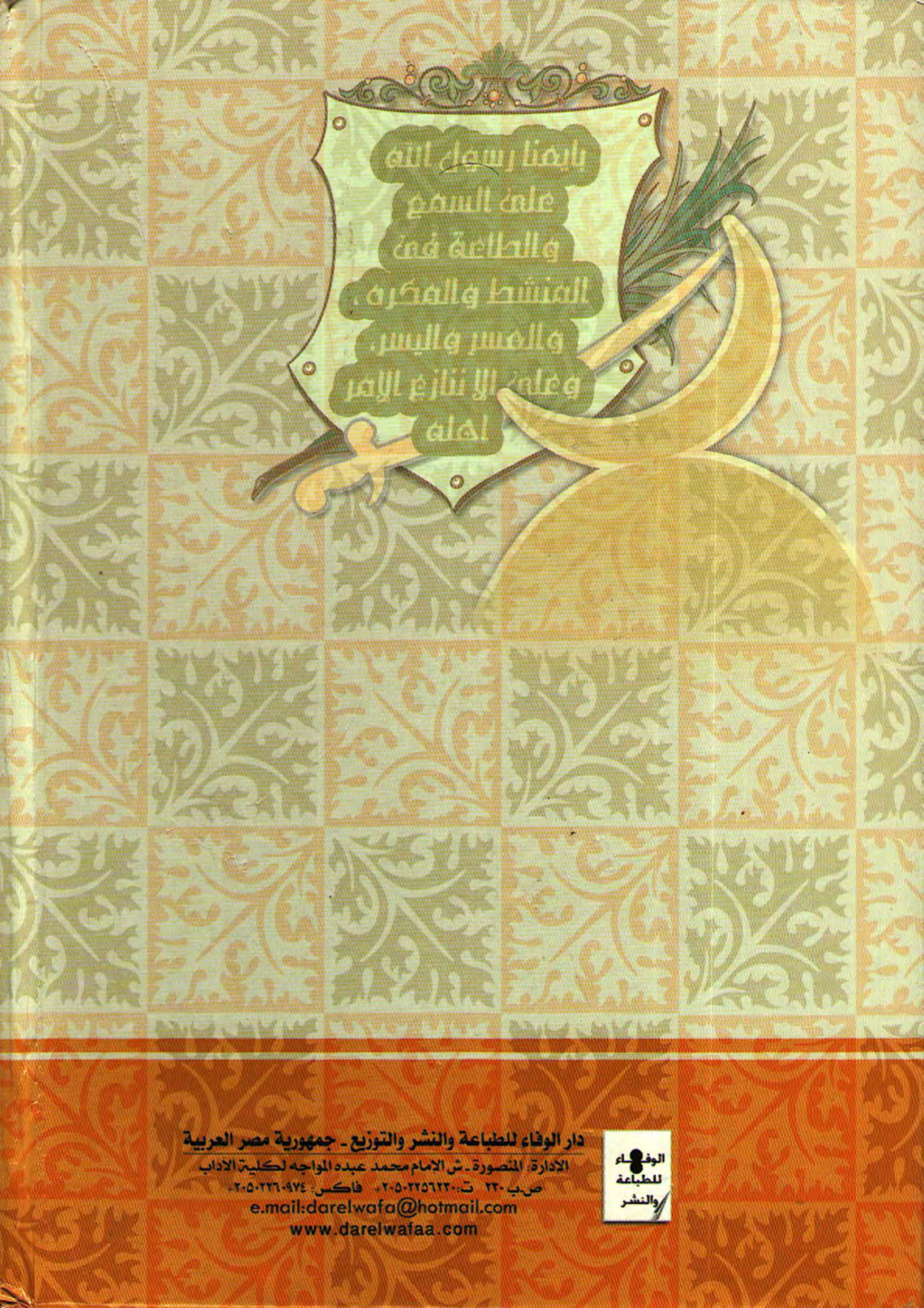
الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة



رقم الإيداع بدار الكتب ٥٣٤٥ / ١٩٨٥

الترقيم الدولى ٧ ــ ٢٦ ــ ١٤٢٠ ــ ٩٧٧



بايعنا رسول الله
على السمع
والطاعة في
المنشط والمكره،
والعسر واليسر،
وعلى ألا ننازع الأمر
أهله
الوفاء للطباعة والنشر
دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ـ جمهورية مصر العربية
الإدارة: المنصورة ـ ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الاداب
ص.ب ٢٣٠ ت: ٢٠٥٠٢٢٥٦٢٣٠+ فاكس: ٢٠٥٠٢٢٦٠٩٧٤+
e.mail:darelwafa@hotmail.com
www.darelwafaa.com